عبد الكريم يحيى الزيباري

سؤال الهوية الكردية

الفارابي

المقدمة

لن أحاول اختصار الكتاب، لن أتطرق إلى تعداد فصولهِ، تاركاً هذه المهمة للفهرست، كما لن ألتزم بمنهجٍ محُدَّد في الكتابة، سأذهبُ حيث تأخذني الفكرة، بلا رقابة، مع حذرٍ قليل استناداً إلى ابن العربي:

واعلـمْ بـأنَّ ذوي الأفـكـارِ فـي عَـمَـهٍ
فَـكُـنْ مـن الـفـكـرِ يـا هـذا عـلـى حـذرِ

ولقلة حذري وقعتُ في أخطاءٍ، حتى أنني كلما راجعتُ الكتاب حذفت وعدلت حتى يوقفني الإجهاد.

ظلَّ سؤال الهوية الكردية غير مطروق فكرياً وبجدية على الأقل. إهمالٌ غير متعمَّد تكرر في انعطافات تاريخية لشعوبٍ أخرى في فترات وظروف محددة، كاليابان وألمانيا الخارجتين من الحرب العالمية الثانية بهزيمة ساحقة: هل تندمجان كليَّةً في الغرب الحديث، أم تقاومان؟ إذا اختارتا المقاومة ماذا تفعلان؟ حتى أنَّ أديباً كتوماس مان رفضَ العودة إلى ألمانيا بعد نهاية الحرب قائلاً: إنَّها مازالت محتلة، فاتهمه مثقفو الداخل بالخيانة والجبن لأنَّه فرَّ من هتلر. والسؤال هنا اليوم: هل يندمجُ الشعبُ الكردي ويذوب في الهوية العراقية التي لم تتشكَّل وتعاني صراعاً أكبر من صراع اللهجات، أم يقاوم؟ ماذا سيكسب من المقاومة؟ ماذا سيخسر؟ هل يندمج في الهوية الدينية الإسلامية رغم الجروح القديمة؟ ما فتئوا يرددون: لقد وقف العالم الإسلامي متفرجاً على مأساتنا، ولم تصدر عنه كلمة شجب أو استنكار. يقول صمويل هنتغتون (لاحظ برنارد لويس ذات يوم أنَّهُ حين يتحقق الناس أن الأمور تسير في اتجاه خاطئ

فإنَّهم يسألون أحد سؤالين: الأول: ما الخطأ الذي ارتكبناه؟ والثاني: من فَعَلَ هذا بنا؟[1]. بحسب التاريخ معظم قادة الشرق الأوسط، ومعتنقي نظرية المؤامرة، من المكارثيين الجدد[2]، يرددون السؤال الثاني مع تجاهلٍ شبه تام للأول، فضلاً عن تجاهل: كيف نُصحِّحُ الخطأ؟

العراق اليوم في حالة سيئة، بينما يبدو إقليم كردستان متعافياً بعض الشيء، لكن هذا لا يعني أنَّ الأول شرطُ الثاني، كما يريد بعض المُغرضين أنْ يصوِّروا لأنفسهم باستمرار عدوَّاً وهمياً، غاب عنهم جدلٌ مهم بخصوص القبل والبعد، فالإقليم لم يتعافَ اليوم بالذات، ولا يوجد

---

(1) لورانس إي. هاريزون وصمويل هنتغتون، الثقافات وقيم التقدم، ترجمة شوقي جلال، 2005، المشروع القومي للترجمة، مجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 60.

(2) المكارثية ممارسة الإرهاب الثقافي، تطلق على قيام شخص ما، أو جهة رسمية بترهيب الأشخاص ثقافياً، أي توزيع التهم جزافاً دون وجود إثباتات كافية تدعم الادعاء، وقد دعيّت باسم جوزف مكارثي سناتور جمهوري عن ولاية وِسْكونْسِن الأميريكية، ادّعى مكارثي عام 1950، في أوج الحرب الباردة أن 205 أشخاص من موظفي وزارة الخارجية الأمريكية متعاطفون مع الشيوعية وأن 57 آخرين أعضاء في الحزب الشيوعي، تبعت هذا الإعلان حملة هدفها إضعاف الثقة بأعضاء بارزين في الحزب الديمقراطي ومنهم شخصيات محترمة جداً مثل دين اكسون وجورج مارشال. وعندما أصبح رئيساً "للجنة الفرعية الدائمة للتحقيق" (1953) تكثفت هجماته فوجّه اتهامات إلى وزير الحربية، روبرت ستيفنز، والعديد من المثقفين والرسميين، أدّت نشاطاته إلى خلق "لوائح سوداء" وتم القضاء على الحياة المهنية للعديد من الناس. أخيراً، وبعد أن دان مجلس الشيوخ نشاطاته في 1954، هاجم مكارثي الرئيس أيزنهاور. في 2 ديسمبر 1954، وافق 67 صوتاً في مجلس الشيوخ على توبيخ السيناتور مكارثي، مات مكارثي في 2 أيار 1957، في سن الثامنة والأربعين بسبب التهاب الكبد الحاد، من جراء إدمان الكحول. واليوم توسَّع المصطلح إلى الاتهامات الغوغائية، متهورة، وغير مؤكدة، تمارس على المعارضة السياسية خصوصاً.

ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ تدهوراً في بغداد سوف يعني ازدهاراً في أربيل، بل تذهب على العكس تماماً جميع المؤشرات، فالعلاقة بين أربيل وبغداد ليست علاقة نفي، بل علاقة تاريخية وطنية، تُكمِّلُ إحداهما الأخرى، كالأب والابن، فلا أحد غير حكومة بغداد بمقدورها تبرير هذا الاستقلال النسبي لإقليم كردستان، وهي التي تمنحه الشرعية الدولية. بالمقابل: يمكن للعراق الاستفادة بشكل إستراتيجي من الاستقرار النسبي في كردستان، كما إنَّ أيَّ خللٍ يصيبُ هذه العلاقة، سوف يفتحُ الأبواب مُشْرَعَةً لتدويلِ الأزمة، وتشظيها في جميع الاتجاهات، وما كان ذلك كذلك، إلا لأنَّ كردستان عانت لعقودٍ طويلة، ولم تحظَ بحوار متكافئ مع بغداد قبل 2003، رغم أنَّنا لا يمكننا تجنُّب الحديث عن أزمة، لأننا إذا فعلنا ستبدو الصورة غير مكتملة، ومصدر الأزمة هو تضارب المصالح، وافتقاد الثقة اللازمة في الدخول في حوار جاد، هو فوز بعض المتطرفين في انتخابات مجلس النواب العراقي في دورتيه الأولى والثانية، نتيجة شعارات تُضْمِرُ إلغاء حقوق الآخر على أساس الهوية المُغلقة، كما حدث في أوروبا وأميركا بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وفي محاضرةٍ للشاعر مؤيد طيب بتاريخ 26/ 6/ 2011 في اتحاد أدباء دهوك (إنَّ بعض المسؤولين، الذين لم يتربعوا على كراسي المسؤولية، إلا بعد أنْ أقسموا على صيانة الدستور، والدفاع عنه، نجدهم بعد ساعة فقط، قد صرحوا لوسائل الإعلام تصريحات نارية، تطعن في الدستور، وفي إحدى المرات سألت أحدهم عن هذه الازدواجية، فأجابَ مباشرةً وهو يبتسم: " نحن نقول هذا الكلام لأنَّ ناخبينا ينتظرون منا هذه التصريحات!! "، وبالتالي فإنَّ أعضاء الدورة المقبلة سوف يكونون أكثر تشدداً)[3].

السائلُ أو المسؤول عن هويته، نفسه، ذاتهُ، صار شخصاً آخر غير

(3) مجلة الصوت الآخر، العدد 356، في 28/ 9/ 2011.

الذي أراد هو أن يكون، لأنَّ عضو مجلس النواب يتصرف بحسب ما ينتظره ناخبوه، هذه ثقافة تجعلني أخسر نفسي، تبحث عن مستهلكين فقط، وهي ثقافة لا إنسانية، وحين شعرَ فلاسفة البنيوية بمخاطر لا إنسانية ثقافتهم، بدأوا ببحثٍ عن حلول وتبريرات. يقول ليفي شتراوس: (إنَّ هدف العلوم الإنسانية ليس الكشف عن الإنسان بل تفكيكه)[4]. ولكن علينا بحسب هيدغر (تجنُّب فهم إنسانية الإنسان على نحوٍ ضيق أكثر مما ينبغي)[5]. الفهم الضيق للإنسان باعتبار هويتهِ شخصاً مختلفاً، وهو بحسب هويته الأكثر اتّساعاً باعتبارهِ إنساناً، وهل غير الفهم الضيّق لإنسانية الإنسان سبب في انحطاطِ العالم إلى واقع المجتمعات البدائية؟ حيث يأكل القوي الضعيف، ويحوّل الغني أخاه الإنسان الذي يعمل عنده، إلى آلة حرارية تعمل في درجة حرارة 37 درجة مئوية، عامل المطعم يعمل منذ الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لقاء أجر يومي قدره عشرة آلاف دينار فقط، صاحب المطعم قد يكسب خمسمائة ألف دينار يومياً أو أكثر، هذا العامل: متى ينام؟ متى يرى أطفاله؟ هل لديه فرصة للتفكير وللتأمُّل؟ هذا النوع من الاستغلال، يمحو الشرط الإنساني في نفوسنا، الفاصل الصامد ضد تحويلنا إلى آلات.

وبحسب مونتين (إنَّ كل فرد في حدِّ ذاتهِ يحمل شكلَ الوضع البشري برمته)[6]. لأنَّهُ قبل أنْ تكون له هويَّة هو إنسان، سُمُوُّهُ في إنسانيتهِ، ولذلك قال تعالى ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(4) إدغار موران، النهج: إنسانية البشرية: الهوية البشرية، ترجمة د.هناء صالح، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009، ص22.

(5) المصدر السابق، ص23.

(6) المصدر السابق، ص24.

المائدة: 32. فَمَنْ يستَحِلُّ قتل الإنسان، يستحِلُّ قتل الجميع، لأنَّهُ ينكرُ الشَّرع، ويرى نفسه إلهاً فوق القانون، كقول النمرود: (أنا أحيي وأميت). لم يقل تعالى مَن قتلَ مؤمناً أو مسلماً، ولم يحدِّد هوية للقتيل، بل قالَ نفساً، إنساناً، بل يَحرُمُ قتل أرنبٍ أو طائرٍ دونما سبب، ومن قتل حيواناً خطأً، تقع عليه صدقة يدفعها كفَّارةً عن قتلهِ الخطأ. لكن ليس في أنواع القتل كافة: سفكٌ للدماء، فالغني يقتل الفقراء باستغلالهم، ووعاظ السلاطين يقتلون المئات بتضليلهم، يُقْتَلُ الآخر بسبب اختلاف لونه أو لغته أو هويته، وهذه العنصرية في ازدياد مستمر، الثري يقسو على الفقراء لأنَّهم فقراء، والمؤمن ينظر إلى غيره باحتقار، بينما الغنيُّ بالإيمان عليهِ أنْ يراعي الفقر الإيماني لدى الآخرين، وكذلك الغنيُّ بالمال أو بالسلطة، أو بالعلم والمعرفة. لكن المتطرفين يقفون على النقيض تماماً، و(ليس هناك بشرٌ أسوأ من الذين يتبجّحون دائماً بهويَّتهم. فهؤلاء المتعصبون لا يعتقدون ـ أنَّهم على صواب ـ فَحَسْب، بل إنَّهم مُسْتَعِدُّون دائماً لحفرِ قبرٍ تحت أقدام من لا يصدِّقُهُمْ، وَمَنْ يُنَبِّهُهُمْ إلى أخطائهم)[7]. الذين يتبجَّحون بهويتهم هم أعينهم الذين يتبجَّحون بثقافتهم، أو أموالهم، أو مناصبهم، أو منزلتهم لدى السلطان.

وكانت الحقوق والحريات في القانون الأساس لسنة 1925 ضئيلة إلى حدٍّ ما، فلم يرد أيُّ ذكرٍ للشعب الكردي، ولا لغيره من الاثنيات، ونصت المادة الثامنة (العراقيون متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفي ما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة. لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين وإليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية ولا يولى الأجانب هذه الوظائف إلا في

(7) رافائيل أرغولّول، صياد اللحظات، ترجمة رفعت عطفة، 2005، دار بدايات، دمشق، ص89.

أحوال استثنائية يعينها القانون)، ووفق قانون آخر قسموا العراقيين إلى تبعيات عثمانية وفارسية، ومنحوا الوظائف العامة إلى الوافدين من سوريا ومصر والجزيرة العربية، ثمَّ صدرَ دستور العراق المؤقت في 27/ 07/ 1958، ونصت المادة الثالثة منه (يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة باحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم ويعتبر العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية). فازدهرت الثقافة الكردية لثلاث سنوات فقط، ثمَّ صدر دستور العراق 29/ 04/ 1964 لتنص المادة 19 منه على (العراقيون لدى القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين ويتعاون المواطنون كافة في الحفاظ على كيان هذا الوطن بما فيهم العرب والأكراد ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية) فعين للكرد واجب الحفاظ على كيان الوطن، ولم يمنحهم أيَّة حقوق. ونصَّ دستور العراق المؤقت 16/ 07/ 1970 في الفقرة ب من المادة الخامسة (يتكون الشعب العراقي من قوميتين رئيسيتين، هما القومية العربية والقومية الكردية ويقر هذا الدستور حقوق الشعب الكردي القومية والحقوق المشروعة للأقليات كافة ضمن الوحدة العراقية). وفي الفقرة ب من المادة السابعة (تكون اللغة الكردية اللغة الرسمية إلى جانب اللغة العربية في المنطقة الكردية). فانتشرت النزعة القومية المحلية الإقليمية الكردية.

واليوم تمرُّ الهوية الكردية بمرحلة انتقالية خطيرة، بعد معاناة عدة قرون، مدن كردستان الثلاث (أربيل، السليمانية، دهوك) بعد 2003 خصوصاً، مرت بمراحل نمو سريعة جداً، على نحو قفزات، وكلما تتسع المدن، تبتعد عن جذورها التاريخية وممارساتها وتقاليدها الاجتماعية، وتزداد تبعيتها الاقتصادية، حيث تعتمد في تأمين مفردات استهلاكها

اليومي على دول الجوار: تركيا، إيران، سوريا، هذه التبعية عينها هي التي عانتها أثينا في أوج حضارتها، قبل السقوط، وروما من بعدها، وبغداد المستعصم، كانت هذه المدن تستورد كلَّ شيء، مجرد سوق استهلاكية، حتى لم يعد بمقدورها دفع رواتب موظفيها من الشرطة والجيش وموظفي البلاط، حتى أنَّ فكرة المجتمع المحلي الكردي، لم تعد أكثر من فكرة جغرافية بحتة، لم يعد أحدٌ يهتم أو يلاحظ فقدان المودة، وانتشار التشدد إلى حدٍّ ما.

ونقلة من غريزة حب البقاء، إلى غريزة حب النمو والتطور، ثم نقلة بعد نقلة وفجأةً لم نعد نعرف ماذا نريد؟ وإلى أين نحن سائرون؟ ولا نكادُ نعرف ماذا لدينا؟ ماذا نملك؟ وماذا يملكون؟ وماذا ينقصنا؟ خصوصاً والظروف الخارجية من حولنا مضطربة، وبإزائها اضطربَتْ الرؤى والطموحات، مقابل ذكريات ثابتة عن حجم المعاناة التي ما زالوا يُبْدُوْنَ قلقاً صريحاً وواضحاً بشأن إمكانية تكرارها، حالة الاضطراب هذه، أشفقَ منها أدونيس فوقفَ في 16 نيسان 2009 أمام رفات الضحايا في مقبرة حلبجة وقال: (أجبرتني ذكرى مجزرة حلبجة على البكاء، أنا الذي لا أبكي، وهذه إحدى سيئاتي الكثيرة، ولكن لا تفسحوا المجال لهذه الذكرى الأليمة أن تفسد عليكم حياتكم)[8]. يبدو أنَّ شيئاً لا يفسد الحياة كما تفعل الذكريات الأليمة التي لا تُنسى.

مكوِّنات الهوية بحسب هنتغتون (1- شخصية: العمر، الاسم. 2- ثقافية: اللغة، الدين، الطائفة، العشيرة، القومية. 3- إقليمية: الجوار، البلدة، المدينة، الإقليم. 4- سياسية: الزمرة، الحزب. 5- اقتصادية: الوظيفة، الطبقة. اجتماعية: الأصدقاء، النادي، المكانة الاجتماعية). وبالإضافة إلى كلِّ ذلك، فللهوية مكوِّن رئيس فات هنتغتون، هذا

---

(8) مجلة الصوت الآخر، العدد 246، في 10 حزيران 2009، مقال بعنوان 'أهداف النشاطات الثقافية'.

المكوّن هو الذي جعل (فراكلين بنجامين يفتخر عام 1760 لانتصار بريطانيا على فرنسا، ويقول: "أنا بريطاني" وفي تموز 1776 شجب فراكلين وألغى هويته البريطانية ووقع إعلان الاستقلال الأميركي)[9].

هذا المكوّن هو مجموعة كبيرة من الشكوك والأخطاء والمخاوف، التي تثقل كاهل الإنسان، تجعله أكثر تمسكاً بهويتهِ، أو تجبره على إلغائها، وهو بالتالي يعاني صراعاً من جرّاء التغير المستمر في هويته، والنابع من عجزه عن الإجابة عن (مَنْ أنا؟ ماذا أريد؟ لماذا أنا هنا؟ أينَ كنتُ قبل مائة سنة؟ أين سوف أكون بعدها؟... الخ). هذه الأسئلة تقضُّ الفكر الإنساني، ولأنَّ بعض العلوم الإنسانية، قد خرجت عن السيطرة، وصارت لا إنسانية، لا تجد حرجاً من تبرير العنف، ومحاولات إلغاء الآخر، منذ العرض الأول لمسرحية شيلر "اللصوص" إلى مقولة الجنرال الأميركي باتون (الأسلحة الأكثر دماراً، هي الأكثر إنسانية، لأنَّها تؤدي إلى نهاية سريعة للحرب). لا يمكنُ لشعبٍ ينقادُ وراء المحافظين، أنْ ينجو من تأثيرات خارجية ناتجة من محاولات غزو ثقافي، من السهل احتواؤها وتحجيمها، لأنَّ الوقوف ضدَّها سوف يزيد من خطورتها، فلكلٍّ جديدٍ لذَّة، والإنسان بطبعهِ يعاني صِراعاً بخصوص هويته المفقودة، وهي غير مفقودة، ولكنَّها تنفلتُ منه كلما حاول الإمساك بها، لأنَّها متغيِّرة، وبقاء الحال من المُحال، فالضحيَّة تصير أقسى من جلادها حين تواتيها الفرصة، والأكوان في تغيُّرٍ مستمر، وجوهر كينونة الإنسان في تغيره المستمر، وإنسانيته كامنة في (لن نصبر على طعامٍ واحد) حتى لو كان طعاماً من الجنَّة، ماذا يفعل الإنسان في بحثه عن هويته المفقودة، إذا كان يعرف أنَّهُ يقفُ عاجزاً أمام أسئلة

(9) هنتغتون، من نحن، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، دمشق، ص119.

تتعلق بهويته: مَنْ أنا؟ وأنْ نُشخّص ونتأمّل ونعيد صياغة الأسئلة التي نتحدّث عنها.

وعَوْدًا عَلَى بَدْءٍ، تجاهلنا لأسئلة الهوية من نوع: مَنْ نحنُ؟ ماذا نريد؟ قد يؤدي إلى عزل الشعب الكردي عن قضيته الرئيسة، ومحو هويتهِ الثقافية، وخلخلة انتمائه، وقطع جذور الموروث الشعبي، مما يهدِّد الأمن الاجتماعي، ويُحقِّق قطيعة بين هويات أديان وقوميات مختلفة، كانت متجاورة ومتعايشة، لكنَّ كلاً منها يعيش في عالمٍ مختلف من الحقائق المختارة بانتقائية عالية، وتأويلات مُغْرِضة، من التاريخ المشترك عينه، لكلٍّ قوميةٍ رؤيةٌ مختلفة، ومفاهيم متناقضة، لكن مَن يقرأ أسئلة الهوية الكردية، اليوم، سيدرك أنَّ ثَمَّةَ صورة خارجية جديرة بالتأمُّل:

كيف يمكننا تحقيق مصالحنا العامة بصورة موثوقة؟

في أربيل عاصمة إقليم كردستان أكثر من عشرين قنصلية أو مكاتب رسمية لدول العالم، من بينها أربع دول أعضاء في مجلس الأمن الدولي، تتعامل مع الإقليم بشكل رسمي وبموافقة بغداد، هذا النشاط الدبلوماسي الذي يقوم به إقليم كردستان عربياً ودولياً، بموازاة سياسة الاعتدال والتزام الحياد السياسي الإيجابي غير السلبي، يستلزم وجود خبراء في علم السياسة، يحللون المواقف والتصريحات ويستنتجون ويعملون بصمت تام لدفع العجلة إلى الأمام، لأنَّ الحياد السلبي المزعوم والاكتفاء بمراقبة التطورات، ربما يخفيان موقفاً خائناً أهْوَج، لدولةٍ أو كتلةٍ ما، تُحَرِّضُ جزءاً ضد الآخر، لِحَاجةٍ تُحاولُ إخفاءها، كمن يحاول حجبَ شَمْسِ الضُّحَى بغربال، فأيُّ طريقٍ يؤدِّي إلى فَشَلٍ أميركيٍّ، هو الذي تسلكهُ وتؤيدهُ بعض الدول، حتى وإنْ كان بازدياد عدد القتلى من العراقيين، أو فشلٍ سياسيٍّ أو كارثةٍ أخرى، ومصائبُ العراق عند قومٍ فوائدُ.

الحياد الإيجابي قد يمَنَحُ أربيل ثقلاً إستراتيجياً، يجعلها محط أنظار العالم، لتصير كتلة التحالف الكردستاني الورقة الرابحة، في مجلس

النواب العراقي في دورته الثانية، رغمَ أنَّها لم تنل غير 57 مقعداً من مجموع 275 مقعداً، أيْ خُمس المقاعد تقريباً، لكن الكتل السياسية الأخرى، تسعى مُعَنَّاةً إليها، ورغمَ ذلك لَمْ يَصْدُر عن الإقليم تصريحٌ واحدٌ معادٍ لأيَّة كتلة نيابية أو شخصية سياسية، وأبقت الأبواب مُشرعة للحوار مع الجميع، وسارعت إلى الترحيب بأية بادرة لانفراج أزمة تشكيل الحكومة التي استمرت ثمانية شهور بدءاً من آذار 2010، واقترحت استضافة الفرقاء في أربيل، لدفعِ العجلة إلى الأمام، ولكن العجلة لم تتقدَّم، النيات الحسنة وَحْدَها غير كافية، التغير الإيجابي في الموقف الكردي جاءَ عن فهمٍ تام، بأنَّهُ ليس بمقدورِ أحدٍ الرقص في الظلام، وتبديل التحالفات، وتغيير المواقف، فالعالم كله، فَضلاً عن الشعب العراقي يسمع ويراقب العملية السياسية التي لم تتقدَّم، حتى تدخلت المحكمة الاتحادية بقرارٍ بات غير قابل للتمييز، وليته كان قابلاً، ليرى الجميع ويسمعَ حجج الذي يريد التميز، بغية تأخير تشكيل الحكومة أكثر من تسعة شهور، وذلك لارتباط إرادةِ بعض الكتل بأطراف خارجية، تعترف عَلَناً بنفوذها في بغداد، وبأنَّ لها مصالح لا يمكن أنْ تتخلى عنها في بغداد، والمصالح هي كِنايَة عن الأطماع، فتشكيل الحكومة العراقية هو في جانبٍ آخر أزمة دولية، قبل أنْ يكون أزمة عراقية، وأمريكا لا تريد معارضة قوية في بغداد، قريبة من نصف مقاعد مجلس النواب، بل تريد حكومة شَرَاكة وطنية، وبمعنىً أصحّ حكومة مُحَاصَصَة، كالحكومات السابقة، تشترك فيها الأطراف كافة لأنَّ وجود معارضة قوية، يعني وجود رقابة، ووجود رقابة قوية يبدو أنَّهُ لا يخدم المصالح الأمريكية، كما أنَّ الشراكة الوطنية الظاهرة في حكومة مؤلفة من جميع الأطراف، تخفي بركاناً من الأحقاد والاتهامات المتبادلة بتهميش الآخر.

ليس بمقدورنا اليوم أنْ نقاومَ تيار العولمة، فالكرة الأرضية، قرية صغيرة، وعلينا أنْ نعي موقعنا أمام الآخر في هذه القرية، وجميعنا مغلوبٌ على أمرهِ فيها، لكنَّ الغالب بالشرِّ أولُّ المغلوبين، وليس بمقدور

العولمة إلغاء الهوية، مهما كانت رياحها عاتية، يقول الشاعر حاجي قادري كويي:

(مائة شاهنشاه وملك قد ماتوا
انظرْ فكردنا لا يزالون كرداً
الشعب باقٍ وغيرهُ فان)(10)

بينما مئات القبائل من الهنود الحمر كانت موجودة قبل كريستوفر كولومبس اختفت ولم يبقَ منها شيء.

كما أنَّ الاستفادة من العولمة أو التعامل مع الآخر، لن يتم بدون تغيير هويوي، لكن هذا التغيير، ليس بالضرورة أنْ يكون ضارًّاً ضَرَراً محضاً، وإنْ كانَ من المستحيل أنْ يخلو من ضرر هويوي، ولكنَّهُ ضرر لا بدَّ منه، لمعرفة أنفسنا بشكلٍ أفضل، وموقعنا بالتحديد من واقعنا المحيط، بدون تزويق يتطلب خوض بعض التجارب.

الهوية الكردية وهي تسيرُ قُدُمَاً في بحثها عن نفسها أو عن التكامل الذي تبغيه، تحاول القفز فوق الكثير من العقبات ذوات الجذور الضاربة في التاريخ، القفزة تعني وجود هوة بين الهوية الداخلية والخارجية، القديمة والحديثة، لكن الهوية الحديثة لا تعني إلغاء الهوية القديمة، وليس بمقدورها، كما يريد البعض منها، وبالتأكيد ليست الصورة الداخلية بأقل أهمية، والتي سوف نقدِّم لها بحكايةٍ من الموروث الهندي الشعبي:

توفي رجلٌ ولم يترك لأبنائهِ الثلاثة غير بطيخة، فاقترحَ الابن الأكبر الاحتفاظ بها كذكرى موروثة من أبٍ عزيز، اعترضَ الابن الأصغر بأن ذلك يجلب العفن والروائح المؤذية، واقترحَ أكلها ورمي قشورها، أما الابن الأوسط فأجاب نأكل البطيخة ونلقي قشورها، نشتري الأرض

(10) د. عزالدين مصطفى رسول، الواقعية في الأدب الكردي، دار ئاراس، السلسلة الثقافية، 2010، أربيل، ص70.

المجاورة ونزرع البذور، فنخلّد ذكرى أبينا وننتفع بالخير لأنفسنا وجيراننا، الابن الأكبر (أ) أكثر التصاقاً بالماضي، رأي المحافظين المتطرفين، الابن الأصغر (ج) يمثل العقلانيين المجددين المتطرفين، الذين لا يعلمون أنّهم يحاربون الهويّة، والتراث، ويعملون على زعزعة الوعي الوطني، وزرع بذور الفتنة، وخلخلة الوفاق وروح التسامح، وعرقلة التنافس الشرعي. الابن الأوسط (ب) رأي المعتدلين، لأنّهُ يعلم أنَّ الحداثة والتجديد لا يعنيان بمكان التخلص من الموروث والأصول.

من منطقِ أرسطو تأسَّسَت العقلانية الغربية، بدأ منطقه بمبدئين، مبدأ الهوية، ويُسمَّى أيضاً بمبدأ الذاتية، ويعني أنَّ أ = أ، لا يمكن أن يتغيّر (أ) بشكل جوهري، وإنْ حدث تغيير فهو جزئي فقط، وكذلك (ب) و(ج) لذا يجب أنْ يستمر الحوار والتسامح بينهما، ومبدأ عدم التناقض، أي لا يجوز لشيء أنْ يحمل صفتين متناقضتين في الوقت نفسه، فيكون موجوداً وغير موجود في الوقت نفسه، أو حداثياً وتقليدياً، أو شيوعياً رأسمالياً.

في هذا العصر، يتحدث الناس عن حقوقهم فقط، لم نسمعْ أحداً يتحدث فيه عن الواجبات، فعدم اهتمامنا بواجباتنا هو أسُّ المشكلة، فعدم قيام الجماهير بواجبها الضروري لتصحيح المسار، هو سلوكنا الدائم، وهو الذي يجعل الآخرين على ما هم عليه، فلو تعاملنا بطاعة عمياء، سيعاملوننا كعبيد، ولو تعاملنا معهم بلطف ودماثة، وسهولة وأخلاقٍ ليِّنة، سوف يعاملوننا بالمثل، وهوية المرءِ تتبدَّل بحسب الآخر الذي يواجهه، يقول بيركلي: (إنَّ طعم التفاحة ليس في التفاحة نفسها ـ فالتفاحة بذاتها لا طعم لها ـ وليس في فَمِ مَنْ يأكلها، وإنما الطعم في التواصل بين الاثنين)[11]، فهوية الإنسان ليس في نفسه، بل في الشخص

---

(11) بورخس، صنعة الشعر، ترجمة صالح علماني، المدى، 2007، دمشق، ص15.

المقابل، فالذكرُ أمام الحسناء الجميلة الأنيقة، يصيرُ شخصاً آخر، وأمامَ شخصٍ يحبه كصديقٍ أو قريب، يصيرُ لطيفاً لأنَّهُ سعيد، والسعادة واللطف معلولان، والعِلَّة تَدورُ معَ المَعلولِ وُجوداً وعَدَماً، لأنَّها تسبق المعلول في الرتبة والدرجة، فإذا زالت العِلَّة زالَ المعلولُ، وعند الغوصِ عميقاً، في أعماقِ الإنسان، في دوافعهِ ورغباتهِ المكبوتة، نكتشفُ أنَّ الإنسان يدفنُ جوهره الذي يجعله هو، يُفَاجأ أنَّ في داخلهِ غابةً، لم يكتشفْ حدودها بعد.

سواء كان هاجس أسئلة الهوية الكردية، يَفرضُ نفسهُ في العلن، أو في السر، مباشرةً أو بصورة غير مباشرة: مختبئة وراء المصطلحات الشعبية التي يشيعها اللاوعي الجمعي، وتأثيره في السلوك الاجتماعي، وللباحث أنْ ينتبهَ أنَّ هذه الأسئلة جزءٌ رئيس من الشرط الإنساني، اليوم يتبارى بشأن هذا الجزء بعض المثقفين الكرد (ج) في بحثٍ محموم عن بناء هوية كردية معاصرة، تتلاءم مع العالم الحديث، دون أدنى اعتراف بالجذور التراثية والثقافية، ولا يعلمون أنَّ التراث والهوية وجهان لعملةٍ واحدة، فلا تكاد تجد هويةً بلا تراث، أو تراثاً بغير تحديث، والتراث هو الموروث الاجتماعي، ولهذا يعاني تفكير هؤلاء شيئاً غير قليل من التعسُّف، فالمجتمع الكردي المحافظ، لا يمكن قولبته بهذه السهولة، برفع شعارات قد تكون غبية، وزائفة، ومُضَلِّلَة، عند التطبيق، كاستخدام حرية الرأي والديمقراطية، ككلمةِ حقٍّ يُراد بها باطل، ولهذا يصطدم هؤلاء بصخرةٍ كبيرة (أ) والبعض أيضاً يعمل على استغلال هذه الصخرة، فيقفُ كداعٍ للتمسك بالماضي، والجمود، وذلك لأنَّهم يرون في كلِّ فِكْرٍ جديد وموجةٍ فكرية جديدة، انحساراً لظلالهم الباهتة وأطلالهم البالية، ومصالحهم الشخصية، وفي حوارهم الثقافي مع الآخر لديهم قاعدة: هذا كردي، هذا غير كردي، ثمَّ ظهرَ بعد ذلك: هذا كردي أصيل، هذا غير أصيل، ثمَّ ظهرت ألقاب وأنواع جديدة، منها الكردي "البالة"، وهذه التسمية وإنْ جاءت اعتباطاً، لكن من غير الجائز تركها، دون تفسير

وتحليل، فهي كلمة تنعتُ الكردي المُستخْدَم لدى غير الكردي، أو الذي نشأ في بيئةٍ غير كردية، وإنْ كانوا يعلمون أنَّ الذين فروا من كردستان العراق إلى محافظات العراق الأخرى، هم الأغنياء والوجهاء، بسبب الظروف الأمنية السيئة آنذاك، أو من الذين نفتهم الدولة في عمليات تهجير متفرقة وقعت في عمر الحكومة العراقية منذ بداية تأسيسها، ولأسبابٍ مختلفة، وبالتالي فلا ذنبَ للكردي الذي ولد في بغداد أو في البصرة، وظهرَ فريقٌ ثالث يحاول التوفيق (ب) وفرقٌ أخرى تحاول القفز عالياً، أو الاعتزال. وفريق الاعتزال هو الأخطر والأكثر عنفاً، لأنَّهُ يغري (أ) و(ج) كلّاً على حدة، بجدوى المقولات التي يتبناها، وهو استسلامٌ يهدِّدُ كياننا، يتمثَّل البقاء في الظلام بصمت.

السياسي في العراق هويته ملتبسة، فهو عسكري محترف، وأكاديمي، واقتصادي، وكلُّ شيء، ولكن الغالب على هوية السياسي، هو العنصر العسكري، ولهذا أسميه العسكياسي.

لا أدري لماذا لا يرتدي ساسة المنطقة الخضراء الزيَّ العسكري؟ خصوصاً وهم متخندقون في المنطقة الخضراء وراء أكداسٍ من أكياس الرمل الكبيرة، ونقاط التفتيش الكثيرة. هل هذه مأساة تاريخية أم مهزلة؟ بالأمس القريب احتفلَ الشعب العراقي مُجبراً بتحرير الكويت، واليوم يحتفل بتحرير العراق! بالأمس احتفلنا بانتصارات زائفة كأمِّ المعارك ويوم النصر العظيم، اليوم نحتفلُ لأنَّ العراق أكثر دول المنطقة استقراراً وأمناً!! يعلِّقُ ماركس على مقولة هيغل (جميع الأحداث الكبرى والشخصيات التاريخية تكرر نفسها مرة ثانية إنْ جازَ التعبير) بقوله: (لقد نسيَ هيغل أنْ يضيف في المرة الأولى كمأساة، وفي المرة الثانية كتهريج)[12].

---

(12) جورج لوكاش، الأدب والفلسفة والوعي الطبقي، ترجمة هنريت عبودي، دار الطليعة، 1980، بيروت، ص95.

جورج بنجامين كليمنصو (1841-1929) رئيس وزراء فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى قال: (الحرب لعبةٌ خطيرة جداً، ومن الخطأ تركها للعسكريين وحدهم). بعد أكثر من عقدين ردَّ عليه الجنرال شارل ديغول (1890-1970) بقولهِ: (الحرب لعبة خطيرة جداً، ومن الخطأ تركها للسياسيين وحدهم). كانا محقين، كلٌّ في عصرهِ وأوانهِ والظروف المحيطة، وبعد أكثر من نصف قرن، قال الفريق الركن رعد مجيد الحمداني قائد فيلق الحرس الجمهوري العراقي الثاني: (لكي لا يتحمَّل القادة السياسيون أخطاء القادة العسكريين، ينبغي أنْ يتمسَّكوا بتلك الحدود الفاصلة بينهما)[13]. ما هي الحدود الفاصلة؟ هل يعلم رئيس الحكومة القائد العام للقوات المسلحة، وزير الدفاع والداخلية وكالةً، شيئاً عن هذه الحدود الفاصلة؟ لماذا يدعمُ شخصاً في منصب قائد فرقة رغم معرفته بكلِّ الأخطاء التي ارتكبها؟ يذكرني بعبد الملك بن مروان ودعمهِ غير المحدود للحجاج بن يوسف الثقفي: بذرة سقوط الدولة الأموية.

كلُّ خطأ عقوبةٌ للخطأ الأول، حرب الخليج الأولى كانت مأساةً كبيرةً، وقعت لأسبابٍ سخيفة، باعتراف قادة الطرفين في الرسائل الشخصية التي تبادلوها بعد نهاية الحرب، حرب الخليج الثانية كانت تهريجاً حقيقياً، انتحاراً سياسياً وعسكرياً بسبب حجم الديون الكبيرة التي ترتبت على الحرب الأولى، بتوابعها والاحتفالات السنوية بالانتصار العظيم في أمِّ المعارك، قام الرئيس بوش الأب بتحريض الشعب العراقي على الثورة والانتفاض، ووعدَ بمؤازرته في خطاب أذاعته وسائل الإعلام، وألقيت المناشير، ولكن الرئيس الأمريكي لم يفِ بوعودهِ، وتركَ أربع عشرةَ محافظة تحت سطوة القمع والانتقام، وما حرب الخليج

(13) رعد مجيد الحمداني، قبلَ أنْ يغادرنا التاريخ، الدار العربية ناشرون، 2007، بيروت، ص289.

الثالثة إلا نتيجة من نتائج الحرب الأولى، لمّا لم تستطع أمريكا حشد التأييد الدولي لحربها الأخيرة، مع تهديد وزير خارجية فرنسا باستخدام حق النقض الفيتو، إذا تمكنت أمريكا من الحصول على تسعة أصوات من مجموع خمسة عشرَ صوتاً، أنذرَ بوش الابن بدعم بريطانيا وإسبانيا صدام حسين بوجوب مغادرة العراق مع نجليه خلال 48 ساعة، مع تسريب تصريحات إعلامية لكبار المسؤولين الأمريكيين، بأنَّ الحرب قائمة سواء غادر الرئيس العراقي أم لم يغادر. حاول الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة بدعم من السعودية، إقناع صدام حسين بمغادرة العراق لتجنب ويلات الحربِ، واليوم أيضاً أقنعت السعودية الرئيس التونسي زين العابدين بضرورة تجنب إراقة الدماء، والمصري كذلك. فمجلس الأمن الذي يسارع إلى التدخل في حالات انتهاك حقوق الإنسان، يتقاعس إذا تغيرت شخصيتا الظالم والمظلوم، وكذلك الموظَّف الذي يسارع إلى تسهيل معاملة المراجع إذا كان ثريَّاً شهيراً، أو مسؤولاً كبيراً أو مواطناً قد يحمل رسالةً من أحدهما، يتقاعسُ إذا كان المراجعُ مواطناً عادياً، فالفساد موجود في الحقل اللاواعي السائد، وليس بالمقدور التأكد هل فساد المجتمع سبب لفساد السلطة، أم نتيجة؟ نتجنَّب الولوج إلى متاهة البيضة والدجاجة، لنعودَ إلى الناس صانعي التماثيل التي يعبدونها، ومن ثمَّ يثورون عليها، الناس يديمون شكاواهم وتذمرهم، لا يجدون وقتاً للسؤال: كيف نصحِّحُ الخطأ؟ بدلاً من هذا يسألون: مَنْ فعلَ هذا بنا؟ ماذا نفعلُ بهِ؟ الناس في هذا العصر يتحدثون عن حقوقهم فقط، لم أسمعْ أحداً يتحدث فيه عن الواجبات، عدم اهتمامنا بواجباتنا هو أسُّ المشكلة، سلوكنا هو الذي يجعل الآخرين على ما هم عليه، فلو تعاملنا معهم بلطف ودماثة، وسهولة وأخلاقٍ ليِّنة، سوف يعاملوننا بالمثل، وهوية المرءِ تتبدَّل بحسب الآخر الذي يواجهه، كتفاحة بيركلي، ولا يوجد أدنى تواصل بين الشعب المغلوب على أمرهِ، وحكومة المنطقة الخضراء، ومن الغبن تحميلهم

الخطأ وتبرئة أنفسنا، خصوصاً وأنَّ صناديق الاقتراع تشهد لهم، وسوف يفوز الأشخاص أنفسهم في أية انتخابات مقبلة، كما قلت في الانتخابات السابقة، وصدقَ حدسي، خصوصاً وأنَّ الصناديق بأيديهم.

لم يستطع كتابي مجاراة البحث العلمي، لأنَّه في أصلهِ مجموعة مقالات، لكن بعض أمَّهات الكتب الفكرية كانت في أصلها مجموعة مقالات، تعرضت للتنقيح، والتشذيب، كما لم ألتزم بوحدة الموضوع، حتى قد يبدو للقارئ أحياناً أنَّ العنوان لا يتطابق مع المتن، لكن ونحن نعيش هذا التطور الهائل، قد صار واضحاً جلياً، أنَّ كلَّ شيء متعلِّق بكلِّ شيء، وتقاعسنا وكسلنا الذهني ينأيان بنا عن اكتشاف العلائق المجهولة بين الأشياء، ولست أروم الحصول على درجة علمية، ولا جائزة، ولعلي ساهمت في رفد المكتبة الكردية بكتابٍ وعنوانٍ جديد، وربما سهَّلتُ على الباحثين من طلبة العلم، التنويه بالمصادر التي اعتمدتُ عليها، كما أنَّ مناهج البحث العلمي، صارت محلَّ انتقاد الكثير من العلماء والباحثين لكون بعض أساتذة الجامعات أبعد ما يكون عن التجرد التام للعلم، وانشغالهم بمصالحهم الشخصية، كما أنَّ آليات البحث الأكاديمي قد أكلَ الدهرُ عليها وشرب، ومن شأنها أنْ تقلل وتحصر حرية الباحث، وتحجِّمُ آراءه، بتمجيد المصادر التي كانت وسيلة فصارت غاية، وتغالي في قدسية التوثيق على حساب أهمية متن البحث نفسه.

من مقالةٍ قصيرة نشرتها في جريدة الزمان[14]، ثمَّ استهوتني محاولة تنفيذ حفريات في الهوية الكردية المعاصرة، للخروج من دائرة الكسل الذهني، والتأكيد على أهمية الموضوع، الذي لم أستطع أنْ أمنحهُ حقه،

---

(14) مقال آركيولوجيا الهوية العراقية، جريدة الزمان، ص2، العدد (3713) في 5/ 10/ 2010.

لضعف قدرتي وضيق الوقت، وقلة المصادر، ورغم كلِّ ذلك لَمْ يرقَ كتابي إلى مستوى الدراسات الأكاديمية، خصوصاً بعد التطور الكبير الذي أحدثتهُ المؤسَّسة الأكاديمية في علم الخرائط، حتى أنَّهم طوروا خريطة قرية صغيرة، حتى صارت تتَّسِعُ لمدينةٍ كبيرة بعمرانها وجسورها!!!

اكتشفَ فرانك فوريدي أستاذ علم الاجتماع في جامعة كينت البريطانية، وبواسطة المراسلات مع زملائه من دول العالم، أنَّ التسطيح المؤسَّسي لم يكن مجرد مشكلة بريطانية، يقول فوريدي: (في مايو عام 2003 كتبت مقالاً عنوانه "ما الذي تعنيه الجامعة الآن؟" ركزت على الغياب النسبي للتحفيز الفكري والتحدي في الجامعات المعاصرة، وسردتُ قصصاً أخبرني بها طلاب في المرحلة الجامعية الأولى حيث هناك العديد من الحالات التي يقضي فيها الطلاب عاماً كاملاً لا يقرؤون فيها كتاباً واحداً)[15]، هذا الكلام عن بريطانيا التي تجني أكثر من سبعين مليار دولار سنوياً بواسطة السمعة العالمية لجامعاتها، فكيف الكلام في جامعاتنا؟ ويكمل فوريدي: (وفي حين أنَّ المؤسسة الثقافية تفخر وتتباهى بإنجازها المتمثل في تحويل المتاحف إلى مراكز نشاط اجتماعي أو حدائق ترفيهية تفاعلية، فإنَّ أولئك الذين يديرون التعليم العالي، ما زالوا خجلين من الإعلان عن حقيقة أنَّهم منخرطون في تحول الجامعات إلى مدارس ثانوية يجري التعامل مع طلاب الجامعات على نحو متزايد على أنَّهم زبائن/ص151)[16]. خصوصاً إذا كان الطلاب مسؤولين سياسيين أو قادة أجهزة أمنية، كما في جامعات العراق الجديد حيث لا يُعامل الطالب المسؤول كطالب، بل كزائر مفتِّش،

(15) فرانك فوريدي، أين ذهب كل المثقفين؟، ترجمة: نايف الياسين، مكتبة العبيكان، 2010، الرياض، ص9.

(16) فرانك فوريدي، أين ذهب كل المثقفين؟، ترجمة: نايف الياسين، ص51.

يمتحنُ في غرفة العميد بطريقة openbook وبمساعدة أفضل الأساتذة يتخرَّج بدرجة جيد.

ماذا بوسعي؟ ربما يشفعُ لي أنّي بَذَلْتُ جُهْدَ المُقِل، في البحث والتنقيب، والفحص والتحليل، والشرح والتفسير والمقارنة، مع الاستعانة بالمصادر الشحيحة التي وقعت تحت يدي، وهذه بضاعتي المُزجاة أضعها بين يدي القارئ الكريم، وإنْ أخطأت، فمن نفسي، وعجزي، وضيق الوقت، وقلة حيلتي وشحّ مصادري، كما لم يخلُ كتابي من تحليلات وآراء، قد يراهن البعض على خطئها، لكني أنوّهُ بحقيقة ثابتة منذ بدء التاريخ، لم يسلم إنسانٌ من الخطأ والسهو والنسيان.

الفصل الأول

اللغة والهوية

كان رولان بارت يتنزَّه في بلدته التي تقع في الجنوب الغربي في فرنسا، بلدة هادئة يقطنها صِغار المتقاعدين، فقرأ ثلاث لافتات مختلفة على باب فيلات ثلاث (كلب شرير- كلب خطير- كلب للحراسة) فأخذَ يفكِّر في تفاحة نيوتن، واستنتجَ بارت (إنَّ هذه التعبيرات الثلاثة لا تكون سوى تعبير واحد ورسالة واحدة: "لا تدخلوا" وإلا سَتُعَضُّون..عبارة "هذا كلب شرير" عبارة عدوانية، وعبارة "هذا كلب خطير" تنمُّ عن حب للبشر، وعبارة "هذا كلب للحراسة" عبارة تبدو في ظاهرها موضوعية.. مالك الفيلة يختبئ وراء خطابه)[1] وهكذا تختبئ كلُّ قائمة انتخابية وراء شعاراتها، وكلُّ إنسانٍ وكلُّ جماعةٍ بشرية تختبئ وراء لغتها، وهوية الإنسان تنكشف جزئياً من لغته وأسلوبه في الكلام، ويضيف بارت (فالمجتمع ببناه الاجتماعية- الاقتصادية والعِصابية، يتدخَّل وهو الذي يبني اللغة كما لو أنَّها حَيِّز حربي.. ولقد نقول إنَّ الترادف هو الذي يسمح للغة بالانقسام، ذلك لأنَّ الترادف مُعطى نظامي وبنيوي وهو

---

(1) رولان بارت، هسهسة اللغة، ترجمة د.منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، 1999، حلب، ص160.

على نحوٍ من الأنحاء مُعْطَى طبيعي من مُعطيات اللغة، ولكن الحرب اللغوية هي نفسها ليست طبيعية: إنَّها تنشأ هنا، حيث يحوِّل المجتمع الفوارق إلى صراع)[2].

الإنسانُ لا يُظْهِرُ ولا يكشفُ هويته حتى يُطلبَ منه ذلك، لكنَّه غالباً ما تنكشِفُ هويته بمجرد نطقه لكلمات محدودة، فهل بمقدور إحداهما ـ اللغة والهوية ـ الاستغناء عن الأخرى؟ وبماذا تمتازُ كلُّ أُمَّةٍ عن غيرها؟ كيف للغة أن تميِّزَ خِطاباً عن آخر؟

اللغة موجودة حتى في صمت الإنسان، وطريقة نظرةٍ شزراً أو جذلاً، أو حزناً، أو عن طريق لمسةٍ خفيفة، أو نظرة موحية تقول أكثر مما تقوله مقالةٌ طويلة، واستشهد جان جاك روسو (ويذكر شاردان أنَّ الدَّلالين في جزر الهند يمسكُ بعضهم بأيدي البعض، ويغيِّرون من أساليب تلامسهم، بحيث لا يفطنُ إليهم أحد، فيعقدون بذلك كل صفقاتهم سِرّاً على رؤوس الملأ، ومن غير أن يتبادلوا كلمةً واحدة.. وهو ما يبيِّن أنَّنا نقدر بالاقتصار على أحد الحسَّين اللذين بهما فعالياتنا على أن نجعلَ لأنفسنا لغة... بل ثَمَّة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ لغة القنادس ولغة النمل إنَّما هي لغات إشارة، ولا تُخاطب إلا العيون)[3].

ولغة النمل حقيقة علمية قال بها القرآن، وأكدتها الأبحاث العلمية، فمن غير المعقول أنَّ النمل وهو يعيش في نظام عائلات، ويتم توزيع الوظائف بحسب الفئات العمرية، والطبقة العائلية، بين آلاف النمل، وبناء المستعمرات الكبيرة، بدون وجود لغة للتفاهم. وذكرَ الجاحظ في كتابه الحيوان عن النمل (إنّ سادتها اللَّواتي يخرُجْنَ من الجُحْر، يرتَدْنَ

(2) المصدر السابق، ص160.

(3) جان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، ت: محمد محجوب، آفاق عربية، 1986، بغداد، ص31.

بجماعتها، ويستبقن إلى شمِّ الذي هُو مِنْ طعامهنَّ)[4]. والنمل يعتمد الرائحة لغةً للتخاطب والتفاهم، وهي لغة خفية، صامتة، حيث تفرز مواد كيماوية " فرمونات "، ويقصر الباحثون استخدام كلمة " فرمون " على وصف الرسائل الكيماوية المتبادلة بين حيوانات من السلالة نفسها، وإذا طبقنا هذا على عالم النمل نجد أن النمل يتميز برائحة خاصة تدل على الوكر الذي ينتمي إليه، والوظيفة التي تؤديها كل نملة في هذا الوكر، وحينما تلتقي نملتان فإنهما تستخدمان قرون الاستشعار، وهي الأعضاء الخاصة بالشم، لتعرف الواحدة الأخرى، ووجِدَ أنه إذا دخلت نملة غريبة مستعمرةً غير مستعمرتها، فإنَّ النمل يتعرفُ إليها من رائحتها، ويعتبرها بمثابة عدو، ويهجم عليها، وفي إحدى التجارب وُجِدَ أنَّ إزالة الرائحة الخاصة ببعض النمل التابع لعشيرة معينة، بإضافة رائحة خاصة بعشيرةٍ أخرى عدوة، أدّت إلى مهاجمته بأفراد من عشيرته نفسها. وفي تجربة أخرى عن غمس نملة برائحة نملة ميتة ثم أعيدت إلى وكرها، لوحظ أن أقرانها تخرجها من الوكر لكونها ميتة، وفي كل مرة تحاول فيها العودة يتم إخراجها ثانية على الرغم من أنها حية تتحرك وتقاوم، وبعدما تمت إزالة رائحة الموت فقط تم السماح لهذه النملة بالبقاء في الوكر.

كذلك الإنسان الغريب تنكشِفُ جنسيته وشخصيتهُ وطريقة تفكيره بعدما يتكلَّم، كما قال إبرهة الحبشي لعبدالمطلب: قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه، فقال له عبد المطلب: إنّي أنا ربُّ الإبل وإنَّ للبيت ربّاً سيمنعه، قال إبرهة: ما كان ليمتنع مني. قال أنت وذاك. من طريقة كلام إبرهة نستنتجُ

(4) الجاحظ، الحيوان، ج4، باب سادة النمل، ص304.

أنّه صاحب فِراسَة، لكنّه لم ينجُ من الخطأ بسبب كبريائه، والكبرياء بداية السقوط، فهو قد قرأ في وجه عبدالمطلب سيماء الحكمة والوَقار، وكان يتوقّع منه أنْ يطلب منه الرجوع أو يتفاوض معه على الأقل، لينقذ الكعبة، وإبرهة لا يعترف إلا بقوة جيشه وآلته الحربية والفيلة، لم يفهم ضيفه العربي الذي يستمد قوته من إيمانه بقدسية الكعبة.

يظنُّ البعض أنَّ اللغة هي أهم عناصر الهوية، والبعض الآخر يقدِّم الدين، أو القومية، أو غير ذلك، بحسب الرائي والرؤية، اللغة شِعار، وسيلة، وذريعة، وإذا لمْ يكُنْ شعاري إِلَيكُمْ ذَرِيعَةً، فَيا لَيتَ شِعرِي: ما تكونُ الذّرَائِعُ؟ هذا لسان حال الأحزاب، ولسان حال المواطن العراقي يقول: يا ليت لي نعلين من جلد الضبع، وَشَرَكَاً مِنْ إسْتِهَا لا تَنْقَطِعُ، ولسان حالي يقول: ليت الحرب بين الأحزاب تبقى في خانة الشّعارات الصادقة القابلة للتطبيق، بعيداً عن المزايدات الوطنية الرخيصة، كما في دول العالم الأول، ولا تنتقلُ إلى حرب الشوارع والأزقة والمحال، ويقول في ذلك عنترة العبسي يَذُمُّ التمني والطمع الكاذب:

ألا قاتلَ الله الطلولَ البواليا
وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذي لا تناله
إذا ما هو احلولى ألا ليت ذاليا

لا أحدَ ينكرُ أنَّ صورة الكردي في العقل العراقي، قد تطورت بعد 2003، فالعمران في أربيل والحدائق الغنّاء والشوارع النظيفة غير المغلقة، والتشجير مثار حديث الناس، هذه الصورة في انعكاسها السلبي والإيجابي، لم تظهر في نصوص الأدباء الكرد، لكن هل يكفي العمران للتحديث؟ وهل المجتمع الكردي: تقليدي أم حديث، أمْ هو مزيج من الاثنين؟ كيف يتأتى أنْ تكون الهوية الكردية حديثة قديمة، عشائرية قبلية تقليدية، غربية أوروبية، في آنٍ واحد؟ وبهذا تكون أزمة الهوية الكردية داخلية أكثر مما هي خارجية، داخلية من حيث العلاقة بين الشخصانية الانفعالية والحقيقة، والمغالاة في البعد التاريخي باعتباره إطاراً ضيقاً

يحتوي مسألة (الذاتي/الحقيقي)، ليست بأقلّ ضرراً من استبعاد هذه المسألة. هل هوية المجتمع الكردي نتيجة حتمية للأنساق الثقافية التي تشكّلُهُ؟ ما هي حقيقة وجود إستراتيجية مُحدَّدة المعالم عند المؤسَّسة الثقافية؟ غالباً ما تمارس خططاً، ليست فاقدة للإستراتيجية فحسب، بل ذات نسق ثقافي واحد، متفرِّد، يثير الملل، مما قد يدفع إلى نسق أو أنساق مضادة، خصوصاً وأنَّ جزءاً من هذا المجتمع يعيشُ واقعاً لا زمنياً، (خاصيته الأهم أنّه يعيد إنتاج نفسه في عملية اجترارية لا متناهية).

المؤسسة الثقافية والجهات المدعومة من الدولة، تحاول فرضَ نوعٍ من الحداثة، لا يرى فيه المجتمع الكردي ضرورة ملحة في سلم أولوياتهِ، وبالتالي نشأت حالة صراع بين بنية حديثة تلتزمها الدولة وتريد فرضها، وبنية تقليدية، يتمسك بها الشعب في عقله السائد، وشعوره اللاواعي، قد يبدو أنَّ تماسك الشعب الكردي وتمسكه بهويته، بدأ يتضاءل شيئاً فشيئاً، ليس بسبب الانبهار بكل ما هو غربي ومستورد فحسب، بل بسبب الاستلاب الحضاري والضغط الذي تمارسه جماعات من جنسيات مختلفة، عادت من الغرب بعد حصولِ أحدهم على جنسية إحدى دول العالم الأول، وثروة صغيرة ليبدأ مشروعاً ثقافياً كالمدارس الخاصة التي تتبنى طرق تدريس غربية حديثة باللغة الإنكليزية، أو حصول أحدهم على منصب إداري أو حكومي يساعده على تطبيق النظريات الغربية المستوردة، دونما ملاحظة التدرج الذي مورس في المجتمع الغربي، مع الفروق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ما الذي يجعل مجتمعاً ما، يتفكّكُ بمجملهِ؟ أليس الفساد وازدياد الفروق الطبقية؟ لماذا توجد اختلافات كبيرة بين طبقات المجتمع الواحد؟ ربَّ قائلٍ إنّها اختلافات سطحية فقط، لماذا لا ننتبه إلى جذور هذه الاختلافات التي بدأت تمتدُّ نحو الأعماق؟

هل تلزم عملية تحديث مؤسسات الدولة، أنْ تسبقها عملية تحديث اجتماعي؟

أليس من الممكن أن يعود هذا التحديث المفاجئ بنكسة كما حدث للدولة العثمانية ولشاه إيران في أواخر عهديهما؟

قد يأتي التحديث سبباً للتطور والتقدم، ولكن التاريخ يخبرنا بأنَّهُ قد يسبق السقوط أيضاً، حين يصير عبئاً ثقيلاً على كاهل المجتمع، حين يعمل على تدمير الطبقة المتوسطة من المجتمع، حين يلغي العادات والتقاليد، فممارسة حق التظاهر في مدينة السليمانية انتهت إلى حوادث مفجعة من قتل وتخريب، وذلك لأنَّ التحديث فوقي فقط، وغير اختياري، والمجتمعات التي فشلت في إنجاز مشروع الحداثة أصيبت بأزمة هوية حادة، أدت بالسلطة الحاكمة شاه إيران، عبدالحميد الثاني، الملك فاروق، إلى بدء التحديث في المجتمع الغربي بممارسته الضغط على السلطة، ثورات أوروبا الكبرى: ثار وليام الصامت أمير أورانج عام 1568، على مستخدمهِ ملك إسبانيا فيليب الثاني، بسبب اعتداءات الأخير على حريات الهولنديين، وإدخالهِ محاكم التفتيش إلى هولندا، فانقلبَ على فيليب، وصارت هولندا دولة مستقلة، وثورة إنكلترا 1688، المعروفة باسم الثورة المجيدة، تمثّل نجاحها في عزل الملك جيمس الثاني، وفي ' إعلان الحقوق' الذي أصدره البرلمان الإنكليزي عام 1689، وقد استعرض إعلان الحقوق المظالم التي ارتكبها الملك جيمس الثاني في حقِّ الشعب، واشترط على الملك الجديد عدم القيام بأي عمل يؤدي إلى الانتقاص من حقوق الشعب، ومن أهم ما تضمّنه إعلان الحقوق الإنكليزي: (حقُّ الملك في التاج مستمد من الشعب الممثل في البرلمان، وليس من الله. ليس للملك إلغاء القوانين أو وقف تنفيذها أو إصدار قوانين جديدة، إلا بموافقة البرلمان. لا تُفرض ضرائب جديدة، ولا يُشكّل جيش جديد إلا بموافقة البرلمان. حرية الرأي والتعبير في البرلمان مكفولة ومصونة).

ثمَّ جاءت الثورة الفرنسية 1789. هذه الثورات قامت بها الشعوب

ضد ظلم السلطات، وأجبرت السلطة على إجراء تغييرات حاسمة في هويتها نصف الإلهية ونبذ فكرة الحق الإلهي في الحكم، بينما تريد السلطة إجراء تغييرات جوهرية في هوية الشعب، بدعوى تحديثِهِ، ومبدأ عدم الكمال يحكم إدارة المدن والدول.

أزمة العقل الحديث

أزمة العقل الحديث، تبدأ من سؤال الهوية.

سؤال الهوية الفلسفي: مَنْ أنا؟ يختلفُ عن سؤال الهوية البوليسي: من أنت؟

الثاني سؤال عائم على السطح، طرحته دوائر البحث الأمريكية، بعد حرب الخليج الثانية وقبلها، فسؤال العراقي: من أنا، يختلف عن سؤال الأمريكي: من هو العراقي؟ الثاني مادي محض، لا روح فيه، مائت ومميت، كالتوافقات والتحالفات المؤقتة قبل تشكيل الحكومة، توحي بوجود مصالح وقضايا مشتركة، هذا الإيحاء الذي سرعان ما يتلاشى بمرور الوقت، وتختفي الابتسامات المستعارة أمام وسائل الإعلام، وتعود لغة التهديدات، استخدام النموذج المادي يعني استخدام الحواس الخمس، كما يعني دراسة الظواهر الإنسانية كما تدرس الظواهر الطبيعية.

استناداً إلى قراءات أمريكية خاطئة للهوية العراقية، منها قراءة ليورا لوكيتز التي اعتمدت على حنا بطاطو في أطروحتها التي أجازتها بامتياز جامعة هارفارد الأمريكية عام 1992، ومصادر غربية كتقارير وزارة الخارجية الأمريكية، في سؤال الهوية العراقية منذ تأسيسها، لكن مصادر لوكيتز لم تتعامل مع الواقع العراقي الراهن، كما لم تقرأ الماضي بعمقٍ كافٍ، هوية العراقي معقدة إلى درجة تجعل من المستحيل على دراسة سطحية، من طالب دراسات عليا، كلُّ ما يشغله هو الحصول على الدرجة العلمية، هوية العراقي تشكّلت عبر آلاف السنين، في تقلبات

تاريخية، وجغرافية، وسكانية، صراع مستمر مع الشعوب المجاورة، علماً أنَّ القسم الأول من دراسة لوكيتز تناولَ ملخصاً عن الدولة العراقية منذ تشكيلها، حتى ثورة 1941، وتصل إلى نتيجة من خلال مخاطبات ووثائق رسمية (تعلَّمت بريطانيا أخيراً، بعد محاولاتها بناء نظام سياسي في العراق، مَبني على أسس العقل والمنطق، أنَّ العواطف والمشاعر في الشرق الأوسط لا يمكن لجمها بالاتفاقيات والمعاهدات)[5]. على هذا الأساس تتعامل أمريكا مع الشعب العراقي، باعتبار هويته العاطفية الانفعالية، وتعتمد لوكيتز على حنا بطاطو في تأكيدها على (أهمية دور علماء الدين في الحفاظ على هوية المجتمع على المدى الطويل)[6]، وبدت هذه السياسة واضحة من خلال اهتمام بريمر وتركيزهِ على محاولاته كسب بعض الرموز الدينية فقط، باعتبارها لِجاماً للشعب، لكن سلطة الرموز ليست مطلقة، وغالباً ما تنساق وراء مطالب الشعب، وهوية شعبٍ ما، تتشكل عبر مئات السنين من خلال تفاعله مع الطبيعة وبيئته الجغرافية ومع بني جلدته ومع الشعوب الأخرى. ولأن أعضاء هذا الشعب لا يعكسون الواقع كما هو، وإنما يتفاعلون معه (فعقولهم التوليدية تبقي وتستبعد وتضخم وتهمش) وهويتهم تتشكل من خلال إدراكهم لما حولهم، ومن خلال تطلعاتهم ورؤاهم وذكرياتهم، فهي ليست مجرد انعكاس بسيط لبيئتهم. ومن هنا تكتسب الهوية فرادتها وتركيبيتها اللتين لا يمكن ردهما إلى قانون أو نمط مادي.

لكن عادة ما ينطلق البعض من الرؤية المادية التي يسمونها

(5) ليورا لوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، دار ئاراس، 2004، أربيل، ص137.

(6) ليورا لوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، دار ئاراس، 2004، أربيل، ص150. بطاطو، الطبقات الاجتماعية القديمة، ص954.

"علمية"، فيدرسون الهوية في إطار النموذج المادي كما يفعل كثير من الدارسين في الغرب.

وتكمِلُ الدكتورة لوكيتز: (أمّا في الأقاليم الشمالية، فكانت هذه الفروقات تظهر بشكلٍ أقلَّ وضوحاً... فشيوخ العشائر الذين كانوا يمارسون السلطات الدينية والحياتية كانوا واعين للتهديد الثقافي الذي كانت عملية بناء الدولة تشكّلها على مجتمعهم الكردي، قاطعين بذلك الطريق على قيام أطراف منافسة لهم، في البحث عن تحالفات خارج مجتمعهم)[7]. لماذا ومتى تصير الدولة خطراً على المجتمع؟ وإذا كانت الأسباب غير معروفة، فما يدرينا اليوم أنَّ البعض يعتقد أن بناء مؤسسات الدولة العراقية، خطر على هويتهم؟

العقل الأمريكي ومنذ أكثر من ثلاثة عقود، واقعٌ تحت سيطرة أجهزة المخابرات والجنرالات، هي التي تختار اتجاه الدراسات، وإنْ كان ذلك بطريقة غير مباشرة، وبذلك دخل العقل الأمريكي مرحلة العمل العلني المكشوف مع علاقات غير ودية مع أوروبا، ودول العالم كافة. قالت وزيرة خارجية أمريكا مادلين أولبرايت: (نحن الأقوى في العالم، وعلى من يعتقد في نفسه القوة، أنْ يواجهنا بحقيقته، ونحن الأغنى، وعلى من يعتقد في نفسه الثراء، أنْ يكشف لنا أوراقهُ).

أزمة الهوية في النَّسَق المعرفي

أين المجتمع الكردي في التقسيم الثنائي للمجتمعات: حديثة، قديمة؟

لكن ما هي معايير الحداثة؟

المجتمعات الحديثة تنظرُ إلى مؤسَّـــات الدولة، نظرة أليفة، كما

---

(7) ليورا لوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، دار ئاراس، 2004، أربيل، ص151.

تنظرُ إلى بيتها، وتحتقرُ الكاذب أيّما احتقار، ولا يوجد أحد يقبلُ على نفسه أن يقبض راتبين من الدولة، ويأنف الكثير من الحصول على إعانة العاطلين رغم الحاجة، سألت الكثير من المغتربين: ماذا تعلمتم؟ فأجابني الكثير، مباشرةً: الصدق. هل كانَ مجتمعنا يُعَلِّمُهم الكذب؟

هذا السؤال يحتاج إلى وقفة طويلة، لماذا لا يزدان الكذّاب عندنا، المتملّق، المنافق، بالاحتقار الذي يلحقه في المجتمعات الغربية؟ لم نرَ أو نسمع أنَّ مسؤولاً في دول الغرب، يمدحُ نفسه، أو يسمحُ للآخرين بمدحهِ حدَّ التقديس، نحن نصنع آلهتنا بأيدينا، ثمَّ نعبدهم، لديهم الخيانة الزوجية عارٌ للجنسين معاً، الذكر والأنثى، لكن هنا يبدو أنَّ الذَّكَر قد تمَّ إعفاؤه بعد تراكمات وتكريس مفهوم خاطئ للفحولة، حيث إنَّ الكثير من الذكور المتزوجين يفتخرون بخياناتهم أمام المجتمع، وأمامَ زوجاتهم في أحيانٍ كثيرة، وإنْ في صورة مزاح، انهيار المنظومة الأخلاقية يسبقه زيادة الهوَّة بين مؤسسات الدولة والمجتمع، بحيث يعتقد الموظَّف المرتشي، أنَّه يأخذ حقه المسلوب، وهذه فكرة سيئة جداً، ولهذا هلَّلَ هيغل لاجتياح نابليون، لأنَّهُ كان يعلم أنَّ المجتمع الأوروبي سوف يتغيَّر إلى الأبد، وفَهِمَ الأباطرة أنْ ليسَ بمقدورهم الوقوف في وجه نابليون، ما لم يحدثوا تغييرات جوهرية في البنية الاجتماعية والسياسية، وبناء مؤسَّسات تعيد المواطن إلى حاضنة الدولة، ولقد وجدَ علماء البايولوجي أنَّ البقاء والفناء، يعتمدان على قدرة الكائن على التغير، لأنَّ استمرار النَّسَق، لا يعني شيئاً آخر غير الموت، و(أنَّ سؤال الهوية لنسقٍ ما، يجب طرحه والإجابة عنه من داخل النَّسَق نفسه، وليس عِبرَ مراقب خارجي، يجب أنْ يستخلص النَّسَق قراره بذاتهِ، فيما إذا كان قد تغيَّر أثناء المسار التاريخي من خلال تغيُّر البُنَى إلى درجة أنَّهُ لم يعد هو نفسه)[8].

---

(8) نيكلاس مان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي، منشورات الجمل، 2010، بغداد، ص24.

صار الكردي أكثرَ اعتزازاً بهويته، يريد اسماً يدلُّ عليها، شفان، كاوه، دلشاد، وغير ذلك، أما الذين اضطرَّ آباؤهم إلى اختيار أسماء عربية لهم، فيتسمون بألقاب كردية، كتغليف للاسم الحقيقي المذكور في هوية الأحوال المدنية، وما زال الكثير يرفعون دعاوى تغيير الاسم إلى محاكم الأحوال الشخصية، وكأنَّهم بتغيير الاسم يرومون تغيير الحياة برمَّتها، ففي إقليم كردستان ازداد هذا النوع من الدعاوى بعد عام 1991، الكثير غيروا أسماءهم العربية إلى أسماء كردية، وبعد 2003 امتلأت المحاكم العراقية بالكثير من الدعاوى، هذا نَسَقٌ شَخْصِيٌّ سلوكي، ذو وظيفة محددة، استناداً إلى منطق ذاتي منفرد مستقل، لكنه يصبُّ في نهاية الأمر لمصلحة نسق اجتماعي مرتبط بالبيئة، باعتبارهِ شرطاً من شروط استمرار المجتمع الكردي، كمجتمعٍ ذي خصوصية متمايزة، من جانبٍ آخر، يؤكِّد هذا النَّسَق أنَّ الهوية الكُردية تمر بأزمة فكرية عميقة، حيث ما زالت تحتفظ بنسق معرفي إدراكي سائد منذ الخمسينات والستينات، باعتبار توافر الشروط الدنيا التي يجب توافرها لتحقيق المحافظة على الهوية الكردية، الأسماء الكردية ليست وحدها شرط استمرار الهوية الكردية، بل هي الشرط الأدنى لهذا الاستمرار، والارتكاز عليها يعني إحداث تغيير في هوية النَّسَق الاجتماعي، بسبب تهميش النَّسَق المعرفي الإدراكي، والاعتقاد السائد أنَّ للإنسان من اسمهِ نصيباً، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرا فشراً، فلا تجد أحداً يُسمّي ابنه قبيحاً، ولكن جميلاً، وجمالاً، ولبعض الأسماء الكردية عمق في لغات أخرى، كالتركية والإيرانية، مثل شيرين، اسم فارسي يعني الحلوة العذبة، شاهيناز فارسي: شاه يعنى ملكاً، ناز يعني دلعاً، ترجمتها الملك المدلَّل، وآزاد اسم فارسي يعني الحرية، ونرمين اسم تركي يعني ناعماً، نيفين تركي يعني قمر الأقمار.

لكن هذا لا يعني ترك الأمور تسير في أعِنَّتها، بالعودة إلى المشيئة الإلهية، والقعود عن التفكير والعمل، وحين قال طرفة بن العبد:

فَـلَـوْ شَـاءَ ربّـي كـنـتُ قـيْـسَ بـنَ خـالـدٍ
ولـو شَـاءَ ربّـي كـنـتُ عَـمْـرَو بْـنَ مَـرْثَـدِ

ما كان يعني تغيير الأسماء فقط، لأنَّ المذكورين كانا من سادة العرب، وأثريائهم، وهو ما يعني تغييراً جذرياً في الهوية، كقول أبي العلاء المعري:

لـو شـاءَ ربّـي لَـصَـاغَـنـي مَـلِـكـاً
أوْ مَـلَـكـاً، لـيـسَ يـعـجَـزُ الـقَـدَرُ

وقد أوردَ الأصفهاني في كتابهِ الأغاني، حكايةً طريفة عن استبعاد النَّسَق المعرفي، والركون إلى السطحي:

(وَلَقِيَ تَأبَّطَ شَرّاً ذات يوم، رجلاً مِنْ ثَقيْفٍ، يُقَالُ له أبو وهب، كانَ جَبَاناً أهْوَج، وعليه حِلَّةٌ جديدة، فقال أبو وهب لتأبَّطَ شَرّاً:

- بِمَ تَغْلِبُ الرجال يا ثابت، وأنت كما أرى دميمٌ ضئيل؟

- باسمي إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تأبط شرا، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت.

فقال له الثقفي:

- أ قَطْ؟

أجابَ ثابت:

- قط.

- فهل لك أن تبيعني اسمك؟

- نعم فبم تبتاعه؟

- بهذه الحلة وبكنيتي؟

- أفعلْ.

ففعل وقال له تأبط شراً:

- لك اسمي ولي كنيتك.

وأخذَ ثابت حلته، وأعطاه طمرية، ثم انصرف وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقفي:

الا هـل أتـى الـحـسـنـاءَ أنَّ حَـلِـيـلـهَـا
تـأبَّـطَ شَـرّاً؟ واكـتـنـيـتُ أبَّـا وَهْـبِ!!
فَـهَـبْـهُ تَـسَـمَّـى اسْـمـي وسُـمِّـيتُ بـاسـمِـه
فـأيـن لـه صـبـري عـلـى مُـعْـظَـمِ الـخـطـبِ؟
وأيـنَ لَـهُ بـأسٌ كَـبَـأسـي وسَـوْرتـي
وأيـنَ لَـهُ فـي كُـلّ فـادحـةٍ قَـلْـبي)[9]

لا نطعنُ بعلم الأسماء، فهو أشرف العلوم، ومنه تفرعت العلوم وانفتقت المصطلحات، سأل الملائكة اعتراضاً ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ فحجّهم الله تعالى بعلم الأسماء، في قولـه ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ البقرة: 31. "كُلَّها" دالٌ على الشمول التام، وجاء في الحديث الشريف (أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ). ومن عِلْمِ الأسماء ودلالاتها، انبثقت العلوم كافة.

بسبب التغيُّرات أو التطوُّرات الطارئة على اللغة الكردية، لم يعد بالإمكان استساغة الكثير من الألفاظ الدخيلة، وإنْ كان الجزء من هذه الألفاظ ضرورياً ونافعاً، وفق سنن التطوُّر اللغوي، وقد لاحظ هذه الضرورة الفيلسوف الروماني لوكريتيوس (55- 95 ق.م) فقال: (إنَّني على وعي تماماً، بمدى الصعوبة في أنْ تعيد إلى الضوء، بوساطة الشِّعر اللاتيني، كل مكتشفات اليونان العميقة، أعرفُ أنَّ مصطلحات جديدة يجب أن تُستَحدَث، لأنَّ لساننا فقير، وهذه المعاني جديدة عليه)[10]. لكن جزءاً آخر هو فاسد إلى حدٍّ ما، وهذا الحد هو أدنى درجة، لأنَّ هذا التطور جعل (المثقفون يقولون رأيهم.. بدافع الكتب التي يقرؤون،

(9) أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج10، باب ذكر تأبطَّ شراً، ص141.
(10) فوزي كريم، يوميّات نهاية كابوس، المدى، 2005، دمشق، ص35.

موضوعة أو مترجمة، بدافع النظريات الوافدة على الورق فهو لديهم غير علمي 'بمعنى غير ماركسي' وغير عميق 'بمعنى غير متعالٍ' وركيك الأسلوب بمعنى 'غير حداثي'[11]. وهناك حدٌّ أعلى، ويقول أستاذ اللغة الإنكليزية في جامعة باريس جان جاك لوسركل: (وفي هذا العرض التاريخي للتحوُّل الاستعاري في استعمال الكلمة ما يبعث على التفكير، فهو يخبرنا ليس فقط أنَّ اللغة تتغيَّر.. ولكنَّهُ أيضاً يُشبِّه هذا التغير بالتغير المادي الذي يراه المتشائم تحللاً وتدهوراً.. وثمة قول للكاتب الإنكليزي جوناثان سويفت 'التدهور والفساد مستمران في لساننا الإنكليزي'، وقول آخر لماكس مولر يعود إلى العام 1961: 'إنَّ التدهور في صوتيات اللغة.. يدمِّر ليس شكل اللغة فحسب، بل طبيعتها كلها)[12].

وانتشر جرَّاء كلِّ واقعةٍ تاريخية أو اجتماعية، العديد من المصطلحات، كمصطلح (جلي) عند الإشارة إلى الهجرة المليونية للشعب الكردي، هذه الهجرة التي هزَّت ضمير المجتمع الدولي، ودفعت مجلس الأمن إلى إصدار القرار رقم 688 في الخامس من نيسان 1991، الذي اعتبرَ إقليم كردستان منطقة آمنة خالية من الجيش العراقي، كما طالب المجلس فيه بوقف قمع السكان المدنيين العراقيين وأصر على أن يتعاون العراق مع المنظمات الإنسانية الدولية وأن يكفل احترام حقوق الإنسان لجميع المواطنين العراقيين.

والمصطلحات تتحول، فأول ظهور مصطلح 'القفاصه' كان قبل 2003 للإشارة إلى فريق عمل مرافق لبائع مخادع، فهو عملية نصب واحتيال، أمَّا بعد 2003 فقد تطوَّر للإشارة إلى الجريمة المنظمة التي تمارسها مجموعات مسلحة من خطف وابتزاز وسلب ونهب، وسطو على

(11) المصدر السابق، ص56.

(12) جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة د. محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2006، بيروت، ص326.

المصارف والبنوك، وفرض ضرائب شهرية على التجار والطبقة المتوسطة، "العلاسة"، هو مصطلح يؤشّر الفساد اللغوي كنتيجة حتمية لفساد المجتمع، وهو يشير إلى أفراد يشون بشخصٍ ما إلى جهة مسلحة بغية تصفية هذا الشخص، فهم مصادر موثوقة لدى جهة أمنية أو مجموعة إرهابية، ومصطلح " تمشيط عشوائي" يُطلق على الضحايا المدنيين الذين غالباً ما يصابون بعد تعرُض الجيش الأمريكي أو العراقي لإطلاق نار، فيردون بقتل كل شخص قريب من مكان الحادث، و"فرق الموت" جماعات إرهابية مسنودة تقوم بتصفية المختلفين في الرأي، "دريل" أداة كهربائية للثقب استعملت للتعذيب، "مهجَّر" هو الشخص الذي أجبرته الميليشيات الطائفية على ترك بيته ومنطقته، مُجتَثّ: شخص فقد وظيفته بسبب درجته في صفوف حزب البعث أو وظيفته في الأجهزة الأمنية لنظام البعث. "التوابون" هم أفراد وقعوا في الأسر أثناء الحرب العراقية الإيرانية وانضموا إلى السلطة الإيرانية للتجسس وتعذيب الأسرى العراقيين، وقد حصلوا على مناصب أمنية مرموقة في العراق الجديد، "منگاش" رامبو عراقي.

هل الفساد اللغوي نتيجة للفساد السياسي؟ لماذا لا يهتمُّ علماء الألسنية سوى بتسجيل التغيرات السطحية؟ لماذا لا يأسون للتدهور الذي يصيب اللغة؟ أليس بالإمكان أنْ نعزو هذه التغيرات إلى تغيرات أولى ذات طبيعة أخلاقية؟ ما هو تأثير طوفان العنف الذي اجتاح العراق وبغداد خصوصاً منذ 2003؟ هناك مصطلحات تثبت إلى حدٍّ ما، ولكن ليس تماماً، رغم مرور فترات طويلة من الزمن، كمصطلح صعلوك، للدلالة على الفقر، وصعاليك العرب: ذؤبانها، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنَّهُ كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه، وصارت الصعلكة مبدءاً للدفاع عن طبقة المُهَمَّشين المسحوقة، ضد قسوة المجتمع، وروايات الصعاليك هي أفضل ما أضافهُ عصر النهضة الإسباني، حيث يتقمَّص الروائي شخصية البطل الصعلوك، وما

تتضوي تحته من سخرية لاذعة، وأولى روايات الصعاليك كانت مجهولة المؤلف، لثريو دي تورمس (1554م) لأنّها اتّسمت بقسوة هجومها على الكنيسة.

الشاعر الأمير لا يرى غير سلبيات السلطة، وشاعر الأمير لا يرى غير محاسنها، ولكلٍّ أنصارٌ ومريدون، وإنْ ناقشت شاعر الأمير، أو أحد مثقفي السلطة، سيجدُ ألف تبرير لأخطائها، ويظل يهذي، ويثرثر، فهو يعتبرُ أدنى نقد للسلطة التي ترعاه، تهديداً لمصلحته الخاصة.

والمثقف يملك سلطة يقرعُ بها سلطة الحكومة، ببثِّهِ أفكاراً قد تكون بنَّاءة، وقد تكون هدَّامة، وغالباً ما يجدون مَنْ يُصغي إليهم، ولهذا ترى السلطة في المثقف شرّاً ضرورياً، من المحتَّم، احتواؤه، وإذا قاوم تُحَجِّم دوره، بمنعهِ من دسِّ أنفهِ في ما لا يعنيه، أو منافسة الحكومة في دورها راعية وحامية المصلحة العامة.

الشاعر الصعلوك حسين مردان يسأل صديقه فوزي كريم: (يُقال إنّي شاعر وطني! هل تُصدِّق ذلك؟ - عليَّ أنْ أجِدَ معنىً لذلك أولاً، حتى أُصَدِّقهُ أو أكذِّبهُ)[13].

معنى الشاعر الوطني غير ثابت بحسب فوزي كريم، وبحسب الرائي، وبحسب العصر، ففي زمن البعث، هو الشاعر مدَّاح القائد الرمز، مدَّاح المعارك العبثية، ومصطلح المصالحة الوطنية الذي يتردَّد كثيراً في تصريحات ساسة العراق الجديد، يحتاج إلى فوزي كريم وسؤالٍ كهذا، وإذا كانَ الشاعر الصعلوك، يمتاز ظاهرياً بعدم الاهتمام بثيابهِ أو هيئتهِ، وإدمان الخمر ربما، ولا مبالاتهِ، وداخليا بالاغتراب الداخلي، والتمرد ضد المجتمع، والصمود في وجه السلطة الغاشمة، فهذا صباح العزاوي وهادي السيد كانا نزيلين دائمين لدى مديرية الأمن،

(13) فوزي كريم، يوميّات نهاية كابوس، ص107.

حتى وهما طليقان ينامان في مزبلةٍ قربها، كإدانة رمزية للتعذيب والقمع. وهذا الشنفرى الشاعر الصعلوك، يقول:

نحن الصَّعاليك الحُماةُ البُزَّلُ

إذا لَقِينا لا نُرى نُهَلِّلُ

وهذا جان بول سارتر يقود التظاهرات، وَيزَجُّ بهِ في السجن بسبب مواقفه ضد السلطة الحاكمة، ويقول: (المثقفون مذنبون كبار، لأنَّهم خدعوا الشعب في الظروف الخطيرة كافة)، وغيره الكثير، والأكثر منهم مثقفو السلطة، الذين لا يقدرون على قول لا، لسلطةٍ احتضنتهم، ووفَّرت لهم كلَّ شيء، كجابر عصفور الذي أقسم الولاء وزيراً للثقافة في أيام مبارك الأخيرة، ثم فرَّ من المركب حين رآه يغرق، وقدَّم استقالته بحجة حالته الصحية، وقبل مغادرة مبارك بأيام قليلة فقط، أعلنَ بهاء طاهر رفضه لجائزة تحمل اسم حسني مبارك، بينما على الجانب الآخر، وفي بداية عام 2003، ومبارك في أوج قوته، يحرجهُ صنع الله إبراهيم برفض جائزة الدولة، أمام الملأ والبث المباشر، قائلاً: أرفضُ الجائزة لأنَّها ممنوحة من سلطة غير شرعية!!. هل حدث في عراقَ البعث، أنْ رفضَ مثقفٌ تكريماً للسلطة؟ هل حدثَ في عراق اليوم، أنْ رفضَ مثقفٌ تكريماً من وزارة الثقافة؟

قرأ صنع الله، في ورقةٍ أسباب رفضهِ للجائزة، ومما قال: (لا يراودني شك في أن كل مصري يدرك هنا في هذه القاعة حجم المأساة المحدقة بنا جميعاً، ولاسيما في سياسة حكومتنا الخارجية، ولم يعد لدينا مربع واحد ولا متر لم يدنسه الأعداء، فلم يعد لدينا سوى صندوق الأكاذيب والفساد والنهب، واختفت الأبحاث العلمية والصناعة والزراعة وتفشى النهب، ومن يعترض يتعرض للسحل والضرب).

يتداول المثقفون في كتاباتهم ومحاضراتهم على الملأ مصطلح " بعد السقوط " للتعبير عن فترة ما بعد صدَّام، وهو مصطلح خاطئ، أبديتُ اعتراضي: حيث ليس ثَمَّة بعد السقوط إلا الهاوية، وهناك مَنْ

يستخدم مصطلح "بعد التحرير" وهو خاطئٌ أيضاً، فليس من المعقول أن يعترف ممثل الولايات المتحدة في مجلس الأمن بمسؤولية بلاده كدولة محتلة للعراق، وجميع المحافل تسميه احتلالاً، وإنْ كان لا بدَّ من تسميته تحريراً، فهو يعني بالتأكيد أنَّهم قد حرروا العراق من شعبهِ، قتلاً وتهجيراً، ووسائل إعلام السلطة تطلق عليهم القوات متعدِّدة الجنسية!.

في عام 1989 نوقشت الأسئلة التاريخية المعاصرة الأهم في سياق الوحدة الألمانية على الصفحات الثقافية للجرائد والمجلات. هذه الصحافة التي نشرت رسائل النوبليَيْنْ غونتر غراس إلى صديقه الياباني كينزابرو حول الخراب الجميل الذي لحق ببلديهما (بودي أنْ أعرف كيف يتعامل الجمهور عندكم في اليابان مع الماضي) (في ألمانيا الآن نقاش مسكين وساذج: هل ينبغي الاحتفال في الثامن من أيَّار بصفته تاريخ انتهاء الحرب أم بصفته يوم التحرير؟)[14].

وفي بغداد: هل هو يوم التحرير أم يوم النكبة؟ وبعد السقوط أم بعد التغيير؟ أسئلة ساذجة كثيرة فوَّتَتْ الكثير من الأولويات. ويكمل غونتر غراس: (وهكذا تحقق فيما بعد ما صار يدعى بالمعجزة الاقتصادية الألمانية والشيء نفسه حَدَثَ في اليابان.. هل يمكن أن تكون ألمانيا واليابان قد ربحتا الحرب في نهاية المطاف؟..لكن خزينتيهما الثقافية أُصيبتا بفقرٍ شديد.. وهما لا تزالان مهددتين ـ من قبل متطرفيهما على الأقل ـ بالعودة مجدداً إلى البربرية، فعلى الرغم من غناهما وقوتهما الاقتصادية لم تستطيعا أن تجدا هويتهما الخاصة)[15].

إنَّ الفقر الثقافي الشديد هو سبب تردد العراق وعدم اتفاقه على

---

(14) مالك المطلبي، ذاكرة الكتابة: حفريَّات في اللاوعي المُهمَل، ديوان المَسَار، 2007، بغداد، ص18، 19.

(15) مالك المطلبي، ذاكرة الكتابة: حفريَّات في اللاوعي المُهمَل، ص20.

هوية الدولة الجديدة، ولم تلعب الصفحات الثقافية الدور المُناط بها (أحزاب منافقة في مواجهة معارضة مشلولة. والصحافة التي كانت متعددة أصبحت الآن واحدة على الرغم من ظهورها الملون. الفساد يتسع ويبقى دون حساب أو عقاب والركود الثقافي يقمع ولادة أي فكر جديد، دروس الديمقراطية التي تعلموها بصعوبةٍ تغرقُ شيئاً فشيئاً في بحور النسيان)[16].

صراع الهوية: أزلي

إذا كانت أزمة الهوية عنصراً رئيساً في الأمراض النفسية، وسبباً مباشراً لإدمان المخدرات والكحول، على مستوى الفرد، فإنَّها اليوم المحرِّك الرئيس للصراعات والنزاعات المسلَّحة في عصر العولمة، وأقسى الآلام هي التي تأتي لأسباب هويوية، فَمَنْ عرفَ نفسهُ، اشتغلَ بنفسِهِ، عند هذا السؤال: مَنْ أنا؟ ومن أكون؟ بماذا تنوءُ الذاكرة التي نحملها في دواخلنا؟ ما هذه القوة التي تواجهني وتهدِّدني بالصراع وتجرُّني إلى خوض المعركة؟ ماذا تريد مني؟

هل الرئيس أوباما أمريكي أم إفريقي أم مسلم؟

أشار أوباما إلى ما يتذكره عن مرحلة الطفولة المبكرة قائلاً: (إنَّ والديَّ لم يبدوا قط مثل الناس من حولي، حيث كنتُ شديد السواد، ووالدتي بيضاء كالحليب، ولكن لم يُثر ذلك انتباهي ولم يسجله ذهني). وفي مكانٍ آخر كتب أوباما: (إن الفرصة التي سنحت لي في هاواي للتعايش مع مجموعة متنوعة من الثقافات في جو من الاحترام المتبادل أصبح جزءاً لا يتجزأ من نظرتي إلى العالم، وأساساً للقيم التي أعتز بها). ولكنَّهُ عاد فنقضَ كل هذا، فقال مبرراً تجربته مع الكحول

(16) مالك المطلبي، ذاكرة الكتابة: حفريَّات في اللاوعي المُهمَل، ص21.

والماريجوانا والكوكايين خلال سنوات المراهقة (لمحاولة نسيان الأسئلة التي تجول بخاطري بخصوص الهوية).

وربما بسبب هويته المزدوجة وآماله غير الواقعية في تحقيق السلام العالمي، منح جائزة نوبل للسلام 2009، وإشكالية هويته المزدوجة التي أرادَ منافسوه توظيفها ضده في الانتخابات، استطاعَ أوباما استناداً إلى بيت الشاعر كيتس (بالأحجار التي رميتموني بها، بنيتُ أنا جداراً لبيتي) أنْ يستغلها أفضل استغلال في كسب ناخبين جدد، من السود لأنّه منهم، ومن البيض الذين أرادوا أنْ يثبتوا للعالم أنَّ أمريكا بلد المساواة، ومن المسلمين باعتباره من أصول إسلامية، ومن غير المسلمين باعتباره مرتدّاً عن الإسلام، ومن الأفارقة أيضاً، لكن إدوارد لوتواك نشرَ في صحيفة نيويورك تايمز في 12 أيار 2008 مقالاً عنوانه (الرئيس المرتد)، قال فيه: (من الخطأ خلط هويته الأفريقية مع تراثه الإسلامي، وكما في جميع الديانات لا يوجد شيء اسمه نصف مسلم.. وصفَ أوباما بأنه مثال كلاسيكي للقيادة الكاريزمية) وحذّر الرئيس من زيارة بلدان إسلامية مثل إيران أو السعودية أو أفغانستان، حيث لن يتمكن حرسه الشخصي من إنقاذه، إذا ما ارتأت إحدى هذه الدول محاكمته بتهمة الردة. وذلك لأنَّ الرئيس باراك أوباما كان قد قال: (لقد ولدت مسلماً)، واستناداً إلى مبادئ الدين الإسلامي، والقانون الأمريكي فقد وُلِدَ أوباما مسلماً، بغض النظر عن والدته المسيحية، واستناداً إلى مبادئ الدين الإسلامي فإنَّ الذي يترك دين الإسلام يصير مُرتدّاً، باتفاق جميع المذاهب السنية والشيعية، عقوبة المرتد هي قطع الرأس، وأشارَ لوتواك إلى بعض الحكومات التي خففت أحكام الردة، كما في مصر ومحاكمة نصر حامد أبو زيد التي اكتفت بفصلهِ وتفريقهِ عن زوجته، وضربَ مثلاً نجاح مساعي بابا الفاتيكان في إطلاق سراح أحد المرتدين في إيران، عام 1994، ولكن الرجل كان قد اختطف وقتل بعد وقت قصير من إطلاق

سراحه، وهذه الأحداث تتكرر في العالم الإسلامي، فقد حدث في عام 2003 في مدينة زاخو أنْ قام أحدهم بقتل جاره بتهمة الردة.

تبدأ المشاكل مِنَ الإجابات الخاطئة، والأحكام المُسبَقَة، وإذا كان فقدان الهوية يهدِّد الحضارات القديمة، والتقليدية، والدول الضعيفة، والأقليَّات الإثنية، والأحزاب الضعيفة في البرلمان، والمقاعد المستقلة، فإنَّ بقايا رماد الهوية المتآكلة نتيجة الهويَّات الضاغطة تشتعلُ ناراً أمام ريحٍ خفيفة، ورمادها لا يَضْمَحِلُّ بين ليلةٍ وضُحاها، وجميع محاولات طمس الهوية التي جربتها الإمبراطوريات قد باءت بالفشل، إذا كان القرن التاسع عشر عصر الأيديولوجيات، فإنَّ القرن العشرين في نهايتِهِ شَهِدَ انحسار المعسكر الاشتراكي لمصلحة الرأسمالي، وبدأت عودة إلى التمركز حول إشكالية الهوية، وبرزت عناصر عديدة جرى التأكيد عليها بعدما كانت مُهْمَلَة: كالروابط العِرقية والدينية والطائفية والقومية. وإذا كان الفكر البشري لا يطرح على نفسه إلا المشاكل التي يستطيع أن يحلها، فإنَّ المشاكل التي يتركها وراء ظهرِهِ، سوف يحلُّها الدهر، حلاً جبرياً لا يرضيه، كمشكلة الاشتراكية، حيث أنَّ روسيا بعد الحرب الباردة، كدولة مضطربة وقلقة، تقول مُبَرِّرَة نحنُ نمرُّ بمرحلة تحوّل انتقالية، والدولة لا تزال في مرحلة الصيرورة، وتعاني تحديات جدية، داخلياً وخارجياً، وهو عينُ الكلام الذي يقوله ساسة العراق الجديد، وإذا كانت هناك مؤسَّسات ثقافية وفكرية رسمية وخاصة تدعم إهمال مشاكل الاشتراكية، كما يحدث الآن مع إهمال مشاكل الرأسمالية، وبدلاً من ذلك يروِّجون أفكاراً مُضَلِّلة كفكرة نهاية التاريخ لفوكوياما، وصِدام الحضارات لهنتغتون، بشيءٍ غير قليل من البهرجة، وإشكالية الهويَّة هي الوحيدة التي يَغضُّ جميع الأطراف، نظرهم عنها، ولهذا فإنَّ أكبر خدعة في التاريخ هي فكرة حرية التعبير، لو أنَّ كاتباً كتبَ شيئاً لا يتفق مع سياسة الجريدة أو المجلة أو دار النشر، سوف ترفض نشره بدءاً، إرضاءً للمؤسَّسة الحكومية، أو الحزبية الداعمة، ثمَّ إذا قام بنشرهِ على نفقته في

كتاب، لن يلقى هذا الكتاب أدنى اهتمام، ولن يُقرأ، وإذا نشرَ مقالته في مدوَّنة، سيتهمه مثقفو السلطة بخيانة الوطن، الجميع يدعمون حرية التعبير وسلطة المثقف شرط التعبير عن هموم الوطن والطبقات المسحوقة، والأزمة البرلمانية، أمّا فكرة الهوية فهي مِنَ القدَاسة أو الغموض بمكان بحيث يجب أنْ لا تكون أبداً محلاً للبحث والتمحيص، إلا بشكل سطحي، لكن إذا كانت إشكالية الهوية هي مصدر هموم الوطن، لا أقصد الهوية التي يبرزها لنقاط التفتيش، والجنسيَّة العراقية في أحد جوانبها ليست إلا وثيقة مزيَّفة لإثبات الهوية الوطنية العراقية، لأنَّ الهويَّة العراقية في حقيقتها بؤرة صراع جيو سياسي، حضاري في مركز تاريخ الشرق الأوسط، بين حضارة الروم وحضارة الفرس، فالسلاجقة الذين حكموا بغداد بعد قضائهم على البويهيين 447 هـ، لم يستطيعوا القضاء على الفتن بشكلٍ كامل، الوزير السلجوقي نظام الملك، شَجَّعَ الأشاعرة ودعمهم مادياً ومعنوياً في نزاعهم مع أهل الحديث ببغداد، فبنى لهم المدرسة النظامية ووقفها عليهم، دون المذاهب السنية الأخرى، فأصبحت هذه المدرسة منطلقاً لكثير من الفتن والمشاغبات التي قُتل فيها خلق كثير من الطائفتين، وهذه الفتن التي لم تنتهِ لأسباب ذكرها ابن خلدون في تاريخهِ، هي الأسباب عينها اليوم، فعوام بغداد ونخبتها وقادتها، منشغلون عن أهمِّ مشكلةٍ وأخطر، وكلٌّ يغنّي على ليلاه، بينما بغداد غارقة في الظلام، يقول ابن خلدون: (كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدء الخليقة، فيما علمناه واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون من الرها وأعيا على الحكام أمرهم وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً... فيقع الجدال والنكير ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام وتكرر ذلك.. ولم يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس وهؤلاء بأصبهان وبعدهم عن بغداد والشوكة التي تكون بها حسم

العلل، وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خف من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم فاستمرت هذه العلة ببغداد ولم يقلع عنها إلى أنْ اختلفت جَدَّتُها وتلاشى عُمْرَانُها وبقيَ طراز في ردائها لم تذهبه الأيام)[17]. فإذا كان أعضاء حكومة العراق من الوزراء والسفراء يتمتعون بجنسيَّات أجنبية غالباً ما تضعهم فوق القانون العراقي، فوزير الكهرباء صدرَ بحقِّهِ حكم قضائي، واكتسبَ الدرجة القطعية بالسجن لست سنوات، لكن الجنسية الأمريكية أنقذته، التي بسببها هاجمت سرية دبابات المكان الذي كان مُحتجزاً فيه، وأطلقتْ سراحهُ، لأنَّهُ مواطن أمريكي، وحدثَ هذا ثانيةً لوزير التجارة، ومن قبلهما وزير الدفاع. والجميع مستعد للتنازل عن منصبه الحكومي عِوَضاً عن جنسيتِهِ، كما فعلت السيدة ممثلة العراق في الأمم المتحدة، بعد مماطلة لمدة عامٍ بأكملهِ، قرَّرَت التضحية بالمنصب، والاحتفاظ بالجنسية الأمريكية، وذلكَ بعد إلحاح رسمي من الأمم المتحدة، فليس من المعقول أنْ يمثِّل العراق شخص يحمل الجنسية الأمريكية، وهكذا افتقرت حكومة بغداد إلى إستراتيجية مدروسة لمرحلة ما بعد صدَّام، وطوال أكثر من سبعِ سنواتٍ عِجاف لم تستطع أنْ تنأى بنفسها عن حجج أيديولوجية ضيقة الأفق، ومصالح حزبية وفئوية، هي التي كانت مصدراً للقرار السياسي، بعيداً عن أيَّة نقاط التقاء مصالح مُتَّفَق عليها سوى شعارات رَنَّانة تستعمل لقذف الآخر المختلف بالخيانة والارتباط بأجندات خارجية، والجميع في الظاهر يرفعون شعار وحدة العراق وسيادته، وفي الباطن يقوِّضون هذه السيادة. يدعون إلى المصالحة الوطنية، والتسامح، والانفتاح على الآخر المختلف، وهم ينفونَ عنهُ حقه في حياةٍ كريمة، و(حيث الانفتاح لا

(17) تاريخ ابن خلدون، ج3، ص477.

يكون فحسب على أفكار الآخر، التي قد تكون موضع اختلاف، بل على هذا الوجودي الذي سَمَّاه باسكال " عظمة الشرط الإنساني وبؤسه ")[18]. أي الانفتاح على الآخر باعتبارهِ إنساناً، شقيقاً في الإنسانية بنسبتهِ إلى آدم، وأنَّ أساس العلاقة مع الآخر المختلف هو التعايش السلمي على أساس التكريم الإلهي للإنسان بخلقه وتفضيله على غيره من المخلوقات، وتعاملهِ على أساس المحبة والاحترام المتبادل ونبذ التعصب، ومساواتهم في هذا العنصر الجوهري، وإنكار الأخوة الإنسانية هي مفتاح كلِّ الشرور، وهي الأساس الأيديولوجي لاستغلال الإنسان لأخيهِ الإنسان، أو استعباده، مشاعر تقوم على الكراهية والأحقاد والتشفي واحتقار الآخر المختلف، بحسب أيديولوجيات غاضبة.

يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ الحجرات: 13. كلما تعارفت الشعوب وتقاربت، وتحاورت، وتزاورت، وتشاركت وتعاونت صناعياً وتجارياً وثقافياً، قلت احتمالات نشوب الحرب، وقال بعض المفسرين، تذهبُ هذه الآية إلى التسوية بين الناس، لئلا يتفاخروا، ويعلو بعضهم على بعض، العلو والتكبر يدفعان إلى الظلم والعداوة، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ القصص: 4.

يقول أرشاك سافراستيان: (لا توجد في النصف القديم من الكرة الأرضية، سلالة بشرية كانت عرضة للظلم باستمرار، وأسيء فهمها كالشعب الكردي، ومنذ فجر التاريخ ربما لا يوجد شعب في العالم يسكن منطقة جغرافية محددة، كان ضحية النيات السيئة على الدوام مثل

---

(18) داريوش شايغان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلّد، دار الساقي، 1993، بيروت، ص32.

الشعب الكردي)[19]. هل حدثت تلك المظالم بسبب تفرقهم واقتتالهم الداخلي؟ هل حدثت نتيجة فشل الشعب الكردي في التعريف بنفسه؟ ربما كان هذا أحد الأسباب.

هوية العقل السياسي

ظهرت أبعاد جديدة للهوية العراقية، بعد 2003، تلزمنا إعادة البحث في طابعها الأنطولوجي، فالانتقال من هوية إلى هوية أخرى، هو استمرار لبنية هويوية في بنية هويوية أخرى، لبنيةٍ أقلّ اكتمالاً وقوةً، في بنية أشدّ قوةً وأكثر اكتمالاً، والعكس هو الذي حدث غالباً، لأنَّ البنية الأقل اكتمالاً، لا تريد أن تكون أكثر اكتمالاً وقوةً، أو تتعجَّلَهُ، ومن تعجَّل الشيء قبل أوانهِ، عوقِبَ بحرمانهِ، لأنَّ البنية الأقل اكتمالاً، لا تريد أن تكون أكثر اكتمالاً وقوةً، بل تريد أن تبدو كذلك، شكلاً وعنواناً بعيداً عن ماهية الكينونة وجوهرها، لأنَّ ماهية الهوية العراقية، باعتبار ما هو موجود الآن، لا تمتلك جذر وجودها في ذاتها، إلا بالنسبة إلى مرحلة سابقة، أو مراحل سابقة، ولهذا يقول هيغل: (لقد أراد نابليون أنْ يعطي الأسبان دستوراً بصورة قبلية، ولكن ذلك نجحَ نجاحاً سيئاً... الدستور الذي أعطاهم إياها نابليون، كان أكثر معقولية، من الذي كان لهم من قبل، ومع ذلك فقد لفظوه بشكلٍ غريب، لأنَّهم لم يكونوا مُكَوِّنين له، الشعب يجب أنْ يشعر أنَّ دستوره موافق لحقه ولشرطه، وإلا فبإمكان هذا الدستور أنْ يكون هنا خارجياً، ولكن لا يكون له معنى ولا قيمة، صحيح أنَّهُ كثيراً ما تتجلى في الفرد حاجة دستور أفضل، أمّا أن تكون كل الكتلة مشبعة بهذه الفكرة، فهذا شيء

(19) أرشاك سافراستيان، الكرد وكردستان، ترجمة د. أحمد محمود خليل، دار الزمان، 2009، دمشق، ص21.

آخر وهو لا يحدث إلا في وقتٍ لاحق)[20]، العراقي لا يشعر بحاجته إلى دستورٍ أفضل، بقدر شعورهِ بحاجتهِ إلى حياةٍ أفضل، وقد يحدث هذا في وقتٍ لاحق، لأنَّهُ الآن يمتلئ بحاجته إلى حكومة أفضل، حكومة مؤسَّسات دائمة غير مؤقتة، مؤسسات لا تتغير إذا تغير مديرها، إلى دولةٍ أفضل، إلى وطنٍ أفضل، إلى عراقٍ افضل.

الشعور الساذج بالحاجة إلى حياةٍ أفضل، كالتينة الحمقاء لإيليا أبو ماضي، هو الذي قاد البعض إلى تفكيرٍ ساذج، دفعهم لتأييد الاحتلال، كما حدث لهيغل نفسه، حينما أيَّدَ اجتياح نابليون لألمانيا، لأنَّهُ كان معجباً بمبادئ الثورة الفرنسية، فرأى نابليون (روح العصر يمتطي حصاناً) يدكُّ حصون الكنيسة، والإقطاع، ويدعو إلى حقوق الإنسان والحرية والعدل والمساواة، بينما يلجأ هاشم صالح إلى التحليل النفسي في مقاله (من هيغل ونابليون إلى هابرماس وبوش) أنَّ هيغل لحظة اجتياح نابليون لمدينته يينا، كان تحت تأثير نشوة الانتصار، لإنجازهِ كتاب (فينومينولوجيا الروح)، في تلك اللحظة من عام 1806، وهو يبلغ السادسة والثلاثين من عمرهِ، لقد كان تحت نشوة الانتصار لأنَّهُ رأى كلامه الذي كتبه بالحبر يجري دماً على الأرض، فرح بالتغييرات الكبيرة التي استشرفَ بداياتها، هيغل الذي تهكَّمَ بالضرورة كأساس فلسفي للدولة البوليسية، دولة فردريك، وما بعد فردريك، لأنَّ الدولة يجب أن تعتمد شيئاً آخر، غير السلطة التي بين يديها، تعتمد الارتباط الوثيق الحر بشعبها، وأخلاقهِ وفعاليته ودوره في بناء الدولة، والدولة البوليسية التي دافعَ عنها الفيلسوف فيخته، هاجمها هيغل بقوة (كل نسق إنَّما يكون في الوقت نفسه: نسق الحرية والضرورة.. وليس ممكناً أنْ يتحدد عِلْمُ الفلسفة من حيث يكون الواحد نسق الحرّية والآخر نسق الضرورة، فلو

(20) هيغل، مختارات، ترجمة الياس مرقص، ط2، 1989، بيروت، ج2، ص122.

فُصِلَت الحرية لكانت حرية صورية، وكذلك الضرورة لو أفرِدَتْ لكانت ضرورة صورية)[21]، ولذلك فإنَّ الضرورات الدَّاعية إلى غلق الشوارع الرئيسة في بغداد والمحافظات، هي زائفة، لأنَّها وُجِدَتْ من أجل أمن المنطقة الخضراء، أو أمن بعض المسؤولين منتفخي البطون، هكذا يتصوَّر المواطن على الأقل، ومرور موكب مسؤول، يغلق الشوارع كافة بصورة مؤقتة، ويغرقها في زحمة خانقةٍ، والاعتقالات العشوائية، وفضائح ويكيليكس، هي التي تجعل الحكومة العراقية، تعتمد على السلطة التي بين يديها فقط، وهو ما فشلت فيه جميع الأنظمة القمعية عبر التاريخ، وتنفق ملايين الدولارات على إعلانات مُضحِكَة ومُخجِلة (ارفع رأسك أنت عراقي)، فقط وسيلة لتبديد الأموال العامة، ورفع الرأس لا يكون إلا بعد خفضِهِ، نتيجة ممارسة جميع وسائل إذلال المواطن، وبصورة علنية. وفي نهاية أيلول 2011 أبدى مركز الإعلام الاقتصادي خشيته من استمرار العمل بقرار للحاكم المدني الأمريكي للعراق بول بريمر منذ عام 2003 بتخصيص 2% من عائدات النفط كإعلانات تلفزيونية ضد الإرهاب، مبالغ خيالية توزع على وسائل إعلام عربية ومحلية، وهذه المعلومات غير مدرجة في موازنات العراق الاتحادية كأحد البنود الواضحة، تمثل مبالغ كبيرة تصل وفق تقديرات موازنة العام المقبل إلى ملياري دولار، كيف تمنح جهات إعلامية في صفقات مشبوهة وسرية، هذه المبالغ خصوصاً أنّه لا توجد أية مؤشرات تؤكد أن هذه الإعلانات ساهمت في الحد من العمليات الإرهابية أو عادت بالفائدة على الشعب العراقي؟

العقل السياسي العراقي هو عقل صوري، زائف، لا يدركُ كينونته، لأنَّ التلاقي بينه وبين المواطن العراقي، وأحوال الشارع العراقي، هو

---

(21) هيغل، في الفرق بين نسق فيخته ونسق شلّنغ، ترجمة د. ناجي العونّلي، المنظمة العربية للترجمة، 2007، بيروت، ص218.

لقاءً غير واقعي، مقابلة فكرية مطلقة، موجود في العقل السياسي العراقي فقط، وبحسب هيغل (لا يكون مبدأ الهوية واقعياً، إلا ضمن تقابل واقعي، فإذا كان التقابل فكرَياً مطلقاً، تظلُّ الهوية مجرَّد مبدأ صوري)[22]، والعقل السياسي الذي موضوعه صوري، إنَّما يُمسي عقلاً صوريّاً، لن يتغيَّر ما لم يدرك كينونته، ولن يدرك كينونته، ما لم يُمعِنْ في نفسِهِ، فالعقل الذي يتحدَّث عن المصالحة الوطنية بين الفئات التي تتقاسم الحكم، ويُشَكِّل لجنة من أعضاء مجلس النواب تحت مُسَمَّى لجنة المصالحة الوطنية، لا يفكِّر في كينونة أطراف هذه المصالحة الوهمية، الذين هم متصالحون في الأصل، ويتكلم كثيراً عن نجاح عملية تحرير الرهائن، مع مقتل أكثر من خمسين وجرح أكثر من مائة، بحيث أنَّ أحداً لم يخرج سليماً، كالطبيب الذي يقول لذوي مريضهِ: (العملية نجحت، لكن المريض مات)، ويظلُّ يتكلَّمُ عن صور التقدم الأمني والرخاء المتحقِّق، وأنَّ العراق أكثر دول المنطقة استقراراً، والحرية المقيَّدة بالضرورات الأمنية والاعتقالات العشوائية والشوارع المغلقة، وسوء تصرفات بعض ضباط الجيش والشرطة مع المواطنين، نتيجة الضغوط التي يتعرضون لها، وإذا حدثته عن الإخفاقات الأمنية والاقتصادية وحجم الفساد، يحدِّثك عن نجاحِهِ في التخلُّص من صَدَّام حسين، أو حتى عن حرب البسوس، إمعاناً منه في الهرب، كي لا يُفكِّر في نفسِهِ فقط.

كيف يتبدَّدُ الشعور بالهوية الوطنية لشعبٍ ما؟

هذا السؤال حجَّم العقل السياسي العراقي، وحصره في دائرة

---

(22) هيغل، في الفرق بين نسق فيخته ونسق شلّنغ، ترجمة د. ناجي العونلي، ص208.

عاطفية مُفرغة، لا يستطيعُ أمراً دون العاطفة، ومراعاة الانتماء الطائفي والقبلي والديني والقومي، هذا الانتماء الذي يهدِّدُ الهوية الوطنية، بسبب ارتفاع حرارتهِ يوماً بعد يوم.

هذا السؤال سلاحٌ أفتكُ من أسلحة الدمار الشامل، لأنَّ اليابان نهضت بعد قنبلتين ذريتين، ولكن لو أنَّ الشعب الياباني كان قد فقدَ هويته الوطنية، وانغمسَ في حربٍ أهلية وطائفية، لَمّا بقيَ للمواطن الياباني شيءٌ يعتزُّ به، ولا طعامٌ يأكله.

كيف نهزُّ صورة الدولة في قلوب مواطنيها؟ بحربٍ مزدوجة تستهدف هوية الدولة وهوية المواطن معاً (الدولة ترتكز على مؤسَّسات دائمة ومن الصعب إقامة أمثال هذه المؤسَّسات، إذا كانت الأرض التي تقوم عليها، تتغير باستمرار، أو إذا كان تلاحم الجماعة يتغير تبعاً لفصول السنة)[23]، وهذه المؤسَّسات التي تستهدف خدمة المواطن، تتحوَّل إلى مؤسَّسات كرلونيالية، كما تمتاز بصفة شخصية، وَتُدار بصفة شخصية استناداً إلى الانتماء الطائفي أو الحزبي أو القومي لمديرها وصاحبها، ويصبح هدفها الوحيد هو حماية مصالح الأحزاب والكتل والجماعات والكيانات السياسية، التي منحته كرسيَّ الإدارة أو الوزارة كمنحة ومكافأة لخدماته السابقة، ولهذا يعتبرها غنيمة، وهو ما يحدث في العراق، حيث كلما تغيرت التحالفات، تغيرت البنية التحتية للمؤسسات بحسب نظام المحاصصة، وما يسمونه بحكومة الشراكة الوطنية، وهذه الفوضى التي تأكلنا، تستتبع عدم الاعتراف بسلطة القانون، وإعادة تأويل الدستور بحسب الطلب والرغبة، و(تاريخ آيسلندة البدائية يُبيِّن لنا أنَّ وجود محاكم، لا يستتبع بالضرورة، الاعتراف بسلطة القانون، ولا ظهور سلطة

---

(23) جوزيف شتراير، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، ترجمة محمد عيتاني، دار التنوير، ط2، 2005، بيروت، ص9.

قادرة على فرض هذا القانون، ويمكن تماماً أنْ لا تكون سوى تسهيل يُستخدم أو يُستخدم، تبعاً للظروف)[24].

أحسنت يا بروتوس، وبروتوس هو العراقي مساعد البروفسور جوزيف شترايز، صاحب نظرية (إمكانية إعادة الدولة إلى مرحلة همجية القرون الوسطى) هذه النظرية السرية التي كانوا يهددوننا بها، وكانوا يقولون سوف نعمل على إعادة العراق عدة قرون إلى الوراء، لم نفهم أنَّ هذا التهديد جاء بعد نظرية اعتمدت التاريخ، وتمَّ تطبيقها بنجاح على دول أخرى قبل أنْ ينقلوها إلينا. واعتمدَ في نظريته هدم جميع تعريفات الدولة، وإعادة تعريفها (الدولة موجودة بصورة أساسية في قلب وروح وعقل مواطنيها، فإذا لم يؤمنوا بوجودها، فما من ممارسة منطقية يمكنها أنْ تعطيها حياة)[25]، وهنا أيضاً لا مفرَّ من هيغل، الذي انحاز معارضوه دونما شعور إرادي إلى الشكل الذي أعطاه هيغل للمسائل الفلسفية التي تخصُّ الدولة، وهذه المقولة مترجمة عن هيغل، وهي نظرية الدولة (الدولة تجمع فيها مبدأ العائلة، ومبدأ المجتمع المدني، الوحدة التي توجد في العائلة توجد بوصفها عاطفة الحب، هي جوهرها... الدولة تفكر ذاتها، وتعرف وتحقق ما تفكره بقدر ما تعرفه، لها في العادات وجودها المباشر، وفي وعي الذات، في علم وفاعلية الفرد، وجودها الموسَّط، هذا الأخير له حريته الماهوية بشعورهِ بوصفهِ جوهرها وغايتها ونتاج فاعليتها)[26]. فهل يشعر المواطن العراقي بحريته في مشاعرهِ بوصفهِ جوهر الدولة العراقية وغايتها؟

كيف يتم خلخلة صورة الدولة في روح المواطنين وعقولهم؟ بكثرة الانقلابات، وبث الجواسيس، وعمليات التخريب، مما يظهر الدولة غير

---

(24) المصدر السابق، ص11.

(25) المصدر السابق نسه والصفحة نفسها.

(26) هيغل، مختارات، ترجمة الياس مرقص، ط2، 1989، بيروت، ج2، ص124.

قادرة على حفظ الأمن، وعند هذه النقطة تبقى الدولة قوية، وعلى العكس يتعاطف المواطنون مع دولتهم التي تتعرض إلى عدوان خارجي، ولكن الطيش والجنون ومشاعر البارانويا بانتصارات وهمية، يدفع الحكومة إلى استخدام القمع المنهجي، وأساليب التعذيب، والعقوبات الجماعية، وهنا فقط تهتز صورة الدولة.

أنطولوجيا وجود الدولة العراقية، وصلت إلى مرحلة (مواطنون بلا وَطَنْ): عراقيو الخارج يرفضون العودة، لأنّهم يشعرون بأنّهم بلا وطن، وعراقيو الداخل يبحثون عن طريق للهجرة، فجأةً بدأ القتل على الهوية، لم تلقَ الكنائس قط مثل هذه التهديدات، في تاريخ العراق، وكذلك بقية الإثنيات ليست بمأمن، ولهذا يتطلب مفهوم الدولة في هذه المرحلة إعادة نظر في وجودها، نحن نشكو من غياب الدولة، ونحتجُّ ضدَّ تجاوزاتها المستمرة، ومع ذلك يستحيل علينا الاستمرار في ظل دولة ضعيفة، وشرُّ البلاد، بلدٌ لا سلطان له، ويزعُ الله بالسلطان، ما لا يَزَعُ بالقرآن.

لا أحد يُلاحظ غياب الدولة العراقية؟ لماذا؟ هل حدث مثل هذا الأمر في حقبة تاريخية سابقة؟ حين تكون الدولة غير موجودة، أو ضعيفة إلى درجة التغييب، تظهر قوة بعض الشخصيات، يتحدث البروفسور جوزيف شتراير (1904-1987) مؤرخ القرون الوسطى الأمريكية، ورئيس الجمعية التاريخية الأمريكية 1971، عن القرون الوسطى الأمريكية، والحروب الأهلية بين العائلات والأقاليم وكأنَّهُ يتحدث عن عراق اليوم (إنَّ رجلاً بلا عائلة، ولا سيد، ولا ينتسب إلى جماعة محلية، أو إلى جماعة دينية أكثرية، لم يكن باستطاعته أنْ يعيش إلا أنْ يصبح خادماً أو عبداً، وهذا النوع من المجتمعات كانت لديه قيم مختلفة عن قيمنا، وكان المرء يقوم فيه بالتضحية القصوى بحياتهِ أو بأموالهِ باسم العائلة، والسيد، والجماعة، أو الدين، وليس باسم الدولة)[27].

---

(27) جوزيف شتراير، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، ترجمة محمد عيتاني، دار التنوير، ط2، 2005، بيروت، ص7.

هذا الأستاذ انتقل من كرسيِّ الأستاذية في جامعة برينستون، ليشترك في وضع الخطط بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، في وقت كانت فيه الوكالة تخطِّط وتدير عمليات سرية لزعزعة استقرار الدستورية المنتخبة ديمقراطياً والحكومات في بعض أنحاء العالم (إيران والبرازيل والكونغو، جمهورية الدومينيكان، وغانا وشيلي). وقد استخلصَ من قراءته لتاريخ القرون الوسطى، أنَّ السلوك الاجتماعي لشعبٍ ما، إذا لم يعطِ الصَّدَارة لمصالح الدولة، باعتبارها الاجتماعي الكلي الشامل، فإنَّ هذا الشعب سوف يأكل بعضه بعضاً، باعتبار أنَّ الولاء للدولة، هو ولاء إنساني في جوهرهِ، وهو لا يتعارض مع الولاء القومي، ما لم تزدد حرارته.

والسؤال هو هل تنجح هذه النظرية بدون بروتوس؟ مواطن خائن يبيع نفسه للشيطان أو لمخابرات إحدى دول الجوار التي تفتخر باتفاقيات أمنية مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ويعمل على تخريب الوطن الذي يعيش فيه، بحجة النضال، أو أيَّة حجج أخرى، مهما كانت لا تبرِّر قتل الأبرياء، وهدم وتفجير دور العبادة، والقتل على الهوية.

إنَّ افتخار بعض دول أوروبا، بأنَّها ما زالت موجودة منذ عشرة قرون، ما يُعزِّزُ الولاء لهويةٍ وطنيةٍ أبصرت النور بعد عام 1100 م، يتضاءل أمام حضارة بدأت التاريخ المكتوب للإنسانية جمعاء، سنة 3100 قبل الميلاد، أمام مكتبة آشور بانيبال، والجامعة المستنصرية، وبغداد الرشيد، ولكن المسألة ليست بالأقدم، ولا الأحدث، بل بالأفضل، وإلا فأينَ اعتزازهم وولاؤهم من اعتزازنا وولائنا؟

دول أوروبا نجحت في استيعاب شتَّى الجماعات الدينية، والقوميات، والهجرة المستمرة، وتذويبها في هوية وطنية مشتركة، ونحن نُمْعِنُ كل يوم في البحث عَمَّا يُشَتِّتُ وحدة المجتمع ويفكِّكهُ، لأنَّ الدولة الحديثة المزعومة، تتشابه كثيراً مع صورة الدولة الأوروبية بين العامين 1100-1600م، حيث كانت قائمة بصورة شكلية على قسم الولاء إزاء

شخص الملك تحديداً، وحاكم المقاطعة، ورئيس الجماعة والعائلة، والحق الوراثي لعائلة معينة في الحكم، وضمن إطار الكونتية، دائرة أملاك الكونت، مثلما في نظام الإقطاع، الأرض بمن عليها، لمن يملكها، لا لمن يزرعها، وبذلك لم يكن بمقدورهم أنْ يتحسسوا مشاعر الولاء للدولة، ولم يتعرفوا المفاهيم المجردة لمؤسسات سياسية غير شخصية، قائمة بذاتها، بعيداً عن مدرائها ومسؤوليها.

الهوية الكردية... على الحافة

إنَّ البيئة الجبلية لا تختلف كثيراً عن البيئة الصحراوية، فكلتاهما جنَّةٌ وجحيم في الوقت نفسه، جنة الأبناء جحيم الغرباء، في جعل أبنائها فخورين كثيري الفَخْر والاعتزاز بكلِّ شيء، والفخُير لا ينفكُّ يفخرُ بجوعهِ وعطشهِ، وملبسهِ، ودابتهِ، وغضبته، وبكونهِ شجاعاً مِقداماً كريماً، وهذا الفخر والاعتزاز الشديدان مانعان يتطلبان أفعالاً وأقوالاً تغذيهما، كما من شأنهما أنْ يقفا سدين مانعين ضد أي تطور، من شأنِهِ أنْ يجعل أحدهم يبدو على غير الهيئة التي يريدها، متمسكاً بأقرب ما كان عليه أجداده.

يقول الدكتور كمال أبو ديب في تقديمه لكتاب الاستشراق: (إنَّ قدرة الغرب على تجاوز أزماته المستمرة منذ ديكارت حتى اليوم، أي منذ تبلور أزمة مركزية الإنسان أو الإله في الطبيعة، تنبعُ في تصوري من امتلاك هذا الوعي النقدي الضدي، ولعل خطر تصور هذه الخصوصية الأول هو أنَّه يميل في شروط تاريخية معينة على الأقل إلى تعمية هذا الوعي الضدي أو طمسه إذا وُجِد، لصالح الهوية الموحدة والتركيب المتناسق المتناغم، أو تأكيد صلابة الخصوصية وتماسكها)[28]. إنَّ

---

(28) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1981، بيروت، ص8.

افتخار الكردي الشديد وصلابة تمسكه بهويته، واعتزازه الكبير بها، يعتبره الآخر المختلف عدواناً صريحاً على هويته، كما أنَّ الإفراط في الافتخار والاعتزاز يقفُ سدّاً منيعاً ضد امتلاك الوعي النقدي الضدي، وبالتالي يؤدي إلى فقدان القدرة على تجاوز الأزمات، ومن الأعراف السائدة التي انبثقت من هذا الإفراط، الامتناع عن مصاهرة القوميات الأخرى، ومَنْ لا يمتنع يتعرَّض للاحتقار من محيطه الاجتماعي، والحرمان والمقاطعة التي غالباً ما تكون شاملة.

هل استطاعَ المستشرقون الإحاطة بالشروط الإنسانية لتغيرات الهوية الكردية؟ هل استطاعوا الإحاطة بالشروط التي حكمت التجربة الإنسانية الكردية؟ هل كانوا مهتمين بحتمية الظرف التاريخي والاقتصادي والثقافي والفكري؟

تقول الأكاديمية ماركريت كان: (سألتني خديجة هذا السؤال، وهي تضيِّق عينيها في أكثر من مناسبة: لماذا تذهبين إلى القرى الكردية؟ إنَّها أماكن مثيرة للاشمئزاز والقرف!!... ومع ذلك فقد خلصنا إلى رأي مفادهُ أن الأكراد وعلى الأقل عائلة الحاج إسماعيل يتصرفون بغرابة أقل من الإيرانيين، وأن غياب نظام الشكليات والتأكيد على الشرف الشخصي والأهم من هذا وذاك، الافتخار العرقي هو الذي يميز الأكراد من معظم الإيرانيين الذين التقيناهم، وربما كانت ميزة الافتخار هي الغالبة، إن الأكراد أو بالأحرى أكراد القرى الحقيقيين لم يشعروا بحاجة إلى تقليد الغرب، لذا قابلونا كأنداد، دون استياء.. لم تحل المسألة قط، لقد كان الحقد والخوف رابضين هناك لقرون قبل وصولي إلى هذا المشهد.. كنتُ أعتقدُ أنني أتيتُ إلى بلدٍ واحد، بينما كنتُ في الحقيقة أجول وأتنقل عبر حدود أكثر من نصف دزينة من القوميات، فالأتراك لم يقدروا على فهم صلتي بالأكراد، والأكراد لم يقدروا على فهم ما الذي كنتُ أفعله مع العجم، كان الأرمن والمسيحيون والآشوريون واليهود قد ذُهِلوا من

علاقتي بما كانوا يرونه بالمجموعة المسلمة الأكثر وحشية في المنطقة... ينظرُ الفرس إلى الأتراك على أنَّهم حمير، وإلى الأكراد على أنَّهم مجرمون ومتوحشون، وأنهم يشكلون تهديداً لأيِّ بلدٍ متمدن)[29]. هذه النظرة لم تتغيَّر كثيراً بين القوميات المتعايشة على أرضٍ واحدة، رغم مرور أكثر من أربعة عقود تقريباً، فما زالت الأحكام المُسبقة عن الهويات المغايرة تلعب دوراً كبيراً في تعامل القِوى السياسية التي تمثّل هذه القوميات، ولم تصر ممثلة لها إلا على أساس هذه الأحكام المسبقة والنظرة الاستعلائية إلى الآخر المختلف .

لا توجد دوال فارغة في اللغة الكردية، أو كلمات غير جديَّة، كلها ذات دلالات خطيرة متعلقة بالشرف والكرامة، ولكل كلمة مكانتها ضمن منظومة علائقية حذرة، وعن دلالة كلمة الترحيب والتوديع المزدوجة "سرجافا" كوسيلة للتواصل غير تقليدية، تستخدم في العلاقات الحية تقول ماركريت: (عندما تستخدم النساء الكرديات تعبير سرجافا فإنهن يلفظن هذا الترحيب التقليدي والوداعي بنبرات رصينة ورزينة وعيونهن مسدلة نحو الأرض، عندما سمعت ورأيت هذا السلوك للمرة الأولى فزعت قليلاً، لماذا كن على هذه الدرجة من الجدية؟ ولكني فهمت ذلك أخيراً عندما ترددت إلى البيوت الكردية وألفت هذه العبارة لتكرارها مئات المرات، لا تنطق سرجافا باستخفاف وتعني حرفياً على عيني... تعبير سرجافا يعتبر شيئاً مختلفاً تماماً وكلمة سرجافا بالنسبة إلى الأكراد ليست مجرد زوج من الكلمات بل تشكل عهداً والعهود لا تؤخذ بسهولة في كردستان... مهما كانت تحمل كلمة " سرجافا" من معاني بالنسبة إلى مضيفتي فقد كنتُ أسمعها بما تعنيه حرفياً وليس ضمن الشكليات التقليدية فقط، وعندما شعرت بأنَّ وقتي في كردستان يمضي بسرعة،

---

(29) ماركريت كان، أبناء الجان، ترجمة نورا شيخ بكر، مطبعة الخلود، 2001، دمشق، ص 319، 320.

بدأت أفهم ما تعنيه " سرجافا ")[30]. وإذا كان الكرد يفتخرون ببعض اصطلاحاتهم الترحيبية، فإنَّهم يفتخرون بخلو قاموسهم اللغوي من بعض الكلمات (يقول الأكراد مفتخرين إنه ليس لديهم كلمة أصلية مرادفة لكلمة داعرة فهذه العبارة المألوفة مقتبسة من العربية، إنَّ القرى ليست كبيرة بحجم كافٍ ليسمح فيها ببيوت للدعارة ولكننا لو أخذنا كردستان الأكثر طهارة من الناحية الاجتماعية من إيران المتمدنة، على حدة، فقد شعرت بأنَّ الجنس كان أقلَّ استحواذاً على تفكير الرجال الذين التقيتهم، وبما كان ذلك نتيجة الزيجات المبكرة أو بسبب قبول تعدد الزوجات، على الرغم من أنَّ الحاج إسماعيل كان يتوق إلى الحديث معي، فلم أشعر قط بأنَّ ذلك الاهتمام الداعر الذي ينمُّ عن سلوك الرجال الإيرانيين يصدر عنه)[31].

لم يصل من تاريخ الكرد إلا النزر اليسير، مما كتبه المستشرقون الذين زاروا المنطقة في فترات متباينة، حتى مطلع القرن العشرين (والآن لقد أعيقَ الأكراد مثل أسلافهم الجان، ليس في القمقم، بل في جبالهم، لقد حرموا من الكثير من مكاسب القرن العشرين باقين فقراء ومزارعين يرعون ويعملون في أرضٍ صعبة بأساليب وأدوات أجدادهم، ولم ترَ أية حكومة أنَّ من المناسب أنْ تُحسِّن أراضيهم هذه، ومثلما كان حال سليمان مع جانه، تخاف هذه الحكومات من الأكراد، تخاف مما قد يفعلونه مع حصة وافرة من البترول التي تكمن تحت أرض كردستان، تخاف مما قد يطالبون به لو عرفوا القراءة والكتابة، وكانت لهم الحرية في التكلم بلغتهم الأم وإصرارهم على حقِّهم أنْ يبقوا أكراداً... كان الأكراد في العقود الثلاثة الأخيرة، قد أغروا ووُعِدوا ونُكِثَتْ الوعود من

---

(30) ماركريت كان، أبناء الجان، ترجمة نورا شيخ بكر، ص 407.

(31) المصدر نفسه، ص 384.

قبل الإنكليز والروس والأمريكان، لقد سمحوا لأنفسهم بأنْ يكونوا بيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى آملين في الحصول على الحكم الذاتي لأنفسهم كأكراد، فكل قوة عظمى كانت تعِدُهم بالحرية عندما تفرغ من مشاغلها وفي كل مرة وعلى الرغم من أنّهم كانوا يقاتلون بشجاعة وشرف فقد كانوا يُخذلون في تتالهم)[32].

لماذا سمحَ الكرد لأنفسهم بأنْ يكونوا بيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى؟ بحسب الكاتبة ماركريت أملاً في حياةٍ أفضل، هذا السبب بالنسبة إلى المستقبل، ولكنَّ سبباً أقوى تمَّ تجاهله: أملاً في الخلاص من الاضطهاد والبؤس. سافرت ماركريت كان إلى كردستان الشرقية سنة 1974، ولأنَّ اللغة الكردية كانت مُحرَّمة قانونياً في إيران، تحولت مهمتها في دراسة اللغة الكردية إلى متاهة، وعن الصعوبات التي واجهتها تقول: (لا توجد خرائط عدا تلك التي رسمها الأكراد وأصدقاؤهم، تدرس كردستان وطن الأكراد، لا توجد إشارات تدل على الطريق، لا مكتب للسياح، ولا مرشدون سياحيون، هناك البوليس السري الذي سيوجِّهك بسرعة وبقوة إلى الاتجاه المعاكس، لكن كردستان هي مكان حقيقي، لها حدودها ومدنها ولها لغتها). منحت شهادة دكتوراه سنة 1976 بعد أنْ كتبت أطروحتها عن اللغة الكردية، وصار كتابها (مدخل عن الأكراد) ضمن موسوعة هارفارد للمجموعات العرقية الأمريكية. زارت ماركريت كرد إيران في زمنٍ و(أرضٍ لا يتحدث فيها أناسها علانية عن الاضطهاد الذي يُمارس ضدهم)[33]، وهذا الزمن مستمر إلى اليوم، فالمطلوب من كرد إيران ليس ألا يتحدثوا عن كرامتهم المهدورة فحسب، بل أيضاً أنْ يتغنوا بالإنجازات والحقوق التي منحتهم إياها الثورة الإسلامية.

---

(32) ماركريت كان، أبناء الجان، ترجمة نورا شيخ بكر، ص11، 12.

(33) المصدر نفسه، ص 301.

الهوية الجمعية، هي مجموع لهوية الأفراد، وهوية الفرد النموذج، من خصائص الهوية الجمعية، التي بدورها تتأثَّر في تحولاتها بخُطى انقلابات الهوية الفردية، وهكذا نستطيع القول بأنَّ هوية الكردي المُتَعَصِّب العنيد، الانفعالي العاطفي، ليست هي التي تخلقُ النزعةَ المُعادية للشعب الكردي، في بعض وسائل الإعلام، بل للنزعة المُعادية للشعب الكردي، دورٌ كبير في خلق وتبرير وجود هوية الكردي المتعصِّب، وتمنحه قوة إضافية في مواجهة هوية الاعتدال والعقلانية، ولقد لاحظنا أنَّ هذه النزعة التي كانت حادَّة الوتيرة، قد أخذت بالانخفاض شيئاً فشيئاً، بعد 2009، بينما كانت قبل ذلك حادَّة تتجاوز تبادل الاتهامات، إلى التهديد المباشر أحياناً، فالمتعصِّب من الطرفين يَدَّعي الدفاع عن الهوية الوطنية، والخصوصية الثقافية، بإظهار كرههِ للأجانب، والأغيار، ولكنَّهُ أبداً لا يعلم، بأنَّهُ يمارسُ فِعْلاً جاهلياً لا حضارياً، ولا بدَّ أنْ يكون له رد فعل عنصري مماثل، فللغير هوية وطنية وخصوصية ثقافية أيضاً، والشرعية الزائفة التي يمنحها هو لمحاولات إلغاء الآخر، سيستخدمها الآخر في محاولات ربما تكون أشدَّ ضرراً، وفي هذه الممارسة إلغاء للهوية الإنسانية المشتركة بين الطرفين عموماً، فالشرعية الممكنة أنْ تطالب بحقك، دون المطالبة بإلغاء حق الآخر المختلف، المستند إلى تراث وتاريخ غير قابلين للتزييف.

مرتزقة الإعلام.. مرتزقة المنطق، لا يفقهون أنَّ زمن التملق إلى السلطة والنظام والحزب الواحد قد انقضى، وأنَّهم اليوم بالتحديد، يعيشون زمناً آخر، وأنَّهم بتملُّقِهِم يسيئون إلى من يتملقونهُ أكثر، ويشوهون صورته، وأنَّهم يفسدون أكثر مما يصلحون، وعدوٌّ عاقل، خيرٌ من صديقٍ جاهل، فالصديق الجاهل يُضرُّكَ وهو يريد منفعتك، يثبت للآخر أنَّ النظام الذي يتملقه، غير صادق في ادِّعائهِ الديمقراطية، أو يعمل بممارسته دونما أنْ يشعر، بإلغاء الحاجز بين الأكاذيب والحقائق،

لزعزعة الثقة المتبادلة، بين السلطة والشعب، وبذلك يشكلون عامل استلاب للهوية الكردية، فيشعر المواطن بأنَّهُ قد صار على غير الصورة التي يريدُ أنْ يكون عليها، وأنَّهُ لا يستطيع أنْ يعيش مع الضغوط التي تُمَارس على هويتِهِ، كيما يكون غير الذي يريد هو أنْ يكونَهُ، وهذا النوع من الضغوط قديم، وربما يقوم البعض بعقد مقارنة، وإنْ بشكلٍ غير واعٍ، بين النظام القمعي السابق، والنظام الديمقراطي الحالي، خصوصاً وهو يرى تكرار الصورة الإعلامية عينها في تمجيد السلطة، وتجميلها، وتبرير أخطائها، يقول أدورنو: (في ظل الأنظمة القمعية، تُدْهَس الحقيقة من قبل السلطة، التي تؤدي إلى نسف جوهر الاختلاف بين الحقيقي والزائف، الذي يعمل مرتزقة المنطق باجتهاد على إلغائهِ.. تفقد الحقيقة وظيفتها الشريفة في تمثيلها الزائف للواقع، لا أحدَ يُصدِّق أحداً، والجميع يدَّعون المعرفة)(34)، هذا في زمن الأنظمة القمعية، فلماذا اليوم صارَ التميز بين الحقائق والأكاذيب صعباً إلى هذا الحد؟

أينَ نَقِفُ نحن من الصحافة العالمية؟ ما هي الصحافة العالمية؟ هل هي التي اكتسبت ثقة متبادلة، واستناداً إلى هذه الثقة صار بمقدورها توجيه الرأي العام لاتخاذ موقف إيجابي تجاه حالة معينة؟ هي المسافة التي تفصل صحافتنا عن الرأي العام؟

بماذا أختلفُ عنهم؟ بماذا يختلفون عَنِّي؟ هل أنجرِف إلى تقليدهم دونما وعي بخطورة الانجراف؟ هل أُعاني استلاباً حضارياً وانبهاراً ثقافياً؟ لماذا عَنْوَنَ ابن خلدون الفصل الثالث والعشرين من مقدمته " في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب"؟ (والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غَلَبَهَا وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر

(34) كريستوفر نوريس، نظرية لا نقدية، ترجمة د. عابد إسماعيل، دار الكنوز الأدبية، 1999، ص5.

عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به مِنْ أنَّ انقيادها ليس لِغَلَبٍ طبيعيٍّ، إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك، واتصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وَتَشَبَّهَتْ به، وذلك هو الاقتداء).

ولكننا اليوم نسير بالعكس، إذْ نمضي قُدُماً في تقليد المغلوب على أمرِهِ، باستخدام الأساليب عينها التي كان يستخدمها في إعلائِهِ، إلى حَدٍّ ما، لكن ليس تماماً. كيف نُصَحِّحُ الخطأ؟ كيف نتعامل مع هذا الوضع؟ كيف نُخَلِّص المواطن من أحلامِهِ الوردية ومن أفكارِهِ الطوباوية في مثاليةٍ مزيفة؟

كان بورخس الشاب الذي يحلم بالكوزموبوليتانية (1899-1886) عائداً من سويسرا مطلع العشرينات إلى الأرجنتين ليبقى فيها إلى ما قبل موته بسنين قليلة جداً، بعدما هضمَ الكتبَ الإنكليزية في مكتبة والدِهِ، راح يسأل: (كيف يمكن كتابة الأدب في الأرجنتين؟... ذلك المدى الواسع من الطبيعة الذي كان لا يزال من الممكن فيه سَمَاع أصداء ثقافة ريفية كريولية حتى عندما كان التحديث يقضي عليها قبل كل شيء كأسطورة في مواجهة ماضيه الكريولي، سأل بورخس عن الطريقة التي كان يمكن فيها تفادي الطابع المحلي الذي لا يمكم أنْ ينتجَ أدباً إقليمياً ومحلياً بصورة ضيقة، بدون التخلي عن كثافة الثقافة التي تأتي من الماضي وتشكِّلُ جزءاً من تاريخنا الخاص، هذا السؤال يفترض بصورة مسبقة سؤالاً آخر، يتعلق بالتراث الثقافي)[35]. فيجب أنْ يكون للشاعر موقف من كلِّ شيء في الحياة العامة، كما في حياتِهِ الخاصة، بدأ بورخس عملهُ كموظف صغير في فرع ميغول من مكتبة بيونس آيرس العامة، قام بتصنيف أكثر من مائة كتاب يوميا، قضى بقية الأيام في قبو المكتبة يكتب المقالات والقصص القصيرة، استولى خوان بيرون على

(35) بياتريث سارلو، بورخس على الحافة، ترجمة خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، 2004، القاهرة، ص29.

السلطة في عام 1946 فنقلَ بورخس إلى منصب مفتش دواجن في سوق بلدية بيونس آيرس، ليصيرَ عبرةً ورمزاً للمثقف المنشق، فاستقالَ فوراً حتى ذلك الوقت كان هجوم بورخس على السلطة يقتصر على كتابتهِ عرائض تؤيد الديمقراطية، لكن بعد استقالته خاطب جمعية الرسائل الأرجنتينية قائلاً: (إنَّ الديكتاتوريين يجلبون الظلم، وإن الديكتاتوريين يجلبون العبودية، وإن الديكتاتوريين يجلبون القسوة، والأبغض من ذلك أنهم يجلبون الحماقة). عام 1955 سقطَ بيرون وتمَّ تعيين بورخس مديراً للمكتبة الوطنية، (وقد رأى بورخس في هذا المنصب شرفاً مضحكاً، بما أنَّه كان عندئذٍ قد صار أعمى)[36]. لكنه ظلَّ ينتقد الممارسات الدكتاتورية للجنرالات الذين استولوا على الحكم، كان بورخس مركزاً للتجربة الأرجنتينية بسبب استمراره على التركيز على هوية الأرجنتين الإنسانية.

هوية العراق: دولة فاشلة

الدولة الفاشلة هي دولة ذات حكومة مركزية ضعيفة، ليس لها غير سلطات اسمية، أو حكومة غير فعالة، لا تملك بيدها القرار، وأحد مصادر ضعفها الديمقراطية التوافقية، التي بيدها حجب الثقة، وتظلُّ تلوِّح بها كورقة ضغط ضد رئيس الحكومة والوزراء، فضلاً عن الشروط التي وضعتها مُسْبَقاً أمام شخص رئيس الوزراء، وأعضاء حكومته، والصفقات التي عقدتها لضمان مصالح شخصية أو حزبوية ضيقة، فلكي يوقِّع وزير النفط مثلاً، عقداً لاستثمار أو تطوير أحد حقول النفط، يجب أنْ يرضي جميع الأحزاب والقوى السياسية، وبالتالي تظلُّ العقود تراوح مكانها، وهكذا جميع القرارات المصيرية الأخرى، كالمصادقة على الميزانية،

---

(36) ويليس بارنستون، بورخس، ترجمة عابد إسماعيل، دار المدى، 2003، دمشق، ص42.

أطرافٌ يقولون: (يجب ترحيل الميزانية إلى الدورة المقبلة للبرلمان، كي لا تقوم بعض الأحزاب بإنفاق الأموال العامة في حملاتها الانتخابية) وأطرافٌ أخرى تقول: (في تأخير المصادقة، ضررٌ كبير يلحق بالقطاعات كافة ويوقف عملية التنمية والاستثمار ووو). وهذه المصالح الحزبوية الضيقة، غالباً ما تكون مرتبطة بأواصر قوية مع قوى خارجية تُحرّكها، فضلاً أنَّ الدولة الفاشلة تعاني ضعفاً إدارياً، فيتم تعيين موظّف بدرجة وزير أو محافظ أو مدير عام: لم يمارس وظيفة حكومية ولم يوقّع كتاباً رسمياً في حياته، وبسبب غياب التكنوقراطية والبيروقراطية (technocratic and bureaucracy) لن تُحقّق الحكومات المحلية ولا المركزية أيّة خدمات للمواطن، وستظل خدماتها لأحزابها أولاً وأخيراً، حيث لا وجود حقيقياً للإدارة التي تنأى بنفسها عن المشاعر والانفعالية والتعصب، وبالتالي ستكون خاضعة لعواطف قومية وطائفية في منأىً عن العقلانية، ورغم كلّ هذا تظلُّ مقاييس الحكم على دولةٍ ما: بالفشل، موضوع جدل.

تقوم مجلة السياسة الخارجية الأمريكية بإصدار تقرير سنوي لتصنيف أفشل عشرين دولة في العالم: وفي العام 2005 كان تسلسل العراق هو الرابع، بعد السودان وجمهورية الكونغو الديمقراطية وساحل العاج، وفي عام 2006 ظلَّ العراق يحتل المرتبة الرابعة بين الدول الأكثر فشلاً عينها، وفي العام 2007 صعد العراق إلى المرتبة الثانية بعد السودان، وفي العام 2008 تأخر إلى المرتبة الخامسة، وفي 2009 صار في المرتبة السادسة. ويستبعد التقرير أراضي وأقاليم غير مستقرة بتاتاً كتايوان، والأراضي الفلسطينيّة، وشمال قبرص، وكوسوفو، وصحارى المغرب العربي وكشمير. ويستند التقرير إلى اثني عشرَ مؤشّراً (ستة مؤشّرات سياسية، وأربعة اجتماعية، ومؤشّران اقتصاديان).

الدول الفاشلة لا يُشترط أن تكون فقيرة، بل إنَّ الكثير منها على العكس غني بالموارد الطبيعية، وبالنفط والماس، ولكنَّ هذه الثروات

تصير مصدراً للخراب، لا للازدهار والتقدم، لأنَّ هذه الدول تنفقُ إيراداتها بعيداً عن أيَّة مشاريع تنموية اقتصادية، قد تنفقها على التدخل بالشؤون الداخلية لدولٍ أخرى، أو سباق تسلُّح ضد عدو خارجي وهمي، أو تمويل الإرهاب الدولي، أو على ملذات السلطة الحاكمة، أو تضيع كعمولات رشى وفساد إداري ومالي، وغالباً ما تدفع الثروات الطبيعية الموجودة في دول غير مستقرة سياسياً: إلى اندلاع النزاعات المسلحة والحروب الأهلية، ما هي معايير التمييز بين الدولة القوية والدولة الضعيفة؟ أليسَ تفشِّي الإجرام والإرهاب والفساد دالاً أكيداً على ضعف الدولة؟ ماذا يقصد الأمين العام لجمعية الأمم المتحدة من كلمته (على ساسة العراق أنْ يتصرفوا كرجال دولة)؟ وإذا كانوا لا يتصرفون كرجال دولة، فهل يتصرفون كرجال مافيا؟ لماذا كان عراق قبل 2003 مستقراً أمنياً؟ حيث لم تشهد بغداد انفلاتاً أمنيا، رغم أنَّ حكومة البعث امتازت بمعاداة دول الجوار كافة! وخطوط الطول والعرض الممنوعة، ووجود قوى المعارضة ودعم الولايات المتحدة غير المحدود لهم في ثلاث محافظات من إقليم كردستان تتمتع بحماية دولية واستقلال شبه تام.

والدول التي ترزأ تحت حُكمٍ مريض، غير سليم، أو ضعيف، غالباً ما تصير عبئاً على أمن المجتمعٍ الدولي، كالصومال، لأنَّ هذه الدول توفِّر البيئة الخصبة، والحماية اللازمة لأعمال عصابات المافيا، وللأنشطة الإرهابية، وغالباً يتصرَّف المجتمع الدولي بطريقة (ما دام بيتي سليماً، فليحترق العالم من ورائي) ولا يكادُ يُحرِّكُ ساكناً حتى تقع الفأس في الرأس، وتتفاقم المشكلة، وقد (حدَّدت وزارة التنمية البريطانية ستَّاً وأربعين دولة ضعيفة ووصفتها بأنَّها فقيرة وعرضة للإرهاب والنزاعات المسلحة والأمراض الوبائية)[37]. واستندَ روس إلى مقال عنوانه (إعادة

(37) دنيس روس، فنّ الحكم، ترجمة هاني تابري، دار الكتاب العربي، 2008، بيروت، ص202.

بناء الدول الفاشلة (Rebuilding failed states) نشرته مجلة (The Economist) الأمريكية في 3/ 3/ 2005. ثم يكمل روس (وتفضّل الجماعات الإرهابية: الدول الضعيفة على الدول التي أصبحت فعلاً مفلسة لتتمركز فيها، فبنيتها التحتية الأفضل نسبياً قد تمنحها مكاناً أكثر ملاءمة للعمل، إلى جانب أنَّ غياب الحكم السليم وتفشي الفساد على نطاق واسع قد يعطيان الإرهابيين حرية الوصول إلى تلك البلاد ويضمنان لها الحماية، غالباً ما يكون الإجرام متفشياً في الدول الضعيفة أو العاجزة)[38].

في "قائمة الدول الفاشلة" لعام 2008 للصندوق من أجل السلام والسياسة الخارجية وعلى رأسها الصومال والسودان وزيمبابوي وتشاد، والعراق (بهذا الترتيب). وهذه الدول قد فشلت لأسباب مختلفة، على سبيل المثال التدخل الأجنبي في العراق، وهناك تشابه في كثير من الأحيان في الآليات التي تؤدي إلى فشل الدولة، وعلى سبيل المثال توافر الموارد الطبيعية. ومن أسباب فشل الدولة تحركات ضخمة للاجئين والمشردين داخلياً، والتدهور الاقتصادي الحاد ، وانتشار العنف والجريمة. يوم الحادي عشر من أيلول هو الذي جعلَ العالم يدرك جيداً أنَّ الآثار المترتبة على فشل الدولة لا تتوقف عند الحدود الوطنية. وفي ضوء تجربتي العراق وأفغانستان، فإنَّ التشاؤم هو المسيطر على الخطاب السياسي، وهذا التشاؤم ينبغي أن يكون دافعاً للبحث عن أساليب مبتكرة لبناء الدولة في مثل هذه الظروف الصعبة. و"إصلاح الدول الفاشلة" يتطلب حلولاً، غالباً ما تكون باهظة الثمن ومدفوعة من المواطنين الأبرياء في كل دولة فاشلة، نحن بحاجة شديدة إلى آليات إشراف خاصة للمستثمرين الدوليين في الدول الضعيفة، مثل مبادرة شفافية الصناعات الاستخراجية. كما يمكننا تحديد الدروس العامة التي يمكن استخلاصها

---

(38) المصدر السابق، ص204.

من النجاح والفشل في تحديد الدول الفاشلة، على سبيل المثال من العراق وأفغانستان وبوغوسلافيا السابقة؟ مع التركيز أنَّ لكلٍّ بلد حالاته الخاصة.

حزب حكومة دولة، متتالية، تتناسب صفاتها مع بعضها في علاقة عكسية أو طردية، بحسب الظرف التاريخي، حكومة قوية، يعني دولة ضعيفة، لأنَّ الحكومة القوية تستهدف وتُحجّمُ مؤسّسات الدولة وتختزلها في شخصٍ واحد أو حزب واحد، وأحزاب قوية، في منافسة شديدة، يعني حكومة ضعيفة، لأنَّ الأحزاب القوية تستهدف الحكومة، وتُحجّمُ دورها، وكلٌّ هذا يدفعُ إلى تقديم صورة زائفة عن الديمقراطية، والحريات الفردية المزعومة، وتسخير القانون كأداة للسيطرة، لا كأداة لفرض العدل، قانون عفو عن الأبرياء، قانون عفو عن الموظفين الذين زوروا شهادات، ولكن أيُّ موظفين؟ أعضاء المجالس التشريعية، والدرجات الرفيعة، وهلمَّ جراً من قوانين تهدم، وتشرعن الأفعال التي اتفقت قوانين العالم القديم والحديث، على تجريمها، وحالات فوضى لا مثيل لها في التاريخ، نَتَجَ منها ذوبان العراق بوصفهِ دولة، وفناؤهُ في حكومة ضعيفة متذبذبة، تتنازعها خارجياً دول الجوار وأعضاء مجلس الأمن، وداخلياً أحزاب قوية متنافسة، بشوكات الطعام، وبعدما انتهت الوزارات، تتجهُ الأنظار والمَطامع إلى هيئة النزاهة، ومفوضية الانتخابات، وغيرهما من الهيئات، وفي المرة المقبلة، سيتقاسمون كراسي مدراء المدارس الابتدائية أيضاً، ثم إذا انتهت المناصب، سيتقاسمون لحومنا وأعضاءنا، لبيعها إلى دول الجوار.

في البيت الشعري رقم 200 من الإلياذة، يقول هوميروس: (لا نستطيع حتماً أن نكون كلنا ملوكاً هنا، فالسيادة للكثيرين غير لائقة ولا مفيدة، ليكن لنا حاكم واحد، ملك واحد، نعطيه الصولجان وحقَّ الحكم ليرعى شعبه). ومن وحي هذه الكلمات يقول بسوت (1627-1704) مستشار وخطيب لويس الرابع عشر: (حيث يملك الكل فعل ما

يشاء، لا يملك أحدٌ فِعلَ ما يشاء، وحيثُ لا سيد، الكلُّ سيد، وحيث الكلُّ سيد، الكل عبيد)، ثلاث قضايا شرطية متحقِّقة في عراق اليوم، حيث يملك الكل فعل ما يشاء في سبيل كرسي الوزارة، أو إحدى الرئاسات، لا يملك أحدٌ فِعلَ ما يشاء إزاء رغبة الآخر العارمة في المنافسة، وحيث لا سيد: لا أحد يملك الأغلبية الكافية لتشكيل الحكومة، بمقدور الكل أنْ يحلم وينافس، وهذه المقولة قيلت في العصور الوسطى المظلمة، عندما كانت المناصب تُباعُ وتُشترى، فإذا كان أحدهم يرى في نفسه مؤهلات منصب وزير العدل، عليهِ أنْ يدفع للملك مبلغاً محترماً من المال، من شأنِهِ إقناع الملك، وبالطبع سوف يجني السيد الوزير عشرة أضعاف المبلغ، من ريع الوزارة. وهكذا الحكومة البلوتوقراطية تحوِّل الشعب إلى تراب، يُغري بأنْ يطأهُ الأغنياء بأقدامهم، يقول تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الأنبياء: 22. الشرط وجود آلهة، جزاء الشرط: فسدتا، السموات والأرض، وكقوله تعالى ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ المؤمنون: 91.

الفصل الثاني

أسئلة النهضة الكردية

النهضة في جوهرها مشكلة حضارية، وفي أسئلة النهضة إقرارٌ مُضْمَر بحالة التخلف، لكن من شأنِ هذه الأسئلة أنْ تفتحَ آفاقاً جديدة، لأنَّها قلقة تدفعُ إلى التفكير والبحث، وتتأرجح بين الخطأ والصواب، بين القبول والرفض، بين التطور والتحجر، وتتمركزُ في الوعي المؤجَّل بحقيقة أنَّنا لا نملكُ خياراً إلا أنْ نتطور، لأنَّ العجز يعني الارتداد إلى المرحلة السابقة للوعي المؤجَّل بمرحلة ما بعد بداية النهضة الكردية بشوطين: قبل وبعد 2003، وهذا ما يؤكِّد على ضرورة الأسئلة النهضوية للخروج من وضع اللاتفكير واللاوعي بالنهضة، من نوع: " متى وكيف بدأت النهضة؟ هل ما زالت ممكنة؟ إذا كانت ممكنة فهل لها طريق واحد أم لها طرقٌ متعددة؟ كيف نلحق بِرَكبِ الحضارة؟ من أينَ نبدأ؟ وإذا كنا قد بدأنا دونما وعي بفعل النهضة: إلى أين نحن سائرون الآن؟ هل بالإمكان إعادة توجيه عجلة النهضة؟ كيف نحقق نهضتنا الخاصة؟ هل نقوم بتقليد ومحاكاة التطور الغربي أم أعدنا إنتاجه بما يتواءم وخصوصية الهوية الكردية؟ ما هو مدى وأثر حرية التعبير والنشر في التطور الذي نبتغيه؟ ما هو دور التعليم؟ ما هو دور حركة الترجمة (من/ إلى)؟ ما هو دور الفضائيات والصحافة والمجلات الأدبية والسياسية في الوعي المؤجَّل؟ ...الخ ".

إنَّ فصل التاريخي عن الاجتماعي أو العكس، أمرٌ غير مسوّغ في علم الاجتماع الحديث، لأنَّ عملية الفصل تحيل إلى مجتمعٍ ذي مرجعية أخرى غير ذاتهِ، وإنَّ عملية الوصل تُحيل على خطّين متوازيين: نمو بذرة المؤسسات السياسية مع الانغلاق الاجتماعي (1991-2003)، والانفتاح الحذر والبطيء (2003-2010)، وأثبتت التجربة تحول إقليم كردستان العراق إلى عامل لوحدة العراق، ونموذجاً لنجاح التجربة السياسية بعد 2003، وما يشهده الإقليم من ازدهار حضاري في خدمة الحكومة المركزية في بغداد، وهذا الوضع الراهن يتطلب أسئلةً مستمرة من شأنها أنْ تكون وقودا يضمن استمرار الفعل الحضاري في مجالين مزدوجين متوازيين (التقني المادي القانوني/العضوي الاجتماعي الأخلاقي) والمجال (السياسي/الإعلامي) للحيلولة دون العودة إلى مراحل مبكرة من الصراع العربي الكردي، بالتأكيد على تغنيد مخاوف القادة السياسيين في الدولة العراقية منذ نشأتها، باعتبار الشعب الكردي طابوراً خامساً في خدمة جيران العراق، ولجوئهم إلى أشد أشكال العقوبات الجماعية من تشريد وتهجير، وحجر ومراقبة، ضدَّ شعبٍ كان لا يملك وسائل الدفاع سواء القانونية أو الإعلامية أو السياسية، ضد دعاية فجة وزائفة هي أنَّ الشعب الكردي المُسالِم يُمَثِّلُ تهديداً لأمن العراق وسيادته، كنوع من التأكيد على أوهام الخطر الخارجي للهرب من تفاقم المشاكل الداخلية.

كما يتطلب أسئلةً مستمرة من شأنها تصحيح مسار النهضة، وكشف واقع النهضة الاجتماعية المعكوسة، جرَّاء وضعٍ غير مُفكَّرٍ فيه، قد يؤسّس لنهضةٍ زائفة، جرَّاء استحواذ فكرة التطور العمراني على المجتمع الكردي بشكل لم يسبق له مثيل، مع تناقص الاهتمام بالاستثمار في بناء الإنسان، اصطدمت الفكرة النهضوية بالثوابت الاجتماعية والأعراف السائدة، فأهملَ حقيقة أنَّ أعباء تاريخه المأساوي، جرَّاء اللامساواة، ساهم في صوغ طرق التفكير السائدة في عقله الجمعي، فتحول إلى منظومة قلقة، مركبة من تعقيدات وتناقضات تتغير بسرعة وباستمرار،

تكشف عن خاصية فريدة، ولكن هل بالإمكان اعتبار تغير الأشكال تطوراً؟ عندما نعاين مدينة كردية، لا نكاد نعثرُ على آثار القرية التي كانتها في يومٍ من الأيام، رغم التطور وشبكة المواصلات الحديثة، فإنَّ القطيعة الاجتماعية بين القرية والمدينة تتسع يوماً بعد يوم، وعندما نعاين منظومة فكرية لمجموعةٍ ثقافية نراها تبحث عن كل ما يوتّر الأعصاب، وتعيشُ حرباً باردة بين أعضائها، فضلاً عن تجاهل تام وعدم اعتراف بالآخر المختلف، بحسب أهوائها الآنية وما ينتظر منها الآخرون، بينما كان أينشتاين في هندامهِ المهمل، طيب القلب حدَّ السذاجة، ويعتبر الكراهية والأحقاد نوعاً من التحجر الذهني، مُنطلقاً من مقولة الشاعر وليم بليك (لعنة الله على كلّ ما يوتّر أعصابك، وبركته على ما يُخفّفُ عنها)، لأنَّ المنشغلين عن عملية التفكير، يؤذيهم أنْ يفكّر الناس، والمتكاسلين يؤذيهم أنْ يبدعَ غيرهم، صبُّ اللعنات على الآخرين يشغلهم عن إيقاد شمعة تبدّدُ الظلام، والمنشغلين عن التفكير لم ينشغلوا إلا بمصالحهم الخاصة وقصورهم، هناك فرق بين مَنْ يريدُ أنْ يكون أفضل، وبين مَنْ يريد أنْ يبدو أفضل، فرقٌ بين مَنْ يتصنّع ويرائي وبين الصادق، وفي هذه الحكاية اللطيفة مغزىً كبير (حاول أحد المسؤولين إيهام من حوله أنَّهُ مشغول جداً لأنَّهُ شخص مهم، طرق رجل عليه الباب فسارع المسؤول إلى حمل سماعة الهاتف متظاهراً بأنه يكلم شخصاً مهماً، ثمَّ قال له: " تفضل اجلس ولكن انتظرني لحظة فأنا أحاول حل بعض المشاكل" وبدأ يتظاهر بأنه يتكلم بالهاتف لمدة دقائق، ثم أغلق السماعة وقال للرجل: تفضل ما هو سبب زيارتك؟ فقال الرجل: "جئت لإصلاح الهاتف يا أستاذ").

اللاتفكير يصنعُ الأصنام، ولهذا بدأ القرآن الكريم بفعل الأمر (اقرأ) وأطلقَ على فترة ما قبل الإسلام اسم الجاهلية، ومن هنا ينطلق مالك بن نبي (إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإنَّ الجهل في حقيقته وثنية، لأنَّهُ لا يغرسُ أفكاراً، بل ينصبُ أصناماً، وهذا هو شأن

الجاهلية... ومن سُنن الله في خلقهِ أنَّهُ عندما تغربُ الفكرة يبزغُ الصَّنَم)[1]. من التفكير في حالة التخلف بدأت النهضة اليابانية بإعلان مبادئ الإصلاح الخمسة أو ما عُرِف بوثيقة ثاوات في 14 آذار 1868 والمبدأ الخامس هو الأهم (البحث لاكتساب الثقافة والتعليم العصري في أي مكان من العالم واستخدامهما في بناء ركائز الإمبراطورية اليابانية)[2]. امتثالاً للحديث النبوي الشريف (الحكمة ضالة المؤمن) أي يطلبها ويبحث عنها كما يبحث الرجل عن ضالته، وحيثما وجدها أخذها، ومن المبدأ الخامس صدر وعد إمبراطوري بإصدار الدستور أسوةً بنظم الدول الحديثة، وفي الخامس من أيلول 1868 صدرَ نظام جديد للتعليم، واستمرت النهضة ولم تتوقف يوماً واحداً، بحكمة استبعاد أنظمة القرابة في توزيع المسؤوليات.

الإنسان يفكِّرُ دوماً ويبحث عن طرق يطوِّرُ نفسه بواسطتها، وهو ما يميزه من المخلوقات الأخرى، ومن قراءته يستفاد من تجاربِ الذين سبقوه، كي لا يقعَ في الأخطاء التي وقعوا فيها، يقول تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ الأنعام: 165، الناس خلائف: فكلُّ عصرٍ، خليفةُ عصرٍ تقدمهم، ويقول تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاطر: 39. جيلاً بعد جيل يبحثون عن حياةٍ أفضل، واختلاف الوسائل بسبب اختلاف طرق التفكير، وهو ما يميز إنساناً من إنسانٍ آخر، واختلاف المجتمعات نتيجة لاختلاف طُرقِ تفكيرها، ولكلِّ تفكيرٍ جذور وأرشيف، ولغة خاصة، قد تساعد أو تحجِّم عملية التفكير، فجذور الطبيعة الصارمة للمجتمع

---

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل وعبدالصبور شاهين، دار الفكر، *1986*، دمشق، ص28.

(2) د. مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية، سلسلة عالم المعرفة، 1999، الكويت، ص222.

الألماني، مصدرها المثاليات الألمانية، والرؤية الأخلاقية للعالَم، التي يصدر عنها تقديس الماهية المطلقة للواجب:

فَـإنَّـمَـا الأُمَـمُ الأخْـلاَقُ مَـا بَـقِـيَـتْ

فـإن هـمُ ذَهَـبَـتْ أخـلاقـهُـم ذَهَـبـوا

فَكَمْ من الأمم هلكت، بسبب ظلمها واستعبادَها الآخر المختلف، بالاستناد إلى نظريات الفصل العنصري، كفوقية الألمان لدى النازيين، ففكرة الإنسان عن النهضة هي التي تهلكه أو تنجيه وتطوره، يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ هـود: 117. بعض الدول العربية راهنت على القومية، ففشلت فشلاً ذريعاً، وفي الوثيقة رقم 39 يورد هيكل رسالة جمال عبدالناصر إلى عبدالحكيم عامر في 5 كانون الثاني 1960 (وأنا الآن خائف على نفسي مِنْ أنْ أكفر بالقومية والعروبة والوحدة، لأنَّ هؤلاء الناس قرفوني، كل واحد يشتمُ في الثاني ويسبه في كل شيء)، ثم راهنوا على الاشتراكية، فانتهت اشتراكياتهم أسوأ من اشتراكية نيكولاي شاوشيسكو (1918-1989) ثم راهنوا على الثورة، فانقلب الثوار المناضلون أعتَى الطغاة، ثم راهنوا على الديمقراطية فكانت الفوضى الكبيرة التي بسببها صاروا يتباكون على الدكتاتورية، ويظل الهاجس النهضوي يلاحقنا، وشعور بالذنب والنقص بسبب الفروق الحضارية مع الأمم الأخرى، لأننا لم نفهم من النهضة غير تعريفات لغوية، بعيداً عن حقيقتها كصيرورة اجتماعية، تتعلق بوعي الفرد أولاً (كُنْ أنتَ التغيير الذي تريد أنْ تراه في العالم)، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: 11.

فإذا تغير المجتمع وتغير واغتنى وعيه بضرورة النهضة كشرط إنساني للعيش في صورةٍ أفضل، جاءت بعدها التغييرات الاقتصادية والمادية والسياسية، ولكن كيف نفعل إذا كان الإنسان لا يحترمُ الإنسان الآخر، ولا يرى إلا نفسه، بدءاً بالمثقفين، والأثر السلبي لطروحات بعض المثقفين في إحداث انقلاب ضد النهضة، فلا تجد طبيباً يحترم طبيباً مثله

في غيابهِ، ويغضب إذا علمَ أنَّ مريضةً قد راجعَ طبيباً آخر (ما كلُّ هذه الأدوية؟ مَنْ كتبها؟) ويتهم زميله بالجهل، وأنَّهُ لا يعرف من مهنة الطب إلا وسيلةً للإثراء السريع وبناء العمارات، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾. التفكير سبب النجاة، واللاتفكير يدفع إلى الاستلاب الفكري الذي يعانيه بعض مثقفي الشعب الكردي، المأخوذين بغرورٍ أجوف، نتجَ منه كثير من المقالات والمحاضرات التي تبدأ بسؤال خطير رغم تسطُّحهِ: هل لدينا أدب كردي؟ هل لدينا نقد كردي؟ هل لدينا ثقافة كردية؟ هل لدينا صحافة كردية هل لدينا، هل لدينا؟ ...الخ. خطورة السؤال تأتي من أنَّ الاستهلال الاستفهامي يُضمِرُ النفي، ويبدأ السائل غالباً قبل سؤاله السطحي بمقدمة فلسفية: مقولة لهيغل أو سارتر، لكن ما الفائدة من إعادة تكرار مقولة فلسفية مقتطعة من سياقها النصي والتاريخي، خصوصاً أنَّ بعض المقولات ظلت غامضة منذ ولادتها؟ في إحدى المحاضرات لروائي من بغداد يتحدث عن تجربته الروائية، سأله سائل (هل سمعت بمقولة هيغل ... وما هو رأيك بهذه المقولة؟) التي لم تكن لها أدنى علاقة بالفن الروائي أو علم السرد، وبالتأكيد لم يكن المحاضر قد سمع بها، وغير معنيٍّ بالإجابة، لأنَّهُ لم يجلس على المنصة ليجتازَ امتحاناً!! المقولات الفلسفية يرددها البعض كأداة استعراض ثقافي، ، مقولات منقولة مجرد حشو لغوي كزبدٍ على سطح البحر بعد العاصفة، بينما لو تمَّ استيعابها وهضمها لتحولت إلى أداة فكرية ذاتية، تعمل في سياق تاريخي مختلف منفصل عن سياق المقولة التي تولدت منه، فالأسد مجموعة خِراف مهضومة.

خوفاً من ازدياد الاستلاب الحضاري أو انتشار مشاعر النقص الحضاري لدى فئات من الشعب الإنكليزي وهو يعاين استغلال الشعوب المُستعمرة، وتدمير حضارات إنسانية يعود عمرها إلى آلاف السنين، كتبَ تشارلز ديكنز في متن روايته (الآمال الكبيرة) التي صدرت عام 1861، رأيهُ بقرار إداري سياسي صدر في تلك الحقبة، (لقد أصدرنا نحن

الإنكليز " فرماناً" أعلنا فيه: أنَّهُ من الخيانة أنْ نقول إنَّ هناك مَنْ هم أحسنُ منا، لولا ذلك لقلتُ إنني رأيتُ لندن مدينة بشعة ضيقة وسخة)[3].
لكن الاستلاب الحضاري مشكلة اجتماعية فكرية، ليس بمقدور قرارٍ إداري حلها، لأنَّها تتطلب حلاً اجتماعياً فكرياً يخترق العقل الجمعي ويحفزه لاستنباط وسائل التفكير والتعبير الذاتية المستقلة الكفيلة بعلمنة المجتمع الذي يتعامل مع العلم كاستثمار اجتماعي، كالثورة الصناعية البريطانية بدأت من الريف، طواحين الهواء، قنوات الماء، يقول برونفسكي (ثمة شيئان بارزان في إبداع نظام القنوات الإنكليزي وهما يميزان كل الثورة الصناعية. أولهما أنَّ الرجال الذين صنعوا الثورة كانوا رجالاً عمليين لم يدرسوا عادةً إلا القليل مثل بريندلي، والحق أنَّ التعليم بالمدارس كما كان عندئذٍ لم يكن له إلا أنْ يُعتم الذهن اللامع... أما الملمح البارز الآخر فهو أنَّ الابتكارات الجديدة كانت للاستعمال اليومي، كانت القنوات شرايين للاتصال، ولم تنشأ لتحمل قوارب المتعة، ولم تكن هذه المراكب تُصنع لتنقل السلع الترفيهية، وإنما لتنقل القدور والأوعية والأقمشة.. كانت كل هذه الأشياء مُصنَّعة في قرى)[4].
بينما قرانا قد صارت مدناً للأشباح، وهجر الفلاح بساتينه، لأنَّ منتجاته غير قادرة على منافسة أسعار المستورد، وأحدثت الهجرة ووسائل الاتصال الحديثة، تداخلاً حضارياً شكلياً بين المجتمع الأوروبي والكردي، لكن المجتمع لا يحتاج أكاديمياً أو فيلسوفاً معتزلاً في صومعته، أو روائياً أو شاعراً، أو أديباً يستورد أفكاراً يستهلكونها، ولهذا يشترط ابن خلدون في الحاكم (ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال)[5]، ولأنَّ أحمد خاني كان من عامَّة الشعب، خاف من

(3) تشارلز ديكنز، الآمال الكبيرة، دار القلم، ط3، 1975، بيروت، ص66.
(4) جاكوب برونفسكي، التطور الحضاري للإنسان، ترجمة د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، القاهرة، ص157.

العيون والجواسيس، فكر وابتدعَ قصة العشق الملحمية كغطاء لأفكاره السياسية، وهو تقليد قديم بحسب أفلاطون الذي أورده على لسان بروتاجوراس زعيم السوفسطائيين صاحب العبارة الشهيرة (إن الإنسان معيار الأشياء جميعاً) والذي يقول عن هذه المراوغة الأدبية: (إني أعتبر أنَّ الفن السوفسطائي فنٌّ قديم، ولكن القدماء الذين اشتغلوا به، خشيةً منهم لِما يصاحبه من مخاطر، غطوه بغطاء تخفوا تحته، بعضهم تحت ستار الشعر، كهوميروس وهزيود وسيمونيديس، وبعضهم الآخر تحت ستار الأسرار الدينية والنبوءات مثل أورفيوس وموسيوس وأتباعهما... أما أجاثوكليس فإنَّهُ اتخذ الموسيقى غطاءً له، وهو سوفسطائي كبير... وغيرهم وغيرهم، هؤلاء جميعاً كما كنتُ أقول، اصطنعوا من هذه الفنون ستاراً لهم خشية الحسد والغيرة)[6]، بروتاجوراس هذا هو الذي يقول عنه سقراط (هو أعلم وأحكم أهل هذا العصر بلا منازع)[7]، وهو الذي حين لم يلتزم بنصائحه في هذا الصدد، وقع في فخ الحساد والمغرضين فقتلوه بسمِّ القانون.

في السابق كان عدم الاستقرار وكثرة الحروب والأزمات، سبباً لعدم وضوح هدف العقل الكردي السائد من التفكير في الكل، مقابل تمركز أهداف التفكير في الأنا، أيْ أسبقية أسئلة المصير الفردي على أسئلة المصير الجمعي، وهذا الاستقرار النسبي الذي يشهده إقليم كردستان مقارنةً بحقب زمنية سالفة دفعَ العقل الكردي السائد إلى أنْ يسير ببطءٍ شديد نحو أهداف العقل الجمعي كي يتطابق معه، أو على الأقل كي يصير جزءاً من مسيرته التأملية في حركية الوعي الجمعي.

---

(5) مقدمة ابن خلدون، فصل 26 في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه، ص263.

(6) أفلاطون، في السفسطائيين والتربية: محاورة بروتاجوراس، ترجمة د. عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر، 2001، القاهرة، ص78، 79.

(7) أفلاطون، في السفسطائيين والتربية: محاورة بروتاجوراس، ص63.

تحت ظِلّ تبعية شبه شاملة، ظَلَّ الكرد جزءاً من المعادلة الإستراتيجية للدول الغازية أو الاستعمارية التي حكمت الشرق الأوسط، ومن بعدها الحكومات الوطنية، أو الأحزاب المتنافسة على السلطة، وبسبب اختلاف لغتهم وتقاليدهم، كانوا ضحيةً لسوء الفهم، ولم يكن لهم مخططات واضحة تُعنى بتوفير حياةٍ أفضل لهم، مخططات يجب أنْ تطرح اليوم للنقاش، بما يتلاءم مع روح القرن الواحد والعشرين، فلا تكاد تجد صورة مستقبلية معزّزة بالإحصائيات والأرقام لكردستان العراق 2030، دونما إهمال للإرث الثقافي، والاستلاب الحضاري والاقتصادي، وحركة التحول الاجتماعي وتأثرها بالتبعية بمعنى درجة الاعتماد على الغير، الذي يبحث عن مصلحته قبل كلّ شيء. قبل الحرب العالمية الأولى، اهتمت استخبارات الدول العظمى كبريطانيا والولايات المتحدة بمنطقة كردستان، وقامت بإرسال بعثات، وتكليف ضباط كتابة بحوث ميدانية للمنطقة، وبتكليف خاص من القيادة العامة للجيش الروسي وضعَ النقيب أفيريانوف بحثاً في خمسمائة صفحة تقريباً عنوانه (الكرد في حروب روسيا مع تركيا وإيران خلال القرن التاسع: الوضع المعاصر لكرد تركيا وإيران وروسيا) وطبع في تبليس عاصمة جورجيا عام 1900، وافتتحَ كتابه (اضطرت روسيا إلى أنْ تخوض خلال القرن التاسع عشر: حربين مع إيران وأربع حروب مع تركيا، واشترك الكرد دوماً كأعداء وفيما بعد كحلفاء، ما من مجال للشك في أنَّهُ خلال حروبنا المقبلة في آسيا الصغرى نضطر للاحتكاك مِراراً بهذا الشعب الكبير التواق إلى الحرية الذي لا يعترف حالياً بتقاليد الاستقرار المدني)[8]، روسيا القيصرية التي وصلَ جنودها إلى مشارف عقرة، ولولا

---

(8) د. كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد الملا عبدالكريم، من مطبوعات المجمع الكردي، 1977، بغداد، ص49.

الثورة البلشفية فإنَّ اتفاقية سايكس-بيكو منحت جزءاً من كردستان للنفوذ الروسي، لم ينحصر اهتمامها بدوافع عسكرية فقط، فقد كان هناك دافع اقتصادي، حيث تخوفت من خط سكك الحديد بغداد-برلين، وتطور الزراعة في بلاد ما بين النهرين إلى درجة تتحول معها إلى (منافسة خطرة لتجارة الحبوب الروسية في السوق الأوروبية)[9]. هل كان الشعب الكردي في القرن التاسع عشر واعياً بالخطط الإستراتيجية للدول العظمى التي كان إحدى مفرداتها؟ وبعد قرنين من الزمان: هل الشعب الكردي واعٍ بالخطط الإستراتيجية لأمريكا ودول الغرب باعتباره إحدى مفرداتها؟ حين لا يخطِّط (الإنسان/الشعب) لنفسهِ، يصيرُ جزءاً من مخططات الآخرين، لأنَّ (الإنسان فرداً ومجتمعاً هو الذي يصنع تاريخه.. وبالتالي يستحيل الفصل في الفكر الاجتماعي بين ممارسة مبادئ المنهج العلمي ـ أي الاعتراف بالواقع واحترام ما يقتضي من تساؤلات ـ من جانب وبين سمات الأيديولوجيا . بمعنى الخيار بين أوجه للنظر تضفي مشروعية للموقف المحافظ اجتماعياً وبين أوجه للنظر تدفع إلى الأمام حركة التطور)[10]. لكن ليس بمقدور حركة التطور تجاهل الإرث الثقافي، وإلا جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد أثبتت ثورتا الخميني وأتاتورك، خطورة تجاهل الإرث الثقافي في محاولتي شاه إيران وعبدالحميد الثاني استعجال تحديث المجتمع، كما أثبتت ثورتا اليابان وألمانيا دور الإرث الثقافي في تحديث المجتمع بعد هزيمتهما في الحرب العالمية الثانية، فالشعب الياباني يمتلك إرثاً عريقاً في حب تعلم الانضباط والتواضع والمبالغة في احترام المعلم وروابط الأسرة والعمل والوظيفة، ساعدهم على التحول من مجتمع عسكري إلى صناعي، فالعامل الياباني حين

---

(9) المصدر السابق، ص52.

(10) د. سمير أمين، مناخ العصر، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 1999، بيروت، ص10.

يُضرِبُ عن العمل، لا يتوقف عن عملية الإنتاج، بل يكتفي بربط قطعة قماش إلى عضدهِ تشير إلى أنَّهُ مُضرِب عن العمل، بينما الإضراب في الشرق غالباً ما يتطور إلى أعمال عنف، فالمجتمعات تختلف في فهمها لمقاييس الولاء وحب الوطن، وتقديس العمل، والتكافل الاجتماعي، ففي المجتمعات التي تعاني أنظمة دكتاتورية تكون هذه المقاييس زائفة ويتفشّى التسيب والجمود وغياب التأمل والتفكير والإبداع، فالشعب الألماني معروف بدقته وجديته وصرامته، وحب العلم والمعرفة وقد ابتدع أخيراً المجلس البلدي لمدينة فرانكفورت فكرة "المكتبة المفتوحة"، بنصب خزانة كتب كبيرة على رصيف أحد الشوارع، بإمكان أيٍّ من المارة أنْ يفتحَ بابها ويتناول كتاباً، يستعيره، ثمَّ يعيدهُ بعد قراءته، ويحقُّ لأيٍّ من المارة أنْ يتبرَّع بكتابٍ لهذه المكتبة، حيث لا بيع ولا شراء بل استعارة وتبرع فقط، المهم تشجيع فعل القراءة، بينما لدينا مع غياب تام لشركة توزيع الكتب والمجلات، بعض المكتبات العامة تضعُ قيوداً جديدة على عملية الاستعارة، وأغلبها يرفض خروج الكتاب من المكتبة، لانعدام الثقة بإعادة الكتاب المُستعار، كما أنَّ مؤسسة ثقافة أكاديمية تمنع إعارة الكتب ما دام مدير المؤسسة غير موجود، سواء كان داخل القطر أم خارجه، هذا النظام البيروقراطي سببه عدم الاستقرار السياسي، وفساد حكومي يخلق مشاعر اللامبالاة في المجتمع الكردي، والفساد السياسي والحكومي بسبب تمركز السلطة بيد فئات ربما تجد نفسها فوق القانون، ينعكس سلباً في جذور السلوك الاجتماعي وينمّي الروح التخريبية، رغمَ أنَّ مراحل التطور الاقتصادي وتطور البلدان كافة، لا بدَّ من مرورها بهذه المرحلة الأولية، بحسب (كتاب "مراحل النمو الاقتصادي/ 1959" للاقتصادي الأمريكي والت روستو، بأنَّ عملية التنمية تتضمن عدداً من المراحل المتتابعة،... وهي المراحل نفسها التي مرّت بها الدول المتقدمة في رحلتها من الركود إلى التقدم.. الزيادات التي تتحقق في الإنتاج حتى وإنْ بدأت في قطاعات محدودة، وحتى إذا

انحصرت منافعها أول الأمر في نسبة قليلة من السكان، فإنَّها لا تلبث أنْ تأخذ في الانتشار بعد فترة إلى عدد أكبر من القطاعات وعدد أكبر من الناس، ومن ثم تأخذ مشكلات الفقر والبطالة وسوء توزيع الدخل طريقها إلى الحل بعد تحقيق النمو الاقتصادي)[11]. وقسم روستو مراحل النمو إلى خمس مراحل (المرحلة التقليدية، مرحلة شروط الإقلاع، مرحلة الإقلاع، مرحلة النضج، مرحلة الاستهلاك الجماهيري)، وذكر الجمود الاقتصادي كأهم الخصائص الاقتصادية لمرحلة التقليدية، ومن الخصائص الاجتماعية: التفاوت الاجتماعي، غياب فرص العمل وعدم الاهتمام بالتعليم، ومن الخصائص السياسية: سيطرة النظام العشائري والقبائلي، وخصائص مرحلة شروط الإقلاع ظهور القوى السياسية والأحزاب، وارتفاع الفروق الاجتماعية، ظهور فرص عمل، بدء الاهتمام بالتعليم، ومن خصائص المرحلة الثالثة: مرحلة الإقلاع، تراجع الفروق الاجتماعية، وزيادة فرص العمل، وزيادة مستوى الاهتمام بالتعليم العلمي والمهني، توافر مناخ سياسي ملائم للتطور الاجتماعي وتحقيق النمو الاقتصادي.

في الغرب تستمر الانقسامات وتتعزز الوحدة في الوقت نفسه، وفي الشرق، محاولات شكلية للوحدة تعزِّز وتُعمِّق الانقسام، لأنَّ الاستقلال والوحدة وجهان لعملة واحدة، فشل المشروع الوحدوي العربي مرتين وأكثر، رغم وحدة اللغة والدين والتاريخ، وغير ذلك، ونجح الاتحاد الأوروبي رغم الاختلافات الكثيرة، من تحقيق العلاقة بين ثالوث الدراسات الإنسانية: الحق، الخير، الجمال.

في عام 1974 جرى استفتاء شعبي لمنح ستة أقاليم في شمال غرب سويسرا، ناطقة بالفرنسية حق الانفصال عن كانتون بيرن الناطق

(11) د. إبراهيم العيسوي، التنمية في عالم متغير، دار الشروق، ط2، 2001، القاهرة، ص14.

بالألمانية في كانتون خاص باسم جورا، رغم فقر جورا التي تعتمد تربية الماشية والخيول وَثراء بيرن، وتحقق الانفصال عام 1979 ويحتفل كانتون جورا باستقلاله في 23 حزيران من كل عام، دون مس بسيادة سويسرا، أو تأثير سلبي في اقتصادها لكن هل بالإمكان مقارنة العراق بسويسرا التي تشكلت كدولة عام 1291، واستقلت عن الإمبراطورية الرومانية عام 1499 وفي عام 1848 أعلنت سويسرا دولة اتحادية بإصدار دستورها الذي يعد من أقدم دساتير العالم، وفي عام 1999 اعتمدت دستوراً جديداً لم يختلف كثيراً في الهيكل الاتحادي.

المجتمع الكردي البطرياركي

تبدأ رواية " التنين " باغتراب البطل وإذعانه (كان كريم يتصوَّر نفسه فرخ نسر جبلي، ولكنه كما يقول: لم أتعلَّم التحليق بعد، سقطتُ من العش، وعليَّ أنْ أصبحَ موضع لهو ومرح الغربان والأوز والدجاج، كل واحد من هؤلاء سيحفر بمنقارهِ وَشْمَاً على جسدي فيما عليَّ السكوت والرضوخ)[12].

المهمشون يرون أنفسهم صقوراً، ويندبون الحظ، بيأس وإحباط يولِّد الكسل، يواصلون حياتهم.

يُصارع الفرد الكردي من أجل هويته على جبهتين: داخلية في صراع مع الذات ومع قواعد مجتمعه البطرياركي الصارمة، وخارجية بما تمليه هويته بوصفهِ: الآخر المختلف. في الداخل يخسر نفسه، وفي الخارج يخسر هويته أمام محاولات الآخر المختلف لتذويب هويته في هوية خارجية (أوروبية/ عربية/ فارسية/ تركية) لم تتشكل حدودها بعد،

---

(12) محمد موكري، التنين، ترجمة نبز صالح، مديرية الترجمة، وزارة الثقافة، 2005، السليمانية، ص6.

بصورة واضحة على الأقل، فالذات الكردية مأزومة داخل ذاتها، ومهزومة أمام الآخرين.

الاغتراب ظاهرة إنسانية، وجدت بوجوده، عنترة بن شدَّاد، لما اتهمته زوجة أبيهِ سُمَيَّة بأنَّهُ راودها عن نفسها، عادت فأشفقت عليه وهو مشرفٌ على الموت بيد أبيه شدَّاد، رمت بنفسها فوقه وهي تبكي، فقال عنترة يصفُ آلامه وشعوره بضياع هويته الإنسانية:

أَمِـنْ سُـمَـيَّـةَ دَمْـعُ الـعـيـنِ مَـذْروفُ
لـو أنّ ذا مـنـكِ قـبـل الـيـومَ مـعـروفُ
الـعـبـدُ عـبـدُكُـم والـمـالُ مـالُـكُـمُ
فـهـل عـذابُـكِ عـنِّـي الـيـوم مـصـروفُ

والأمير أبو فراس الحمداني يشكو:

وَهَـلْ أَنَـا مَـسْـرُورٌ بِـقُـرْبِ أَقَـارِبـي
إذا كـانَ لـي مـنـهـمْ قـلـوبُ الأبـاعـدِ؟

وطرفة:

وظُـلْـمُ ذَوي الـقُـرْبَـى أَشَـدُّ مَـضَـاضَـةً
عـلـى الـمَـرْءِ مِـنْ وَقْـعِ الـحُـسَـامِ الـمُـهَـنْـدِ

وسارتر يقول: عذاب الأنا في الآخر، عذاب وهمي حقيقي نوَّه به في خاتمة مسرحيته (ليس هناك حاجة إلى محركات النار المشتعلة، الجحيم هو الآخرون)[13]، ليس العبد وليس المراهق فقط ينظر إلى بيئته الاجتماعية باعتبارها شيئاً غريباً، لكن (مَنْ يُحقِّق الوحدة بصورة كاملة مع نظام المجتمع هو مَنْ يصِفهُ هيغل بأنَّهُ مغترب، واغترابه هو اغترابه عن ذاته.. فحينما يتبنى المرء بصورة كلية نمط الشخصية الذي تطرحه

---

(13) جان بول سارتر، جلسة سرية، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد، دار النشر المصرية، 1957، القاهرة، ص 100.

عليه النماذج الثقافية، فإنَّهُ يكفُّ عن أنْ يكون ذاته)[14]. فماذا يكسب المرء إذا ربح العالم كله، وخسر نفسه؟ عقدة أوديب وعشرات العقد النفسية، لا تنشأ إلا في مجتمع بطرياركي مُتشدِّد.

كتبَ تولستوي عن الحرية والمساواة في روايته الأخيرة " البعث"، وغوغول في " النفوس الميتة" وأسمياها مَهمَّة إنقاذ روسيا، بينما كان المجتمع الغربي يفرض على الفرد سلوكاً محدداً، وتقاليد وأعرافاً أقرب إلى الاستعباد، كانت الفلسفة الألمانية منشغلة في التنظير للحرية، فجأةً حققتها الثورة الفرنسية على الأرض، ولأول مرة تحرر الفرد من النظام الأبوي القاهر الذي كان يُسيِّرهُ، صار سيداً لحياته، لكنَّه ظلَّ يفتقر إلى النضج المطلوب لتحمل أعباء مسؤولية لم يعهدها، هذا الافتقار نوَّهَ به تولستوي في "البعث"، لَمَّا اعتقدَ أنَّ من الظلم استملاك أراضي الفلاحين وبيوتهم، فتنازل على لسان بطله عن ميراث أبيه (للمزارعين مدفوعاً بنظرية سبنسر وهنري جورج التي كان يعتنقها حين كان طالباً)[15]، أراد التنازل عن ملكية أراضيه لمصلحة الفلاحين، لقاء بدل إيجار رمزي يوضع في صندوق لمصلحة الفلاحين، الذين رفضوا، لأنَّهُ (كان فوق مقدورهم أنْ يتصوروا أنَّ رجلاً يبلغ من الطيبة والإنسانية درجة تجريد نفسه من سائر ما يملك لمصلحة الغير بمثل هذه السهولة دون أن يكون في الزوايا خفايا)[16]، هذا النضج المفقود تسبَّبَ بمجازر وأعمال إرهابية ارتكبها قادة الثورة الفرنسية، لكنها كانت أخطاء الثوريين لا الثورة، بالمقابل (كان النمو الاقتصادي في ألمانيا متخلِّفاً إلى حد

---

(14) ريتشارد شاخت، الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، بيروت، ص187.

(15) تولستوي، البعث، ت: علي محمد جابر، دار الأندلس، ط1، 1973، بيروت، ص217.

(16) تولستوي، البعث، ت: علي محمد جابر، دار الأندلس، ص241.

بعيد عنه في فرنسا وإنكلترا، نظراً لأنَّ الطبقة المتوسطة كانت ضعيفة مشتتة.. وكان الفرد في وجودهِ الاجتماعي إمَّا مُسْتَعْبَداً أو مُسْتَعْبِدَاً غيره من الناس، ومع ذلك فقد كان في وسعهِ بوصفهِ كائناً مُفكّراً أنْ يفهمَ على الأقل التضاد بين الواقع البائس الموجود في كل مكان، وبين الإمكانات البشرية التي أطلقها العصر الجديد من عِقالها)[17].

في السابق كان المجتمع الكردستاني يعيش داخل إطارٍ ضيق في منظومة دَوَال ودُوَل العداء المزمن مع ثلاث قوميات (عربية، فارسية، تركية) فالكردي لم يتعلَّم اللغة العربية، ويسأل نفسه عن السبب: (كيف أتعلم.. أنا خبرتُ العرب في حالتين: إمَّا أهرب من أمامهِ خوفاً أو أهاجمهُ، ففي الأولى لا أسمعُ صوته، وفي الثانية كان جثة هامدة باردة، فكيف إذن أتعلم العربية)[18]. صار المجتمعان الكردي والعربي، ضحيتين لمشاعر أنتجتها سلوكيات الأجهزة القمعية، الكردي يرى العربي تنيناً، والعربي يراه كذلك، تأثَّر المجتمع الكردي بمحيطه الخارجي، وسلوكيات السلطة القمعية، ومن أخطر هذه التأثيرات السلبية: المُكابرة في إنكار العيوب والنواقص التي لم يخلُ منها نظام أو إنسان أبد الدهر.

اليوم المجتمع الكردي يعيشُ أزمةً كبيرة، غير مُفَكَّر فيها، ورغم ذلك لا يبدو خائفاً، رغمَ أنَّ الاستقرار الذي يعيشه بعد 2003 يبدو هَشَّاً بعض الشيء، والرفاه يبدو انتقائياً، ومحفوفاً بالمخاطر؛ الحياة في كردستان العراق تبدو للجميع أفضل من أيِّ وقتٍ سابق، لم يعد الشعب

---

(17) هربرت ماركيوز، العقل والثورة، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1979، بيروت، ص29.

(18) رواية التنين ص 276 باللغة الكردية. عزالدين مصطفى رسول، موكري ورواية التنين، ترجمة أبو ريزان، دراسات بيفين، مهرجان كلاويز 2008، ص18. هذا النص المقتبس لم أجِدْ له وجوداً في النص العربي، يبدو لي أن المترجم نيز صالح قد حذفه استناداً إلى رأيه الشخصي.

الكردي يهتم أو يفكّر في حاجته إلى هوية، كما كان من قبل، فقد صاروا يعرفون أنفسهم، يعرفون من هم وإلى أيّة جهة ينتمون، ويعرفون الآخر، صارت الحياة أكثر أمناً وازدادت الاستثمارات الأجنبية، كما يوجد في أربيل نشاط دبلوماسي رسمي وبموافقة بغداد، ازدهر العمران وأعمال البناء، لم يعد هناك سلاح كيمياوي يهددهم، أو جيش على الحدود يتربّص لاقتحام مدنهم، لكن الحياة اليومية بتفاصيلها الصغيرة لم تعد أكثر أمناً بالنسبة إلى الفرد الكردي، الذي ما زال عليه لكي يعيش أنْ يعرف مَنْ هو وإلى أيّة جهة ينتمي، لكي يحصل على وظيفة أو مكانة اجتماعية، أو شيء من هذا القبيل، بحاجة إلى هوية فرعية، إلى أبٍ راعٍ يدافع عنه إذا ارتكبَ مخالفة مرورية أو جريمة مُخِلّة بالشرف، هذه الهوية الفرعية خلية سرطانية تنخر جسد الهوية الكردية الرئيسة، هذه الخلية القديمة التي نسيت كيف تموت، والشباب خصوصاً يعانون آلاماً كبيرة في مجتمع بطرياركي متشدِّد، في البيت لا يُسْمَح للشاب بالكلام، ووالده أو شقيقه الأكبر لا يستشيره، وفي الوظيفة المدير لا يريد من يناقشه، ويتعامل مع الشباب باستهزاء جارح غالباً (ماذا رأيت؟ أنت ولدت في أحضان الثورة؟ لم ترَ شيئاً من معاناتنا في الجبال!!). لم يقل أحدٌ لنفسِهِ ما قاله بطل رواية التنين (ستكون منذ هذه اللحظة حروبنا مع أنفسنا) (يُربّي كلٌّ منا في أعماقهِ تنيناً كبيراً، ذلك التنين القابع في الأعماق يقطع الطريق على نبع العواطف والمروءة والكرامة والتضحية وإنكار الذات، على كلٍّ منا أنْ يبحثَ عن السيفين ويقتل التنين في أعماقهِ هو)[19]. وما زالت بعض القِوى تبحث عن كبش فِداء تتجه نحو الآخر المختلف لكي تبرر فشلها، أو تتخذ من محاولة هدم ما بناه

(19) محمد موكري، التنين، ترجمة نيز صالح، مديرية الترجمة، وزارة الثقافة، 2005، السليمانية، ص288. ص284 على التوالي.

الآخر المختلف مشروعاً انتخابياً، لكسب أصوات الطبقات المسحوقة التي لم تستطع مواكبة حركة التسارع التجاري المالي وارتفاع أسعار العقارات والإيجارات، ولأنَّ ذاكرة الشعوب ضعيفة، لا أحد يذكر أنَّ هؤلاء حين كانوا في السلطة، وعلى رأس الهرم، لم يهتموا سوى بمصالحهم الشخصية، وكذلك سيفعلون فيما لو استطاعوا العودة إلى مواقعهم، رغم مشاريعهم الطموحة جداً حد المثالية المفرطة.

عاينَ فرويد مشاعر استياء الفرد من مظاهر الحضارة الغربية، ووصفها بأنَّها حضارة قمعية (الناس تستخدم معايير زائفة، وأحسبُ أنَّهم جميعاً يسعون إلى السلطة والنجاح والثراء، وأنَّ كل واحد يحاول أنْ يمتلكها، ويُعجبُ بكلٍّ من استطاع تحصيلها)[20]، ولأنَّ الحكومة لا تمنح المسؤوليات والمناصب بحسب الكفاءة، والنزاهة، بل بحسب الإخلاص والتاريخ النضالي، قام الكثيرون بتزييف تاريخ نضالي، أو التظاهر بالإخلاص للحزب والثورة، ولجأوا إلى طرقٍ كان أخطرها اضطهاد الآخرين، ولكن البيشمركة الذي عاين الموت مرات ومرات، والجوع والفقر والتشرد، يستحيل أنْ يصيرَ متكبِّراً متعجرفاً، أو يستمتع بتعذيب الآخرين، ولو بزيادة ساعات انتظارهم، هذه سلوكيات المناضلين الجدد من ذوي التاريخ المزيَّف.

رئيس التحرير يتحدث قائلاً: (جريدتي)، وهو مؤمن بأنَّ الجريدة لن تستمر يوماً واحداً بدونه، وكذلك المدير يتحدَّث عن مؤسَّسته (دائرتي)، يتحدث الموظفون عن المدير، وخصوصاً أمامهُ، فيصفونه بصفات إلهية يصدِّقها، وحين يحاول أحدهم توجيه نقد فعال، بنَّاء، يبدأ النظام البطرياركي بالاشتغال كالأفعى هيدرا، ويلتفت إليه الجميع بغضب ويتهمونه بالجحود، والخيانة ربما، هذا النمط المسيطر على حياتنا

(20) سيغموند فرويد، الحب والحرب والحضارة والموت، ترجمة عبدالمنعم الحفني، دار الرشاد، 1992، القاهرة، ص41.

اليومية دون أنْ نعيَ مخاطره المستقبلية، هو أحد موانع بناء مؤسسات الدولة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إنَّ المجتمع البطرياركي لا يتمتَّع إلا بحرية صورية، تنعكسُ سلباً في جميع مفردات الحياة اليومية، وعلى هذا النحو نعثر في النظام البطرياركي على سمات مشتركة بين (الأب/ المدير/ المسؤول/ الشقيق الأكبر/ الآغا/ السيد/ النبيل/ الأكاديمي) وبين (الابن/ الموظف/ المواطن/ الشاب/ الموظف/ الفلاح) كحب التقليد والمضاهاة والتعلق بالروتين والتقاليد والأعراف والخضوع التام للسلطة دون نقاش، مما يُورِّث الركود الفكري والكراهية المكبوتة.

ربما يكون الفشل، مصير مهمة شاقة كإجراء حفريات في الهوية الكردية، بحثاً عن الجذور البطرياركية، فهي مهمة شاقة، في ظل غياب المصدر التاريخي الذي يؤمِّن تأريخ الأفكار والخطاب الكردي، لكنني تظاهرت بغرور سطحي أنني أخوض تجربة جديدة في البحث، لا مثيل لها في السابق، فلم آخذ مادة جاهزة ومهيأة للتحليل، بل ذهبتُ أبحثُ عن جوانب مغمورة، غير مُفكَّر فيها، هوامش تبدو غير مهمة، وقارنتها بحالات مماثلة طرأت على ذهني لحظة الكتابة، هذه الحالات التي اتهمني البعض بسببها بالخروج الحاد عن الموضوع الرئيس، لأنَّهم لم يدركوا أنَّ لكلِّ شيء علاقة بكلِّ شيء، ولولا هذا لَمَا اكتشف نيوتن بسبب حادثة قد تبدو سخيفة وتكررت آلاف المرات، أخطر قانون علمي ساهم في تغيير التاريخ البشري، كما أنَّهم ربما ألفوا البحوث التقليدية التي تجيد تعداد المصادر والأخذ منها، وكأنَّ كل كتاب جديد ليس إلا مقتطفات من كتب أخرى، ودليلنا على هذا، أنَّنا ما زلنا نعيد ونكرِّرُ أفكاراً تمَّ استهلاكها وتفنيدها في أماكن أخرى من العالم، نحن نعاني فاقة فكرية، وخجلاً وتردداً أمام كل فكرة جديدة، نعاني أزمةً في البحث الإنساني، قد تسبِّبُ تحجراً ذهنياً على المدى الطويل، كيف ألتزم بوحدة الموضوع وأنا أعتمد منهجاً متقلِّباً؟ يرفض أنْ تكون له أيَّة حدود،

خصوصاً وهو يهتمُّ بكل ما هو هامشي وغير رئيس، وغير مهم، ومن شأنه أنْ يتمرد على التقليديين الذين ملأوا الدنيا ضجيجاً بحجة المحافظة على التراث، بسردهم التقليدي للأحداث والشخصيات التاريخية التي قرؤوها في متون الكتب.

الشَّتات مصدره فعل الغرب الاستعماري، اتفاقية سايكس-بيكو، وكذلك حال سكان جزر مولوكا حيث تنظر إليهم الحكومة الإندونيسية على أنَّ ولاءهم إلى هولندا، وكذلك المونتغنارد تنظر إليهم الحكومة الفيتنامية على أنَّهم متعاونون مع الفرنسيين والأمريكيين، كما تنظر الهند إلى الأقلية المسلمة في كشمير على أنَّهم خلايا لتنظيمات إرهابية (وفي هذا السياق تخشى الدولة من أن الأقلية القومية سوف تتعاون مع أقاربها عبر الحدود، سواء كانت دولة قريبة مجاورة أو جماعات قريبة مجاورة) أو قوى إمبريالية سابقة. وفي النهاية يتوصَّل كيمليكا إلى أن الدول الضعيفة والفاشلة هي التي تنظر إلى الأقليات على أنَّهم مجموعة من العملاء المحليين لقوى إقليمية أو دولية أو شبكات عمل قوية جداً، لأنَّ هذه الدول الضعيفة تفتقر إلى منظمات الأمن الإقليمي ومؤسسات الدولة الحديثة وجهاز قضائي مستقل وقوي، أو تكون موجودة وغير فعالة.

يحاول ويل كيمليكا تفنيد رؤية بعض الدول التقليدية إلى الأقليات على أنَّها (طابور خامس محتمل، أو على أنَّها متواطئة مع الجيران الأعداء، كما يُنظر إلى الحكم الذاتي لمثل هذه الدول على أنَّه تهديد للأمن القومي، وكما لاحظت من قبل فإنَّ هذه الدينامية لم تعد تنطبق على الأقليات القومية في الغرب، ويرجع ذلك إلى حماية مظلة الأمن الإقليمي التي ابتكرها حلف شمال الأطلسي "الناتو")[21]. وتزداد هذه

(21) ويل كيمليكا، أوديسا التعددية الثقافية: سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوع، ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، التسلسل 378، تموز 2011، الكويت، ج2، ص110.

الرؤية المريبة حين تكون هذه القومية الأقلية موزعة بين عدة دول (وتظهر مشكلة أخرى عندما توجد قومية معينة في بلدين أو أكثر، تقسمهما الحدود الدولية الحديثة، وربما كانت تحلم بإقامة دولة مشتركة، والحالة الكلاسيكية في الشرق الأوسط، هي مشكلة الأكراد المقسمين بين إيران والعراق وتركيا وسورية، الذين يتوقون إلى إقامة كردستان مستقلة، وهناك موقف مشابه في آسيا يتعلق بالبلوش الموزعين بين إيران وباكستان وأفغانستان، وهناك بالطبع جماعات عرقية عديدة) وهذا الظلم الذي لحقَ بالشعب الكردي، صار ذنباً عليه أنْ يتحمَّل تبعاته، وكما جاء في مذكرات بعض القادة السياسيين آنذاك، فقد رفض الاستعمار منح الشعب الكردي أيَّة حقوق كالحكم الذاتي استناداً إلى قوميتهم، خوفاً من تكرار خطئه الإستراتيجي بمنح اليهود أرضاً لينشئوا عليها دولتهم المسخ، ولكن الشعب الكردي لم يكن ليغتصبَ أرضاً لا تعود له، إنَّما هي أرض جبلية سكنها الشعب الكردي منذ مئات أو آلاف السنين.

لماذا واجهت التعددية الثقافية مقاومةً شديدة في دول ما بعد الاستعمار؟

سؤال حاول البروفيسور الكندي ويل كيمليكا الإجابة عنه بتحديد سببين رئيسين: انعدام ضمانات حقوق الإنسان، وانعدام الأمن القومي، وثلاثة أسباب فرعية: عدم الثقة بالمجتمع الدولي، التراث الاستعماري في تقسيم الجماعات الكبيرة إلى أقليات لسهولة تجنيدها، وخامساً وأخيراً أسباب تتعلق بالديموغرافيا "علم السكان"، وفات كيمليكا سببٌ سادس قد يكون أخطر من الأسباب التي ذكرها، وهو طبيعة المجتمع الشرقي البطرياركي الأبوي ذي المعايير المزدوجة التي راهنَ عليها الدكتور علي الوردي.

(مع بداية انهيار الشيوعية 1989 في وسط وشرق أوروبا، اندلعَ عدد من النزاعات العرقية العنيفة في شرق ووسط أوروبا، وانحصرت بشكل كبير في القوقاز والبلقان، فأعلنت على لسان منظمة الأمن

والتعاون في أوروبا عام 1990: إنَّ حالة الأقليات ومعالجتها تدخلان ضمن الاهتمامات الدولية المشروعة، وبالتالي فإنَّها لا تشكِّل مسألة داخلية حصرياً عند الدولة المعنية[22]. بينما حتى نهاية 1990 كان الغرب ينظر إلى أعمال الإبادة التي تتعرض لها الأقليات وفقاً للنظرية التقليدية لسيادة الدولة، التي قد تضطر إلى استخدام البطش والقوات المسلحة ضد شعبٍ أعزل.

أحد أهم أصحاب هذه النظرية هو ادوارد لوتواك[23]، لكن العالم الغربي اليوم بدأ ينظر إلى الصراع العِرقي، أو الطائفي، باهتمام أكبر، لأنَّهُ قد يتسبَّب بكوارث إنسانية تهدد الاستقرار والسلم العالميين.

---

(22) المصدر السابق، ص13، 14.

(23) ادوارد لوتواك من مواليد 1942 من عائلة يهودية في مدينة عراد الرومانية، كان أستاذاً في جامعة جورج تاون في عام 1975، وفي عام 2008، أصبح المستشار الأول في مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن العاصمة، واستلم بعد ذلك عِدَّة مناصب مهمة، استنتج أنَّ محاولات القوى الكبرى لوقف حروب إقليمية يجعل الواقع أكثر مأساوية ويطيل من أمدِ الصراع، ولديه أفكار مثيرة للجدل وترجمت كتبه إلى العديد من اللغات، منها (قاموس الحرب الحديثة/ لندن1971)، (الإستراتيجية الكبرى للإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي/ بلتيمور 1976)، حاول الإجابة عن سؤال: كيف دافعَ الرومان عن حدودهم؟ واستندَ إلى حقائق الاقتصاد والديموغرافيا وعلم الاجتماع، وأعاد الكرة في كتابه عن الإمبراطورية البيزنطية، (الانقلاب: دليل عملي/لندن 1968)، (منطق الحرب والسلام/ كامبريدج 1987)، (الحلم الأمريكي المهدد بالانقراض/ نيويورك 1993)، (الإستراتيجية الكبرى للإمبراطورية البيزنطية/ كامبريدج2009)، كما للوتواك نشاط ميداني في أعمال المخابرات والأنشطة السرية كتسليم المجرمين، والاعتقالات، والاستجوابات، وهو من مؤيدي التعذيب واستخدام العنف الجدي، ويقدِّم الاستشارات والتدريب العسكري لمكافحة الإرهاب في وكالات مختلفة من الولايات المتحدة والحكومات الأجنبية والشركات الأمنية الخاصة.

تحديات العولمة

لأنَّ العولمة أثارت المخاوف من الإسلام الأصولي والإسلام السياسي، ظهر هناك اتجاه سياسي كردي، يؤمن بأنَّ الطريق الوحيد إلى اللحاق بركب الحضارة: محاربة الإسلام، أو تحجيمه وهذا الموقف هو وارث مواقف كانت تؤمن بأنَّ من شأنِ محاربة الدولة العثمانية، تأمين مصالح الشعب الكردي مع تأييد المملكة المتحدة وحلفائها في الحرب العالمية الأولى، وهذا الموقف وارث حركات أقدم بكثير لم تميز بين أسبقية المعرفة المرتبطة دوماً بالمصالح البشرية، وأنَّ المصلحة هي التي توجِّهُ المعرفة، وفي كشفِ العلاقة بينهما صَرَّحَ المَحْضُ عَنِ الزُّبْدِ، لكن كيف يمكن شرح هذه العلاقة؟ ولقد بوَّب يورغن هابرماس بابه الثالث والأخير من كتابه (المعرفة والمصلحة) بعنوان: "النقد من حيث هو وحدة المعرفة والمصلحة" حيث صار بالإمكان كشف إساءة فهم المصلحة التي توجِّه المعرفة، ودفعها للتحيز، لأننا غالباً ما نهتم بالصراع الخارجي الذي يهدد الهوية، تاركين التهديدات الداخلية التي خطرها أشد، وإنْ كان بطيئاً.

للإسلام دورٌ مركزيٌّ في تحديد الهوية الكردية، فالشعب الكردي يحترم المعتقدات الدينية كثيراً، وكان لعلماء الدين دور في التعليم، ومكانة اجتماعية خاصة، لكن بسبب محاولات الساسة فرض التبعية وسيادة المركز، استمرت المواجهات والحروب مع الأطراف، ومنها الشعب الكردي الذي اضطهد لقرون طويلة باسم الإسلام، في محاولات لمحو هويته، وما لذلك من نتائج سلبية في انتشار الحركات المعادية للإسلام، ومنذ صدر الإسلام كان البعض يتحرج من الموالي، وفي الصِّحاح أنَّ أبا ذر الغفاري شتمَ رجلاً بأمِّه الأعجمية فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)[24]، وطالما وجد

(24) ورد في صحيح مسلم (أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر يستخلفه على مكة فقال له من استخلفت فقال استخلفت

الشعب الكردي نفسه فقيراً يعاني ضغوطاً نفسية جراء الظلم والقهر الاجتماعي وحالة تجزئة وفرقة بين العشائر والقبائل تسمح بالتدخلات الخارجية وسهولة تجنيد المقاتلين المرتزقة مقابل وعود كاذبة أو أموال مدفوعة، ففي أيار وحزيران 1918 (مع وعود بريطانية بمنح الكرد ضمانات بتحسين أوضاعهم الاجتماعية والمعاشية، فضلاً عن بعض الحقوق الأخرى، مما دفعَ الأهالي لاستقبال القوات البريطانية بفرح وحفاوة انتظاراً للحصول على الدعم والمساعدة التي وعدت بها بريطانيا)[25]، وما لذلك من نتائج سلبية في انتشار الجهل والأمية والتخلف والمنازعات، ورغم أنَّ إقليم كردستان كان بعيداً عن جبهات القتال للحرب العالمية الأولى، إلا أنَّ ازدياد الفقر والمجاعات والأمراض والحكم البوليسي للدولة العثمانية والسخرة والمصادرة للمجهود الحربي ساهم في خفض عدد سكان مدينة السليمانية إلى الثلث خلال سنوات الحرب الأربع، وبنسبةٍ أكبر انخفض عدد القرى المجاورة، وفي رواية ثابتة عن زينب والدة جدي حسين، أنَّ عائلة بأكملها ماتت جوعاً في قرية شمال عقرة، هذه الظروف استغلتها بريطانيا، التي كانت في 1/1/ 1918 قد أصدرت صحيفة موسمية باللغة الكردية عنوانها (تي كه شتني راستي/ فهم الحقيقة)[26]، بإشراف الميجر سون وزينت عددها الأول بشعار(صحيفة سياسية اجتماعية تخدم اتحاد

---

* ابن أبري قال ومن ابن أبري قال مولى من موالينا قال فاستخلفت عليهم مولى قال إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض قال أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين.

(25) د. عبدالرحمن إدريس صالح البياتي، سياسة بريطانيا تجاه كرد العراق، منشورات مؤسسة زين، 2009، السليمانية، ص93.

(26) المصدر السابق، ص102. د. كمال مظهر أحمد، تي كه شتني راستي وموقعها في الصحافة الكردية، منشورات المجمع العلمي الكردي، بغداد، 1978، ص262، 279.

الكرد وحريتهم) وصدرَ منها 25 عدداً، لتحلَّ محلها جريدة (بيش كوتن/ التقدم) بإشراف الميجر سون أيضاً، و(توجس الكرد من المخططات الرامية إلى إنشاء وطن قومي للآشوريين يشمل قسماً من مناطقهم)[27]، وهنا قامت استخبارات الدولة العثمانية باستغلال المشاعر الدينية لدى الشعب الكردي.

تأثرت الذاكرة الجمعية للشعوب المتجاورة بهذه الظروف، حتى صار كلٌّ منها يَصِفُ الآخر المختلف بكلِّ نقيصة، ولمَّا كانت السلطة بيد الآخر غالباً، فقد سيقت النكت والطرائف والحكايات الكثيرة للانتقاص من الشعب الكردي، حتى أنَّ البعض نسبوهم إلى الجن وحرموا التزاوج معهم، وحين أراد أبو دلامة هجاء أبي مسلم الخراساني نَسَبَهُ إلى الكرد:

أبـا مـجـرم مـا غـيَّـرَ الـلـه نـعـمـةً
عـلـى عـبـده حـتـى يـغـيـرهـا الـعـبـد
أفـي دولـة الـمـهـدي حـاولـت غـدرةً
ألا إنَّ أهـل الـغـدر آبـاؤك الـكـرد

ولم يقل أحدٌ قبل هذا الشعر ولا بعده بنسبِ أبي مسلم الكردي، كما أنَّ التاريخ يثبت أنْ أبا مسلم دخل قصر المنصور أعزل، بعدما استأمنه، فخفرَ المنصور عهدَه، والدين الإسلامي يُحَرِّم الغدر مع الغادرين، والخونة، فكيف مع المستأمنين؟[28]، وذكر ابن كثير (ثم

---

(27) سياسة بريطانية تجاه كرد العراق، المصدر السابق، ص137.

(28) يقول تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) الأنفال: 58. وقد وعدَ الله في آيات كثيرة بأنَّ الدائرة ستكون على الناكث الخائن، فقد جاء أبو مسلم بعدما استأمن من المنصور حياته، وفي هذا يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الأنفال: 27، وخصال المنافق في صحيح البخاري (إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) وفي البخاري

دخلت سنة أربع وثمانين.. وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية فقتل منهم خلقاً وصرف كنائسهم وضياعهم وتسمى سنة الحريق وفيها استعمل الحجاج على فارس محمد ابن القاسم الثقفي وأمره بقتل الأكراد)[29]. ولو كان غير الحجاج بن يوسف الثقفي، لقلنا إنَّ المقصود قتال الكرد وليس قتلهم، ونتوقف عند أمر القتل هل كان على العموم لنسائهم وأطفالهم وشيوخهم، أم لرجالهم فقط؟ وفي خلافة أبي جعفر المنصور (فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد فيها فأشار المنصور إلى الأمراء من يصلح للموصل فأشار بعضهم بخالد بن برمك)[30]، وذكر ابن الأثير (كان أول راية عقدها المختار لعبد الله بن الحارث أخي الأشتر على أرمينية... وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطرق)[31]، ومن أحداث 226

= (انَّ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ) وكان المنصور قد خطط للغدر بأبي مسلم لكن عمَّهُ عبد الله بن علي لما جاءه الخبر باستخلاف المنصور خلعه وأعلن البيعة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشًا بقيادة أبي مسلم، ودارت معركة لستة أشهر، والمنصور يراقب عدويه يقتتلان لا يرجو لأحدهما خلاصاً، فانتصر أبو مسلم، وفرَّ عبد الله بن علي إلى البصرة عند أخيه سليمان، فبعث إليه وأعطاه الأمان فجيء به إلى المنصور سنة 139هـ، فحبسهُ ومن كان معه حتى مات سنة 147هـ، وأراد المنصور اصطياد أبي مسلم قبل أن يعود إلى خراسان، فكتبَ إليه: (إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان.. تكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب)، فرفض أبو مسلم واستمرت وفود المنصور ورسائله ترغيباً وترهيباً، حتى أقنعه ثم قتله.

(29) ابن كثير، البداية والنهاية، ج9، ص52.

(30) ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص121.

(31) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص230.

للهجرة ذكر ابن الأثير (في هذه السنة عصى بأعمال الموصل إنسان من مقدمي الأكراد اسمه جعفر بن فهرجس، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم ممن يريد الفساد، فاستعمل المعتصم عبد الله بن السيد بن أنس الأزدي على الموصل، وأمره بقتال جعفر.. فانهزم عبد الله وقتل أكثر من معه)[32].

ماذا حدثَ للزاخويين؟

ربما كان السبب الظاهري لأحداث زاخو يوم الثاني من كانون الأول 2011: محال الخمور، لكن التوتر في العقل الجمعي يحتاجُ إلى تحليل من جوانب أخرى، لأنَّه يحدث ببطء شديد، لماذا يسلك البعض سلوكاً عدوانياً؟ كيف يتخلون فجأةً عن طبعهم الودود؟ يتمكنون من إخراس صوت العقل، أو تنويمهِ؟ خصوصاً وهم يدركون أنَّ عدوانهم لن يحقِّق سوى الدمار، وزرع الفتنة بين فئات المجتمع، فضلاً عن الخسائر المادية، والمعنوية، لماذا استطاع البعض ضبط أنفسهم بالتنزُّه عن الاشتراك في هذه الأعمال التخريبية، بينما فشلَ آخرون؟ لماذا انتقلت العدوى إلى مناطق ونواحٍ أخرى؟ ولم يخفَ على أحدٍ أنَّ المشتركين في أعمال الشغب، كانوا من ذوي الدخل المحدود، الذين تحقق فيهم نموذج الصراع والقطيعة بين الفرد والمجتمع، ومن أصحاب ثقافة سطحية، وربما لا يعرفون القراءة والكتابة، فمن الصعب أنْ تعثر فيهم على أستاذ جامعي، أو معلم تربوي، أو تاجر، ولو عدنا إلى الوراء قليلاً، لوجدنا أحداثاً مشابهة إلى حدٍّ ما ولكن ليس تماماً:

في 14/ 10/ 2001 وقعت أحداث شغب في مدينة دهوك بسبب مباراة كرة قدم بين فريقي زاخو ودهوك على ملعب دهوك، قُتِلَ في أثرها أحد مواطني زاخو وجرح العشرات.

---

(32) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص206.

في 23/ 10/ 2001 في العاشرة صباحاً انطلقت تظاهرة صاخبة وعنيفة دارت في شوارع زاخو ثم اتجهت إلى كمرك إبراهيم الخليل، فأحرقوا ودمروا، واصطدموا بأجهزة الشرطة، لم تكن أحداثاً عفوية، لم يخطر ببال المراهقين والشباب شيءٌ قبل تلك الساعة من ظهيرة الجمعة، لكنَّ كل واحدٍ منهم وجد فيها فرصةً لإثبات نفسه أمام نفسه، وأمام الآخر، في تلك اللحظة الجنونية، وكانت الفتنة نائمةً فاشتهت الشرارة، فجاءت عبارة (لم يبق في زاخو رجال) كشرارةٍ شبه خفية وخافتة، فأضرمت في النفوس النار قبل إضرامها في محال بيع الخمور، وقد ورد الحديث الصحيح (مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت)، وقول الشاعر:

لا تَـحْـقُـرَنَّ صـغـيـراً فـي مـخـاصـمـةٍ
إنَّ الـبـعـوضـة تـدمـي مُـقْـلَـةَ الأسـدِ
وفـي الـشـرارة ضـعـف وهـي مـؤلـمـةٌ
وربـمـا أضـرمـت نـاراً عـلـى بـلـدِ

ازداد غضبهم، والقويُّ من يمسك نفسه عند الغضب، وترعهم، وكان خوفهم من تهمة الجبن أكبر من خوفهم على حياةٍ فقدت طعمها، الإحباط الذي يعيشونه هو المبرر الوحيد لهذه السهولة التي انخدعوا بها، أو خدعوا أنفسهم، يبدو لي ذلك مجتمعاً جاهزاً لأنْ تنطلي عليه الخدعة مرة تلو الأخرى، لأنَّهم يسألون السؤال عينه في كل مرة: مَنْ فَعلَ هذا بنا؟ بينما سؤال اللحظة هو: كيف نصحِّحُ الخطأ؟

فقد بدوا أمام كاميرات التصوير الكثيرة التي انتشرت في المكان، كأنَّما أحدهم طالما انتظرَ هذه اللحظة ليصيرَ بطلاً أسطورياً، يستحق الصَّدَارة ولو في لحظة زمنيةٍ منفصلة عن عالمه الواقعي، متصلة بأحلامه وعالمه الخيالي، وقد بلغت الحماسة بأحدهم أنَّهُ كان مستعداً للتضحية بحياته في سبيلِ فكرةٍ يعلم ويدرك جيداً أنَّها خاطئة وسطحية وعدوانية، إلى درجة تجعل جبينه يندى خجلاً، في ظروف أخرى، لكنه في تلك

اللحظة استحضر آلامه ومشاكله الزوجية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، قائلاً لنفسه: ما الفضل في حياةٍ أطول، إذا لم تكن أفضل؟ ولم يخفَ تأثر البعض منهم بانتصارات الجماهير الغفيرة في الربيع العربي، كان السلوك الإنساني ولا يزال، تحت ضغوط العواطف والانفعالات والأطماع والشهوات، وحب الظهور، والحقد والحب والفخر والإعجاب، وغير ذلك.

وربما لا تختلف أحداث 2011 كثيراً عن أحداث زاخو خريف 2000 التي لم تكن بسبب خسارة فريق زاخو لمباراة في كرة القدم أمام فريق دهوك، ففي الحالتين كان السبب وجود حالة توتر داخلي، بسبب شعور لاواعٍ بالتهميش الاجتماعي، لأنَّ نمو المدن يخلق ثروةً وفقراً، وكلما ازداد نموها سرعةً، ازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء الذين يسردون القصص والحكايات في الشارع والمقهى والمسجد، والزيارات المتبادلة، واتساع طبقة المُهَمَّشين غالباً ما تصبح عاملاً لعدم الاستقرار في المجتمع، هناك بنية لحالة التوتر هذه، هناك أفكار تستدعي شدَّ الانتباه، وفي الحالتين كان هناك اهتمام استثنائي سابق بفترة قصيرة نسبية لحالتي الشغب، هذا الاهتمام زرعَ فكرةً باطنية ملحة تستدعي جذب انتباه العالم المحيط، وأيقظَ مشهدية تفكير لاواعٍ في سبب هذا الاهتمام الاستثنائي، بإطلاق الوعود، وتسميم العقل يؤدي إلى تسميم العالم الخارجي، والعقل المُسَمَّم لا شيءَ يعوق تفكيره، فهو كصخرةٍ كبيرة تنزلق من أعلى المنحدر، لا تتوقف إلا عند الهاوية، هذا الاهتمام أحيا جروحاً وآلاماً غالباً ما تكون وهمية، وبدا جزءٌ من المجتمع المحلي يريد إثبات طاقاته، وقوته، فلم ترَ غير العدوان سبيلاً إلى ذلك، والغريزة التدميرية العدوانية التي كشفَ فرويد عنها الستار قبل رحيله، أقوى من غريزة الحب، فالذي يشعر بالتهميش، يتصوَّر أنَّهُ مظلوم، وحقوقه ضائعة، ولا شيءَ أحبُّ إليه من تقمُّص دور الظالم، وكما وصفَ الشاعر هذه الازدواجية:

ومـن لـذَّة الـدنـيـا وإن كـنـتَ ظـالـمـاً
عِـنـاقُـك مـظـلـومـاً وأنـت تُـعـاتِـبُـهْ

وحالة التوتر الخاصة هذه جزء من حالة توتر عامة، غير منظورة، فالهوية الكردية تمرُّ بمرحلة انتقالية خطيرة، بعد معاناة عدة قرون، مدنها الثلاث (أربيل، السليمانية، دهوك) بعد 2003 خصوصاً، تمر بمرحلة نمو سريعة جداً، والمدن كلما تتسع تبتعد عن جذورها التاريخية وممارساتها وتقاليدها الاجتماعية، وتزداد تبعيتها الاقتصادية، حيث تعتمد في تأمين مفردات استهلاكها اليومي على دول الجوار: تركيا، إيران، سوريا، هذه التبعية عينها هي التي عانتها أثينا في أوج حضارتها، قبل السقوط، وروما من بعدها، وبغداد المستعصم، كانت هذه المدن تستورد كلَّ شيء، مجرد سوق استهلاكية، حتى لم يعد بمقدورها دفع مرتبات موظفيها من الشرطة والجيش وموظفي البلاط، حتى أنَّ فكرة المجتمع المحلي الكردي، لم تعد أكثر من فكرة جغرافية بحتة، لم يعد أحدٌ يهتم أو يلاحظ فقدان المودة، وانتشار عدوى التوتر إلى حدٍّ ما.

بعد خطبة صلاة الجمعة يوم الثاني من كانون الأول 2011، خرج بعض الغاضبين، ليحرقوا محلاً للمساج في زاخو، ومن هناك توجهوا إلى محال بيع الخمور ليضرموا فيها النيران، ومن مشاهدتي لفيديو سبع دقائق كان معظمهم من الصبية والأطفال، وانتقلَ الغضب الشعبي إلى نواحٍ أخرى مثل زاويتة وديرلوك، ورداً على هؤلاء الغاضبين، توجه آخرون فأحرقوا مقار الاتحاد الإسلامي الكردستاني في زاخو ودهوك، وسميل وقسروك ومؤسسات أخرى تابعة للاتحاد، وأعلن الاتحاد الإسلامي الكردستاني، يوم السبت، أن القوات الأمنية اعتقلت نحو 20 من أعضائه في محافظة دهوك بينهم السيد نجيب عبدالله بالاتبي رئيس كتلة الاتحاد في مجلس النواب العراقي، وتظاهر العشرات من أنصار الاتحاد الإسلامي الكردستاني في محافظة السليمانية، احتجاجاً على

إحراق مقار الاتحاد، فيما أعلن الاتحاد إطلاق سراح المعتقلين في اليوم التالي.

لماذا أسعار الخمور رخيصة جداً؟ لماذا تتمتع بحصانة كالمواد الغذائية وبتعريفة كمركية منخفضة؟ هل يعتمد تجار الخمور على مبيعات الداخل، أم على واردات تهريبها إلى إيران والسعودية؟ لماذا لم يتقدَّم أحدهم بمقترح رفع الكمارك المفروضة عليها؟ لماذا صارت محال بيع الخمور فجأةً مثاراً للغضب الشعبي؟ أليس من الأفضل للخطباء والدعاة البحث عن سبل لمكافحة الإدمان؟ (وقيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللحم قد غلا!!. فقال: أرخصوه أي: لا تشتروه وأنشد في ذلك:

وإذا غـــلا شـــيء عـــلـــيَّ تـــركـــتـــهُ

فـــيـــكـــون أرخـــص مـــا يـــكـــون إذا غـــلا

لو أنَّ الطوائف الأخرى من غير المسلمين هم الذين يشربون الخمرة فقط، لكسدت سوقهم، ولَمَا احتاج التجار إلى فتح فروعهم التسويقية في كل مكان، ولكن معظم المدمنين من المسلمين، فإذا كان لعن المسلم شارب الخمر مُحرَّماً، فكيف الإضرار بغير المسلم؟ ألم يكن يهود المدينة المنورة يصنعون الخمور ويبيعونها للعرب من حولهم؟ أما كانوا يتعاملون بالربا؟ لماذا لم تنص وثيقة المدينة على منعهم من بيع الخمور والاتجار بها؟ وقد وردَ في الوثيقة (وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إلّا نَفْسَهُ... وَإِنَّ الْجَارَ كَالنّفْسِ غَيْرَ مُضَارّ وَلَا آثِمٌ وَإِنّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إلّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا). هل بات من الرجولة مخالفة القوانين؟ وَمَن هذا الإمَّعة الذي يساير الغوغاء؟ هل هو الأستاذ الجامعي، أم خطيب الجمعة؟ فإذا كان رجل الدين هو المحرِّض الرئيس، فلماذا لم يكن في مقدمة الجموع الغاضبة؟ لماذا لم تطالبه الجموع بالمسير أمامهم ما داموا على الحق؟

فرح بعض المغرضين بهذه الأحداث، وبحسب المثل المصري (عاوزين جنازة يشبعوا فيها رقص) وفي أثرِ هذه الأحداث صرح أحد مسؤولي المنطقة الخضراء (إذا لم تستطع حكومة إقليم كردستان حماية الإثنيات والطوائف، فنحن مستعدون للتدخل وتقديم المساعدة). لكن هل نجحت حكومة بغداد في حماية هذه الطوائف؟ فلماذا نصفهم فرَّ خارج العراق والنصف الآخر في كردستان؟ ما نوع المساعدة التي يروم تقديمها؟ الخمور لم تكن هي السبب الرئيس، بل كانت سبباً ثانوياً، فالنقمة بدأت بأماكن مشكوك في استخدامها في الدعارة، والقانون يُحرِّم الدعارة، وقد أغلقت الأجهزة الأمنية قبل شهرين تقريباً محلاً للمساج في شارع (KRO) بعد شكاوى قُدِّمت ضده، ولو أنَّ الخطيب وهو عضو اتحاد العلماء المسلمين في كردستان العراق، سألَ رئيس الاتحاد أو أحد خبراء القانون عن إجراءات إقامة دعوى قضائية ضد هذا المكان المزعوم، أفضل من إثارة فتنة واضطرابات وإصابات في صفوف المدنيين والشرطة، وقد كان لاتحاد علماء المسلمين في كردستان دورٌ رئيس في تحريك الكثير من الدعاوى التي كسبها ضد حالات مماثلة. رغمَ أنَّ إجازة فتح محل لبيع الخمور لا تمنح للمسلمين بحسب القانون، وهي جزء من حقوق الطوائف الأخرى، لكن ماذا لو قامت الدولة بمنع الخمور، كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية؟ كان لقانون حظر الخمور بدايات كثيرة في تاريخ القانون الأمريكي منها في عام 1881، أصبحت كانساس أول ولاية تحظر المشروبات الكحولية في دستورها، لكن الحالة الأشهر والأطول كانت حين مُنِعَ الاتجار بالخمور بقرار من الكونغرس 1920- 1933، وما زال إلى اليوم يُشار إلى هذه التجربة على أنَّها تجربة نبيلة، فلا جدال حول أضرار التدخين والخمور، ولهذا كان قرر مجلس الشيوخ حظراً وطنياً على بيع وتصنيع ونقل المشروبات الكحولية بموجب التعديل الثامن عشر للدستور، في 18/ 12/ 1917،

بعد موافقة نواب 36 ولاية وتم التصديق على التعديل في 16/ 1/ 1919، ودخلَ القانون حيز التنفيذ في 17/ 1/ 1920، وسن قانون فولستد (الاسم الشعبي لقانون حظر الخمور) قواعد فرض الحظر، كان آنذاك في مدينة نيويورك وحدها من 30,000 إلى 100,000 نادٍ وحانة لبيع الخمور، انتهى الحظر مع التصديق على التعديل الحادي والعشرين، الذي ألغى التعديل الثامن عشر في 5/ 12/ 1933. لأنَّ الحظر ساهم في إثراء المافيا وتغلغلها إلى مفاصل الدولة كافة، وانتشرت الجريمة المنظمة بشكل واسع، ووقعت معارك بين مافيات التهريب في الولايات، وازدادت الجرائم بنسبة 24% وارتفعت معدلات السرقة والسطو بنسبة 9% والقتل بنسبة 13% وإدمان المخدرات بنسبة 45% وارتفعت تكاليف قيادات الشرطة بنسبة 12% واتضَّح أنَّ قانون الحظر كان أشدُّ فتكاً من أضرار الخمور، وكبرت السوق السوداء حتى بدأت تنافس وتضغط وتوجِّه الاقتصاد الرسمي للحكومة الأمريكية.

وقد وردَ في صحيح البخاري (أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَلْعَنُوهُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ). وفي الصحيح أيضاً (أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَكْرَانَ فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ).

أزمة في أطراف كردستان

هل هناك تغييرات جذرية في كردستان العراق، أم أنَّ التغيير شكلي وعلى السطح فقط؟

هل من المعقول أنْ يعاني الريف في كردستان العراق اليوم، ما كان يعانيه في الستينات؟

ما زال في قلوب الأطراف والأرياف غصة من المركز والمدينة، سابقاً بسبب نمط الإنتاج الخراجي الذي امتدَّ ثمانيةَ عشرَ قرناً، وسيطرة المركز على فائض الإنتاج، وتراكم رأس المال والسلطة السياسية، ومشاعر الأطراف بالتهميش، والغبن، بالنسبة إلى الخدمات أو التعيينات والوظائف، ومنافسة التاجر الحاذق الثري القريب من صُنّاع القرار للفلاح البسيط الفقير، وغير ذلك من الأمور التي تؤكّد غياب طابع الدولة والمواطنة، رغم الاشتراك في الدين والأيديولوجيات وأنظمة القرابة، ولهذا لم تنعم أوروبا بالرفاه حتى انتقلت من نظام الإنتاج الخراجي الذي يستمد استمراريته من نظرية التبعية وضغوطٍ أيديولوجية، وأنظمةٍ شاملة، إلى نظام الإنتاج الجديد الذي يُنْصِفُ الأطراف، والذي يقتبس كينونته كضرورة حتمية لمجاراة تغيرات العصر في التطور المتكافئ وعدالة التبادلات التجارية بين المركز والأطراف، لذا يجب أخذ الانقسام المتزايد بين المركز والأطراف بأهمية متزايدة، كتبَ سان مارك جيراردان في جريدة جنرال ديس دیباس الفرنسية في 8/ 12/ 1931 (إنَّ البرابرة الذين يهددون مجتمعنا ليسوا في بلاد القفقاس ولا في سهوب التتر، إنَّهم يعيشون في ضواحي مدننا الصناعية، وينبغي للطبقة الوسطى أنْ تتعرف بوضوح إلى طبيعة الموضوع، وعليها أنْ تحدِّد موقفها... كانت ثمة ثلاث سُبل محتملة أمام الفقراء الذين وجدوا أنفسهم على حواشي المجتمع البرجوازي.. كان بوسعهم أن يكافحوا ليصبحوا برجوازيين،

وكان بوسعهم أن يرتموا على الأرض، مثلما كان بوسعهم أنْ يثوروا)[33].

رغم تغير الظروف والأسباب، لكن النتيجة واحدة، وهذا شيء يكاد يكون غير منطقي، فعندما تتغير الأسباب والظروف، لا بد من تغير في النتائج، لكن ما زال في الريف الكردستاني تخلف زراعي، وصناعي، المنتجات الزراعية التي يتركها الفلاح على الأرض، لأنَّ أسعار نقلها إلى الأسواق لا تغطي أثمانها، بسبب منافسة المنتجات الزراعية المستوردة، في العودة إلى الإرشيف محاولة تساعد أنفسنا في تشخيص طبيعة التحديات التي كانت تواجهنا، وكيف انتهت الأمور، وفي العودة صدمة اكتشاف أنَّ التحديات هي، هيَ لم تتغير كثيراً، رغم مرور نصف قرن، جاء في افتتاحية جريدة النور العراقية العدد 188 في 3/ 6/ 1969 (تصنيع الريف الكردي ضرورة وطنية واقتصادية: الريف الكردي علاوة على ما يُعانيه من أدواء عامة، أسلفنا ذكرها، يعاني أيضاً من انعزال معين يحكم طبيعة الأرض الجبلية التي تؤلِّف غالبية المنطقة، وبحكم ندرة طرق المواصلات الحديثة التي تسمح بنقل المحاصيل الزراعية في أوقاتها المناسبة، ويعاني كذلك من ضيق في الأرض الصالحة للزراعة لا سيما بعد أنْ غَمَرت مياه سد دوكان، ودربندي خان أراضي واسعة عرفت بجودتها ووفرة محاصيلها الزراعية... وتصنيع الريف الكردي ضرورة لا للحاجة إلى رفع مستوى الفلاح الكردي المادي والفكري فحسب، بل تدفع إليها ضرورات اقتصادية تهم البلاد عموماً، إنَّنا نصرف المبالغ الطائلة على استيراد الفاكهة المجففة والطازجة وبعض أنواع الصابون والخضراوات المعلبة والمنتجات المعلبة وغيرها مما يمكن سده من إنتاج كردستان). واليوم أيضاً هناك استثمارات كبيرة وتطور في قطاع

---

(33) اريك هوبزباوم، عصر الثورة، ترجمة د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، 2007، بيروت، ص375، 376.

الفنادق والمطاعم والسياحة، لكن رغم اهتمام حكومة الإقليم بصرف قروض كبيرة بدون فوائد للفلاحين، وتشجيعها عودة المزارعين من المدن إلى الريف، وقد أوصلت الخدمات كافة إلى معظم القرى، من ماء وكهرباء ومولدات، وأبراج اتصالات، وشبكة طرق معبدة، واستفادت أعداد كبيرة من القرض العقاري لبناء بيت ريفي، لكنَّ أغلبهم يستخدمونه للتفاخر والاستجمام في أوقات الراحة، وليس للزراعة، فمن عام 2009 ولغاية نهاية 2011 منحَ المصرف الزراعي في محافظة دهوك قروضاً للفلاحين بلغت 24 ملياراً و95 مليون دينار، علماً أنَّ السقف الأعلى للقرض الزراعي هو مائة مليون دينار عراقي، ولا ندري هل يقوم المصرف الزراعي أم مديرية الزراعة بمتابعة المجالات التي أُنفِقَتْ بها هذه القروض؟

الفصل الثالث

اللغة مصدراً للمنازعات

اللغة نقطةٌ صارت حرفاً، فكلمة، منها انطلق تاريخ البشرية، وَرَبْضُ المَدَنِيَّةِ، وأساس العلوم والمعرفة الإنسانية، أسُّ الحوار والتواصل، قاعدةٌ رئيسة لأعمدة الحضارة. اللغة وحدها هي التي جعلت من الإنسان كائناً اجتماعياً، فكيف تسنَّى لها أنْ تكون مصدراً للمنازعات، وأداةً للقمع؟ هل تعدد اللهجات في اللغة الكردية: يُمَثِّل عاملَ هدم أم عامل بناء؟ هل يُمثِّل هذا التعدد عائقاً أمام عجلة التقدُّم أمْ دافعاً؟ يتساءل هارالد هارمان (ما هو تفسير ظاهرة تحوّل اللغة إلى سلاح سياسي خطير أو مصدر لنشوب الأزمات التي قد تُعَرِّضُ الناس في العديد من مناطق العالم إلى اندلاع الحروب؟)[1]. تحاول بعض الأنظمة القمعية فرض اللغة المهيمنة كقوة مضادة لاستلاب الهوية والتسطيح الاجتماعي في حَرْبٍ باردة ضدَّ الأقلّيات، وإنْ كانت الحرب غير ظاهرة في خطابهم الإعلامي.

---

(1) هارالد هارمان، تاريخ اللغات ومستقبلها: عالم بابلي، ترجمة: سامي شمعون، تحقي: محمد حرب فرزات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ط1، 2006، الدوحة، ص17.

تعيش الأقليات في الشرق الأوسط والدول العربية، حالات مستعصية من الاغتراب، ليس بسبب اختلاف اللغة فقط، لكن للغة دورٌ جوهري في هذا الاغتراب، ولهذا كان معظم علماء اللغة العربية في العصر العباسي والعصور المتأخرة من غير العرب، لأنَّ اللغة كانت نقطة الضعف لديهم، وبإجادتهم وبراعتهم في اللغة، محاولة للتغلُّب على الاغتراب، وإجادة اللغة المهيمنة إنَّما هي محاولة للتغلب على التخلف والقهر الاجتماعي والتمييز، محاولة للاندماج في المجتمع، والتخلص من فقدان الثقة والضعف وحالات الاتكالية القسرية التي تفرضها السلطة الرسمية، ومن هذه الحالات: لم يَكُنْ وإلى يومنا هذا، للكردي أن يتملَّك قطعة أرض أو يشتري داراً في مدينة الموصل، وفي زمن البعث لم يكنْ يحقُّ له أن يطالب بإجازة ممارسة مهنة، ولهذا كان البعض من راكبي الموجة مُجبراً على أنْ يغيِّر قوميته إلى العربية، ويكتب في طلب التغيير (أرجو تصحيح قوميتي) فإذا كانت القومية هِبَة من الله، فهل من الجائز القول تصحيح؟

وهو ما فعله الكثير، واليوم هم مسؤولون في الحكومة الحالية، أو يتفق مع أحد أبناء القومية العربية ليستخرج إجازة المهنة باسمه، مقابل نسبة من الأرباح أو مجاناً بحسب الاتفاق، وكذلك لتسجيل قطعة الأرض أو الدار باسم آخر ينتمي إلى القومية العربية، وهذه التفرقة والتجزئة القومية هي التي سبَّبت التفكك الاجتماعي، الذي جعلَ كلَّ فريق يتعصَّب للغتهِ. ثمَّ يقول هـ. هارمان: (هناك في الواقع حالات كثيرة تُشكِّل فيها الاتصالات بين اللغات بؤراً للأزمات، وأغلب هذه الحالات هي الوضع الذي تمارس فيه اللغة المهيمنة ـ اللغة الرسمية للبلاد ـ ضغطاً على لغة غير مهيمنة ـ على سبيل المثال لغة أقلية إثنية ـ .. كالوضع السائد في كوسوفو حتى اندلاع الحرب في صيف 1999 إذْ كانت لغة أكثرية سكان المنطقة أي اللغة الألبانية، لا تملك أيَّة حقوق.. ومن ناحية أخرى احتلت اللغة الصربية وهي لغة أقلية في الحياة العامة

جميع وظائف الاتصال، ابتداء بالمعاملات الرسمية وانتهاءً بالتعليم المدرسي.. وكما يرى الألبان كانت ـ اللغة ـ الصربية أداة للقمع تمارسه القيادة المركزية في بلغراد)[2] ولولا سياسة التتريك التي دَعَتْ إليها جمعية الاتحاد والترقي والتي تأسست عام 1898، ونشأت في أوروبا تحت ستار التجديد والتحديث في الدولة العثمانية، لما استطاع لورنس العرب أن يقود الأعراب من صحراء الجزيرة العربية ليذبحوا إخواناً لهم في الدين، طمعاً في وعود الإنكليز، وحركات القومية العربية إنَّما كانت رد فعل لسياسة التتريك، ولولا سياسة التتريك، لكانت مشكلة الشعب الكردي في تركيا قد انتهت منذ عقود، ففي عام 1991 صرح سليمان ديميرال (أنا أعترف بالحقيقة الكردية) وطبَّل مثقفو الكرد في تركيا لهذه الكلمة اليتيمة، التي كانت صرخةً في العراء، وفي عام 1997 صرح رئيس الوزراء مسعود يلماز بأن (طريق تركيا إلى الاتحاد الأوروبي يمر عبر ديار بكر)، وكتب المثقفون الكرد مقالات ثناء عديدة على هذا التصريح الذي التحق بتصريح ديميرال، وهكذا أثبتَ التاريخ أنَّ المبدأ الذي يتبناه دعاة "الدولة القومية المتجانسة يجب أن يكون لها لغة رسمية موحدة" فكرة غبية طوباوية، خيالية غير قابلة للتطبيق، حيث يقول هـ. هارمان: (ولا تُشَكِّل اللغة بحدِّ ذاتها مصدر النزاع إلا عندما يُحوِّلها الناس إلى وسيلة لرفض التعاون المتبادل، ولا تتحول اللغات في منطقةٍ ما، إلى مصدر للنزاع على يد الناطقين بها)[3].

فالشعب الكردي في تركيا وإيران وسوريا، يعاني تهميشاً ويشعرُ أحدهم بفقدان الثقة، لأنَّه لا يجيد اللغة الرسمية للبلاد، وهي اللغة المهيمنة، ولهذا يظل أهم مطلب من مطالبهم، أنْ يدرسوا ويتكلموا باللغة الكردية، وفي مناطق التوتر نجدُ حرباً باردة بين لغتين، تسير

(2) المصدر السابق ص39.

(3) المصدر السابق ص42.

بموازاة الحرب الساخنة، فالإسرائيليون والفلسطينيون، والقبارصة الأتراك واليونانيون، البوسنة، والصرب، والكروات، والسنهاليون، وسرلنكيو التاميل، والكشميريون الموالون للاستقلال، والموالون لباكستان، والموالون للهند، يتشاطرون أرضاً واحدة، مُتنازع عليها، ويتكلمون لغات مختلفة. ويوجد في هذه الدول الكثير من نقاط التفتيش، ورجال الأمن يحملون السلاح ويتعاملون مع المارة بعنجهية تخفُّ حدتها، إذا ما استطاع أحدهم أن يتكلم بلغتهم أو باللغة الإنكليزية، ففي نقاط تفتيش يسيطر عليها أفراد من الجيش الأمريكي، سيتعاملون بشكلٍ أفضل مع مَنْ يتكلَّم باللغة الإنكليزية، فاستخدام لغة الآخر قد يزيلُ حاجز الخوف والرهبة أو الازدراء، وقد يمنح الطرف المُسْتَضْعَف شيئاً من الثقة بالنفس، أمام تنازل الطرف القوي عن بعض سلطته. وفي الحرب الأهلية اللبنانية، كانت بعض نقاط التفتيش، تطلبُ من كل واحد أن يقول (بنادورة) فإذا قال (بندورة) يُذْبَحُ فوراً أمام بقية المسافرين، لأن الفلسطيني يقول بندورة، أما اللبناني فيقول بنادورة.

منعَ الاحتلال الفرنسي تعليم اللغة العربية، في تونس والمغرب، ولمدة مائة عام في الجزائر، وبرزت إشكالية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، هل هو أدب عربي أم أدب فرنسي؟ وهذه المشكلة موجودة في جميع دول العالم، كالمثقفين الكرد الذين يكتبون باللغة العربية في العراق وسوريا، والأقباط في مصر، والأمازيغ والبربر في المغرب، إنَّ أصحاب الفكر القومي المتطرّف من الطرفين يتمسكون بقواعد صارمة، ويطردون رواية كاتب ياسين (نجمة) وثلاثية محمد ديب ونصوص الطاهر بن جلون وعلوية صبح، من الأدب العربي، وهذه العنصرية العمياء لا تختلف كثيراً عن عنصرية اليهود باعتبارهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يسمح بعبادته ولا يتقبلها إلا من اليهود فقط، فهم مؤمنون وغيرهم "غوييم" وعدم قبولهم للآخر المختلف حتى لو آمن بدينهم وتزوَّج منهم، وعاش معهم وأخلص لهم،

يبقى "غوييم" وهي كلمة تُطلق في اللغة العبرية على الأغيار، ومعناها الحرفي حمير أو غوغاء، وقد أصدر الحاخام إسحاق شبيرا كتابه "نظرية الملك" في ت2 2009 يدعو فيه المجتمع الإسرائيلي إلى إباحة قتل كل الغوييم إذا ثبت أن في وجودهم تهديداً لليهود في أي مكان كان، ويحتوي الكتاب على مئات النصوص التي تبيح قتل غير اليهود، منها (وجود أي جوييم في أي مكان يعطي الإباحة بقتله إذا ثبت أن وجوده يشكل تهديداً للوجود الإسرائيلي، حتى وإن كان غير مذنب إطلاقاً أو كان ينتمي إلى الأمم الصالحة). ويبيح مؤلف الكتاب بنص صريح قتل الأطفال من خلال النص الذي فيه يسمي الأطفال بأنهم دروع بشرية تحجز الطريق أمام إنقاذ اليهود فيقول: (حتى الأطفال يجوز قتلهم، لأنهم يكونون غالباً في وضعية يحجزون طريق الإنقاذ وهم يفعلون ذلك بغير إرادتهم، ولكن بالرغم من ذلك يجوز قتلهم، لأنهم يساعدون على قتل اليهود، فيجب قتل الرضع إذا ثبت أنهم عندما يكبرن سيشكلون تهديداً لليهود، بل في هذه الحالة يجب قتلهم بشكل مخصص وليس من خلال قتل الكبار). يوجد هناك أكثر من 6000 لغة منتشرة ومتداولة في العالم، ولكن 300 لغة فقط هي التي يُكتب بها ويقرأ، وأنَّ فكرة هيمنة اللغة الإنكليزية كلغة عالمية مهيمنة هي مجرد خرافة، حيث يقول هـ هارمان: (إذا جمعنا عدد جميع الأشخاص الذين يتقنون الإنكليزية دون عناء، أي الذين اكتسبوا الإنكليزية كلغة أولى "اللغة الأم" أو لغة ثانية، أو لغة تعلُّم، أو لغة أجنبية، فإنَّ العدد لا يتجاوز 10% من مجموع سكان العالم)[4]. وإذا كان العدد يحسمُ المسألة، فإنَّ اللغة الصينية الشمالية هي اللغة المستخدمة من قبل أكبر عدد من الناس في العالم، ولكن الإنكليزية أقوى منها، لأنَّها توفِّر معلومات أكثر للباحثين وطالبي العلم.

---

(4) المصدر السابق ص32.

استفهامية عنف اللغة

عبارة (أنا لم أعد شابة كما اعتدتُ أنْ كنت/I am not so young as I Used To was) في رواية سومرست موم ' كعك وجعة (Cakes and Ale)'؛ يقول عنها لوسركل: (لو قرأت هذه الجملة في ورقة امتحان طالب، لرسمتُ خطّاً أحمر سميكاً تحت الكلمة الأخيرة، إلا أنني في الرواية أستمتع بقراءة هذه الجملة.. السرد المتقن الذي يمكّن موم من ارتكاب اللحن في الكلام والنفاذ بفعلته)[5]. لماذا يبدو لوسركل أستاذ اللغة الإنكليزية في جامعة باريس متسامحاً مع الروائي، متشدّداً مع الطالب؟ أليست هذه ازدواجية؟ جملة من الطالب تشعره بالغضب، ويتلذّذُ بها من الروائي، تحت مظلة يجوز للأديب ما لا يجوز لغيره.

ما دامت اللغة بحسب ميخائيل باختين (1895-1975) لا يمكن فهمها بدون حوار بين اثنين، لا يمكننا تجاوز نوع العلاقة بين المتحاورين، تعتمد اللغة على الحالة النفسية للمتحاورين والعلاقة بينهما، هل هي علاقة ود وصداقة، أم بغض وعداوة؟

وعن الْمُبَرِّدِ (كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء، ولا يفطن بذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه ففي ذلك يقول شاعر من المعتزلة، يمدحه بإطالته الخطب واجتنابه الراء، على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست موجودة فيه:

عـلـيـم بـإبـدال الـحـروف وقـامـع
لـكـل خـطـيـب يـغـلـب الـحـق بـاطـلـه

وقال آخر:

---

(5) جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، ط2، 2006، بيروت، ص45، 46.

ويـجـعـل الـبـر قـمـحـاً فـي تـصـرفـه
وخـالـف الـراء حـتـى احـتـال لـلـشـعـر
ولـم يـطـق مـطـراً والـقـول يـعـجـلـه
فـعـاذ بـالـغـيـث إشـفـاقـاً مـن الـمـطـر

ذكر بشاراً فقال: أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ من يقتله! أما والله لولا أنَّ الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثتُ إليهِ من يبعج بطنه على مضجعه، ثم لا يكون إلا سدوسياً أو عقيلياً.

فقال: هذا الأعمى ولم يقل بشاراً، ولا ابن برد، ولا الضرير. وقال: من أخلاق الغالية ولم يقل المغيرية ولا المنصورية. وقال: لبعثت إليه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه، ولا مرقده، وقال: يبعج، ولم يقل: يبقر)[6]. وهناك من يتأوَّل اللغة فيتفاءل أو يتطيَّر من كلمة أو اسم، وذكر ابن رشيق القيرواني في العمدة (كان ابن الرومي كثير الطيرة: ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه، حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم: انصرف إلى مولاك فأنت ناقص، ومنكوس اسمك). ويذكر عنه العقاد تشاؤمه في المعاني، ثمَّ (أمَّا في الألفاظ، فإنَّهُ يغوص في تصحيف حروفها..ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليُمن والشؤم ودفائن المدح والذم، فجعفر عنده تساوي جاع وفر، والخان يذكره بالخيانة.. وتصحيف هرثمة هزيمة.. ويبدِّل اسم اسحاق بعد قلبه القاف فاء، والسين شيناً، وإثباتِهِ الحاء على حالها،

---

(6) أبو العباس المُبَرِّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط3، 1997، القاهرة، ج3، باب أخبار واصل بن عطاء، ص143.

فخرجَ من هذه العملّية الطويلة " فاحشاً".. ويصبح علي بن أبي قرة، عيي بن أبي غِيَّة... يهتدي إلى مكامن الطيرة والشؤم في كلِّ معنى وكل كلمة)[7].

رواية الساعة الخامسة والعشرون: المكان قرية فانتانا في رومانيا ثم هنغاريا ثمَّ ألمانيا، ثلاث عائلات رئيسة: أيوهان موريتز ووالدته ووالده، سوزانا ووالدها أيورغو أيوردان ووالدتها، الكاهن كورغا وابنه الروائي تريان وزوجته.

من شأن الجنسية والقومية والعقائد أن تمارس عنفاً لغوياً، فمجرد حدوث حرب بين دولتين جارتين، تصير اللغة تهمة (لا تتحدث الرومانية أيها الحمار، إذا سمعنا أحدهم نتحدُث بالرومانية تعرضنا جميعاً للذهاب إلى السجن. ـ هل التحدث بالرومانية ممنوع؟ ـ إنَّهُ ليس ممنوعاً، غير أنَّ الرومانيين هنا يُرسلون إلى معسكرات الاعتقال، إنَّ هنغاريا عدوة رومانيا. هل فهمت؟)[8]. بعد عشر صفحات يقبض على موريتز باعتباره جاسوساً رومانياً. وزوجة موريتز التي ماتت حرقاً في شقتها مع ابنها، كانت تردِّدُ دوماً (سننتصرُ أو نفنى حتى آخر رجل، إنَّ أيَّ ألمانيٍّ لن يقبل العيش في ألمانيا محتلة)[9]. رواية البطل المأساوي الضحية موريتز، الذي قضى من عمرهِ ثلاثَ عشرةَ سنةً عجفاء، في ثمانية وثلاثين معسكر اعتقال، خَبِرَ كلَّ شيء، في 568 صفحة يخبرنا السبب (والآن أريد أن أعرف لماذا؟ هل لا يعجبكم اسمي.. أريدُ أنْ أعرفَ السبب الذي من

(7) المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، المجلد الخامس عشر: تراجم وسِيَر: ابن الرومي، أبو العلاء، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1991، بيروت، ص158.

(8) كونستانتين فيرجيل جيورجيو، الساعة الخامسة والعشرون، ترجمة فائز كم نقش، دار اليقظة العربية، ط4، 1988، دمشق، ص193.

(9) المصدر السابق، ص298.

أجلهِ أعذَّب وأسجن)[10]، وما زلنا إلى يومنا هذا، قد يتعرَّضُ الإنسان إلى الاعتقال وشتى أنواع التعذيب بسبب اسمه لا غير، كتشابه الأسماء مع مجرمٍ خطير. ولهذا نجدُ أنَّ اثنتين وخمسين أمة قررت في محكمة دولية أنَّ أيوهان موريتز مجرم[11]، بدأ عذابه لأنَّ اسمه ياكوب، وهو اسم يهودي، فاضطهدته السلطات القمعية في وطنه رومانيا، واستمر عذابه، دون أنْ يكون بمقدور أحد الاستماع إلى شكواه وأنينه.

كما من شأن اللغة كأداة شعرية، التحذير ويقول الروائي الروماني كونستانتين فيرجيل جيورجيو على لسان إحدى شخصياته الروائي الشاعر تريان (إنّني شخصياً كاتب، وكل كاتب شاهد قبل كلِّ شيء)[12]. ويقول جيورجيو أيضاً: (إنني شاعر يا جورج، أملكُ شعوراً يسمح لي بالتنبؤ بالمستقبل، لا يملك الآخرون مثله، إنَّ الشاعر نبي، إنني آسف إذْ أتنبأ بأشياء مفجعة كهذه، لكن مهمتي كشاعر، ترغمني على ذلك، ينبغي أنْ أصرخَ وأنْ أحمِّلَ الأصداء قولي، حتى لو كان قولاً ممجوجاً)[13]. وبعد هذه القسوة، لم يجد الأب كوروغا ما يقوله لموريتز سوى (إنَّ ما وقعَ خطير جداً، يا موريتز، لكن لستَ أنتَ المخطئ، ولا سوزانا، إنَّ المسؤولية تقعُ على الدولة وقوانينها، ولن يُغْفَرَ للدولة، سوف تُعاقبُ الدولة كما عوقِبَتْ سدوم وعمورة)[14]، وهو يقصد بالدولة جميع الدول المتمدِّنة، لأنَّها (لا تعنى بالحالات الشخصية، إنَّ كونك مجرماً أو بريئاً يمكن أنْ تهتم بها زوجتك، أو أنْ يعلِّقَ عليها جيرانك، والفلاحون الآخرون في قريتك اهتمامهم)[15]. وقال للمحقق الذي كان يتهكَّم به (إنَّ

(10) المصدر السابق، ص 418.
(11) المصدر السابق، ص526.
(12) المصدر السابق، ص387.
(13) المصدر السابق، ص86.
(14) المصدر السابق، ص433.
(15) المصدر السابق، ص443.

أيَّ نصرٍ يتحقق بقوة السلاح لا يمكن أنْ يدخلَ السرور إلى نفسي)[16]، مقولة مقاربة لمقولة الإمام علي بن أبي طالب (الغالب بالشر مغلوب)، ويقرأ كروغا قصيدة الحكيم الصيني لاو تسي:

لا يوجد جَمَالٌ حتى في النصر

وذلك الذي يسميه جميلاً

هو من أولئك الذين يجدون السرور في المذابح

والذي يجدُ السرور في المذابح

لن ينجحَ في طموحهِ الهادف إلى السيطرة على العالم

إنَّ تأوهات حزينة رافقت، ولا بدَّ الجماعات المذبوحة

لذلك ينبغي أنْ يُحتفلَ بالنصر، حسب الطقوس الجنائزية[17]

هذه القصيدة التي يطلب المحقق الأمريكي من سجينه أن يكتبها له، ليرسلها إلى أهله، خصوصاً وأنَّ الصين ليست دولة عدوة، والدول العدوة التي قرأها الحاكم الأمريكي بصوتٍ عالٍ (البلاد العدوة: رومانيا، هنغاريا، فنلندا، ألمانيا، اليابان، إيطاليا). فلو كانت هذه القصيدة بلغة إحدى الدول العدوة، لما استمعَ إليها الأمريكي، ولما أفصحَ عن إعجابهِ بها.

والأب كروغا يقول للسيد المحافظ: (إنَّ من لا يهتم بشأن الإنسان كرجل لا يمكنه الادّعاء بأنَّهُ يناضل من أجل الرب، لا يمكن أنْ يكونَ إنساناً مدافعاً عن الدين، وفي الوقت ذاته عدواً له... إنَّ أنبلَ المُثل القومية الاجتماعية أو الدينية لا يمكن أن تعذر حيفاً يلحقُ برجلٍ واحد، إنَّ تحويل الرجال إلى رقيق باسم المسيح ليس إلا جريمة ضد المسيح)[18].

(16) المصدر السابق، ص447.

(17) عين المصدر السابق والصفحة.

(18) المصدر السابق، ص133.

الحلفاء بزعامة أمريكا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انتهكوا حقوق الإنسان في معتقلاتهم، أكثر مما فعلَ هتلر بكثير، ينهي روايته بأوامر الملازم الأمريكي ليويس إلى بطل الرواية الضحية موريتز (ابتسم، ابتسم، ابتسم، ابتسم). ولكنْ يجب أن لا نسيء الظنَّ بالأمريكي شرطي العالم، ومنقذه (لأنَّ الأمريكيين حاقدين علينا، بل إنَّهم لا يشعرون بوجودنا)[19]، يقول تريان لزوجته: (أعرف أنَّ الأمريكيين سوف يسلموننا ونحن في زنزاناتنا إلى الروسيين، وأعرفُ أنَّ هذا العمل جريمة، لكنني إذا نظرتُ إلى الأمر من زاويتهم، أدركتُ أنَّهم أبرياء، إنَّهم يشبهون في سذاجتهم القاطرات التي تبدو وكأنَّها تبتسم عندما تسحّ إنساناً على خطٍّ حديدي، لقد حوَّل الغربيون الخطيئة نفسها إلى مقياس محدود موحَّد، لقد ضغطوا ذلك المقياس حتى أعدموه، بل أستطيع القول إنَّهم ليسوا مذنبين في ذلك، إنَّ الذنب ذنبُ الحضارة)[20]، جريمة المجتمع الغربي، التي استوردتها شعوب العالم كافة، أنَّهم يقتلون الإنسان الحي، يعدمون إنسانيته، في سبيل النظرية، أو من أجل إنجاح الخطة (إنَّ كومة الحطب والقتل حرقاً بالنار، كما كان سائداً من قبل، قد استعيض عنهما اليوم بالمكاتب والإحصاء)[21]. رغم أنَّ دساتير العالم المتمدن تنصُّ على منع أشكال التمييز العنصري، لكن الكثير من الحالات تقعُ أمام أعينِ العالم، في ثوب شرعي وقانوني وديمقراطي، ولهذا يقول الأب كروغا وهو على فراش الموت: (لا يجب أن يُحاكم الإنسان استناداً إلى الفصيلة التي ينتسبُ إليها، إنَّ الفصيلة هي الخدعة الأكثر وحشية والأشدُّ فظاعةً من كلِّ ما اقتحمَ عقل الإنسان من آراء، إذْ لا ينبغي أنْ ننسى أنَّ عدونا

(19) المصدر السابق، ص362.

(20) المصدر السابق، ص366.

(21) المصدر السابق، ص455.

رجلٌ، وليس فصيلة)[22]، والخدعة الأخرى تبرير الأخطاء بعبارات جاهزة (أهون الشرين) (ليس بالإمكان أفضل مما كان) (الغاية تبرر الوسيلة) (ارمِ السهم ثمَّ حدد الهدف) (من ليس معنا في خندق الحرب، فهو عدونا) (كل شيء من أجل النصر) ومن كبرى الجرائم أنْ يتصوَّر المرءُ أنَّهُ يقومُ بعملٍ عادل، تنفيذاً لغايات غير عادلة، كالذين وصفهم تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ البقرة: 12. وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الكهف: 104.

تريان يشرح للملازم ضابط السجن جاكوبسن (الكائن البشري يخسرُ وجودهُ، حين يصبح تعطشه إلى الحرية والعدالة رمزاً إلى جنونه)[23].

في أحد المعتقلات يفاجأ الكاتب تريان بوجود كنيسة (كان في وسط الكنيسة، صليب كبير، يضاهي ارتفاعه قامة الرجل، رَكَعَ تريان أمام قدمي الصليب، كان يسوع مصنوعاً من الورق المُقَوَّى، وكانت الأشواك التي في إكليلهِ مصنوعة من علب الأطعمة المحفوظة التي قطّعت قِدَداً صغيرة)[24]. تماثيل مصنوعة من ورق، ومن خشب، ومن برونز، ومن مواد أخرى، وكلما اختلفت المادة، واختلفت شخصية النحَّات، اختلفت صورة يسوع، وبذلك سوف يحفظ العوام والأطفال صوراً متعدِّدَة ومختلفة لوجه يسوع وجسده، وهذا التجسيد من شرائع الأمم الوثنية السابقة، ومما جاء في سفر أرميا (10:2 هكذا قال الرب لا تتعلموا طريق الأمم ومن آيات السماوات لا ترتعبوا لأن الأمم ترتعب منها. 10:3 لأن فرائض الأمم باطلة لأنها شجرة يقطعونها من الوعر صنعة

---

(22) المصدر السابق، ص455.

(23) المصدر السابق، ص501.

(24) المصدر السابق، الجزء 135: ص426.

يدي نجار بالقدوم). وجاء في سفر الخروج، في الوصية الرابعة من الوصايا العشر (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. 5:20 لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إلهٌ غيور). واستناداً إلى هذا النص ترفض الكنيسة الشرقية التي يسمونها الأرثوذكسية، الصور والتماثيل التي تصوِّر المسيح في الكنائس، مجسَّداً من الخشب أو البرونز أو الذهب، أو غير ذلك، ويرتدي أتباع الأرثوذكسية الصليب خطين متقاطعين بدون جسد الصليب، لكن الكنيسة الغربية وإنْ كانوا يعترفون بالخطأ، ويبررونه بتأويل النص ليسمحوا بالصور والتماثيل، بحجَّة تقريب فكرة الصليب والتضحية إلى أذهان العوام والأطفال. وفي سفر اللاويين (26:1 لا تصنعوا لكم أوثانا ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له لأني أنا الرب إلهكم). وفي سفر التثنية (4:16 لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى). وفي التثنية أيضاً (27:15 ملعون الإنسان الذي يصنعُ تمثالاً منحوتاً أو مسبوكاً رجساً لدى الرب عمل يدي نحات ويضعه في الخفاء ويجيب جميع الشعب ويقولون آمين).

هُويَّتي الكردية لغوياً

يستنتج د.عز الدين مصطفى رسول في تقديمه لكتاب أحمد مختار الجاف (فإذا كانت قصة "مسألة الوجدان" تنتسبُ من حيث المضمون إلى الاتجاه الواقعي الانتقادي، فإنَّها تنتسب من حيث اللغة إلى الاتجاه الرومانتيكي الكردي) مبرراً السبب (لا تشبه تلك اللغة الكردية التي نكتب بها أدبنا الواقعي الآن، وهي لغة كردية نقية، بل هي لغة تختلط بها

بعض الكلمات العربية والتركية... . وهو ما . نراه في معظم الآثار النثرية بين الحربين العالميتين)[25].

أيْ إنَّ اللغة الكردية بين الحربين العالميتين كانت غير نقية، ثم صارت نقية بعد ذلك!

كيف تكون لغتنا الكردية التي نكتب بها نقية؟ هل توجد في العالم لغة نقية؟ أعني بالنقية خالية من أية مفردات مشتركة مع لغات أخرى؟ لماذا لم يذكر اللغة الفارسية وهي الأقرب من العربية والتركية؟ أليسَ لتاريخ ومكان نشر الكتاب علاقة بهذا التجاهل المُتَعَمَّد؟

المترجم سَمَّاها (مسألة الضمير) ود.عز الدين رسول يسميها (مسألة الوجدان)، عنوان القصة باللغة الكردية (مه سه لي ويجدان) ومن السَّهل ملاحظة أنَّ الكلمتين عربيتين، مع بعض التغييرات، حيث حذفت الهمزة وتحولت التاء المربوطة إلى ياء، وتغير حرف الجيم العرف إلى ما يقابله في اللغة الكردية، اللغات تتداخل وتشترك بألفاظ، ولا تفقد هويتها بهذا الاشتراك، اللغة التي يسميها نقية حين ترجمت (مسألة الوجدان) إلى اللغة الكردية صارت (مه سه لي ويجدان) ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

في حرب الثمان سنوات، دفعَ الحقد الأعمى نظام البعث إلى الموافقة على برنامج تنقية اللغة الكردية من مفردات اللغة الفارسية، هل يعيب اللغة الكردية وجود مفردات مشتركة مع لغات أخرى؟ لو كانت الإجابة نعم، فماذا نقول عن مفردات أعجمية في كلام الله الموصوف بقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ يوسف: 2. ومن جملة ردِّ السيوطي على هذه الإشكالية (وقال ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية والحبشية والنبطية

---

(25) أحمد مختار الجاف، مسألة الضمير، ترجمة عادل كرمياني، تقديم د. عزالدين مصطفى رسول، 1989، بغداد، ص10.

أو نحو ذلك إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد. وقال غيره: بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسن في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظاً غيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. وأجابوا عن قوله تعالى: " قرآناً عربياً " بأنَّ الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية)[26]. وكذلك اللغة الكردية، إذا احتوت كلمةً وكلمتين عربيتين، فإنَّ هذا الاحتواء للإثراء، لا للانتقاص، ولا يجعل الأدب الكردي موسوماً بالأدب الرومانتيكي بسبب احتوائه على مفردات عربية، والأدب الرومانتيكي مقصود به هنا أبعد مما بين الحربين العالميتين، خاني والجزيري، وغيرهما، وهو إلى حدٍّ ما أدب إسلامي، أو صوفي، وليس رومانتيكياً في عصرٍ لم تبلغ السياسة هذه الدرجة من التعقيد، والرومانتيكية حركة تعتمد العاطفة، على حساب العقل، كمصدر أصيل للتجربة الجمالية، وتركِّز على قوة الخوف والرعب والحب والفرح الحزن، ولا يمكن أنْ تفقد اللغة الكردية هويتها بسبب وجود كلمة عربية أو فارسية أو تركية.

التمييز العنصري بسبب اللغة

كان فرض التعليم باللغة العربية في كركوك، ومحاولة تعريب المنطقة، سبباً رئيساً لعدم تنفيذ اتفاق الحادي عشر من آذار 1970 بين القيادات الكردية وحكومة البعث آنذاك، وانعدام الثقة بين القوميات

(26) جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، النوع الثامن والثلاثون فيما وقع فيه بغير لغة العرب، ص338.

المتعايشة هو سبب تأخر حل الأزمة، والتأخير يُعقِّدُ الأزمات، بتراكمات الأخطاء عبر السنين، ولنشوب الحرب بعد ذلك.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية طالبت محافظة (خوزستان/ عربستان آنذاك) وتضم "الأحواز وعبادان ودزفول، ومسجد سليمان، وبهبهان، والحويزة والمحمرة" بالحكم الذاتي فقمعهم بشدة رضا شاه وزير الحربية آنذاك، واستولى على المنطقة واستبدلَ سكان المنطقة العرب بإيرانيين، وصار العرب أقلية، وطالب رئيس الحكومة عبد الكريم قاسم عام 1960 بضم إقليم عربستان إلى العراق، علماً أنَّ هذه المحافظة تتمتع بأكثر من 80% من احتياطي إيران من النفط، وهناك أقلية الأذربيجانيين وتصل نسبتهم إلى 25% من سكان إيران ولهم كيان عرقي ولغوي منفصل، لكنَّهم يتبعون المذهب الشيعي، وهناك تجاهل تام لحقوقهم اللغوية لمصلحة اللغة الفارسية، السائدة والمهيمنة، (وكانوا تحت النفوذ الروسي لغاية 1918، وقام الأذربيجانيون بثورتين أُحبطتا في عامي 1920 وعام 1945، ولم تقدِّم إيران أيَّة تنازلات لهم، مما شجَّع الحكومة المركزية آنذاك تحت حكم أسرة بهلوي على تحريم استخدام اللغة الأذرية في المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام)[27].

المادة 14 من الدستور العراقي الحالي معطَّلة في أساسها، لأنَّه يوجد تمييز رسمي بسبب اللغة، وأنا بدوري أعاني من هذه العصبية، وغيري الكثير يعانون، فبسبب ظروف سياسية وتهجير قسري وُلِدْتُ في مدينة بغداد، ونشأتُ في مدينة الموصل، فهل يجوز تعميم صفة الخيانة لكلِّ من يتكلَّم لغةً معينة، أو لا يجيدُ لغةً أخرى؟ أليس هذا من أشرس أنواع التميز العنصري على أساس اللغة؟ التميز بسبب اللغة، تميز لم ينص على حظره دستور العراق الحالي، فقد نصَّت المادة 14 (العراقيون

(27) ناجي أبي عاد وميشيل جرينون، النزاع وعدم الاستقرار في الشرق الأوسط، ترجمة محمد نجار، دار الأهلية، ط1، 1999، عمَّان، ص128.

متساوون أمام القانون دون تمييزٍ بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي). ولم يذكر الدستور اللغة، يقول جان جاك روسو: (اللهجات تتمايز ضمن الكلام، وتتقارب بل تندغم ضمن الكتابة، بحيث يرجع كلُّ شيء إلى نموذج مشترك، والأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم، تذوب لهجاتها، فلا تبقى في الأخير إلا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلاً، ولا يكتبُ أصلاً)[28]. ولأننا أمةٌ لا تقرأ ولا تتعلّم لن تذوب اللهجات وستستمر حرب اللغات كنوع من التمييز العنصري والصراع المكبوت، ومن الجانب الثقافي سأحيلُ على مثلٍ شخصاني: أكتبُ باللغة العربية، لا يعتبرون ما أكتبهُ أدباً عربياً: لأنني كردي، ولأنني أكتبُ باللغة العربية، لا يعتبر الكرد ما أكتبه أدباً كردياً.

ومن جانب المعاملات الرسمية: لا تعترف الدوائر الرسمية التابعة للحكومة الفيدرالية بالوكالات الخاصة أو العامة الصادرة عن الكاتب العدل في محافظات إقليم كردستان، وبالمقابل تفرض إدارة التربية في محافظات الإقليم تعليم اللغة الكردية على الوافدين، وحتى الذين حصلوا على موافقات إقامة من مديرية الشؤون الداخلية للمحافظة، فضلاً عن الخلافات الجوهرية والتخلف العلمي الذي أصاب طلبة منطقة بهدينان لإجبارهم على الدراسة باللهجة السورانية، وفي مثالٍ آخر من التاريخ الحديث الذي يثبتُ أنَّ اللغة تكون مصدراً للمنازعات، فإنَّ البهدينانية والسورانية لهجتان مختلفتان من اللغة الكردية الأم، وربما كان الصراع بين هاتين اللهجتين السبب الوحيد الذي دفعَ ملا أفندي (مه لاي كه وره) وهو حاكم الشرع في كويسنجق، إلى أنْ يهزأ (من احتمال قيام الكرد في شمال ولاية الموصل بالتوحّد، وحتى إذا تمَّ ذلك فلن يلتحق

(28) روسو، محاولة في أصل اللغات، ترجمة محمد محجوب، دار الشؤون الثقافية، 1986، بغداد، ص47.

الكرد في كردستان الجنوبية بتلك الدولة)[29] وأرجع ميخائيل ليزنبرغ الصراع الدامي الذي وقع بين الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني بأنَّهُ (انفصام قائم منذ البدء بين الناطقين باللهجة الشمالية أو البهدينانية والناطقين باللهجة الجنوبية أو السورانية)[30]، ويعدُّ إتقان اللهجتين قراءة وكتابة مدعاةً للفخر (وهو في هذا العمر ما زال يقرأ باستخدام النظارات الطبية، الكتب الكردية بلهجتيها الرئيستين)[31]. وإنَّ صراعاً غير منظور، يحتدم في الخفاء بين مثقفي اللهجتين الشقيقتين، صباح اليوم الثالث للملتقى الأول للقصة القصيرة في مصيف صلاح الدين، المنعقد للفترة 20-25/ 8/ 1978، في الصباح كان الضيوف في زيارة إلى مدينة شقلاوة، ولهذا احتدمَ النقاش بعد تقديم محيي الدين زنكنة لمحاضرة القاص حسين عارف الذي جردّ القصص القصيرة الكردية المنشورة للفترة 1925-1975 فبلغت 1100 قصة، واستنبط عدة استنتاجات منها (فهرست القصة يدلنا على ظاهرتين بارزتين لهما مدلولهما ومغزاهما التاريخيان. الأولى هي انتساب الأكثرية العظمى من كتاب القصة الأكراد إلى منطقة السليمانية.. والثانية غياب الكتابة في هذا اللون الأدبي الجديد تقريباً باللهجة البادينانية، وأكتفي بالإشارة إليهما فقط دون التعليق عليهما، ذلك لأن الحديث بشأنهما ذو شجون)[32]. والصواب أنْ يكتب ذا شجون، ولا أدري ما المقصود بأنَّ الحديث عنهما ذا شجون؟

---

(29) رسالة من الضابط البريطاني السياسي في السليمانية إلى المندوب السامي البريطاني في العراق، د. عثمان علي، الكرد في الوثائق البريطانية، مؤسسة موكرياني، 2008، ص137.

(30) الاثنية، ص242.

(31) محسن عبدالرحمن، الحب في زمن الألم، ترجمة سامي الحاج، وزارة الثقافة، 2011، أربيل، ص26.

(32) ملتقى القصة الأول، منشورات وزارة الثقافة والفنون، 1979، بغداد، ص135، 136.

لماذا تؤمّن حكومة السويد لأطفال عرب أو كرد أو فرنسيين أو ألمان مدارس خاصة بلغتهم الأم؟ لأنّه ليس صعباً على المواطن السويدي ولا الأوروبي أن يفهم أنَّ أطفالاً لوالدين فرنسيين أو عرب أو كرد لا يعرفون اللغة السويدية لأنّهم يتحدثون لغتهم الأم في البيت، ولهذا لن ينجحوا في دراسة العلوم إلا بلغتهم الأم، وهذا أمرٌ طبيعي أن يحظى المهاجر بهذه الحقوق والمساواة في دول الغرب، ويُحرمُ منها في وطنه الأم، فَتُفرض عليه لهجة أو لغةُ لا يجيدها، وليس له ذنبٌ في مسقط رأسهِ، ومحل ولادته في عراق لم يخلُ يوماً من التهجير والنفي وتغيير السكن جبراً بفعل نظام الدولة القسري، وبالطبع لا تنطبق هذه القوانين على الأغنياء، لأنّهم يزورون الوزراء في بيوتهم، ويدخلون مبتسمين ويخرجون ضاحكين!! ولأولاد الطبقة المتوسطة أن لا يحلموا بالمجموعة الطبية "وليس ثَمَّ مِنْ مفر، لا تحلموا بعالم سعيد، فخلف كلّ قيصر يموت: قيصرٌ جديد". نحنُ نبني قواعد التمييز العنصري، بسبب تعليمات عقيمة تحت مظلة قومية واهية طوباوية، ونؤسِّس لحرب اللغات، بينما لا يوجد أدنى سبب موضوعي لذلك، والاغتراب الذي كان المواطن العراقي يعانيه جرَّاء السلطة القمعية تحت مظلة قومية وانعدام الثقة بالأقليات، باقٍ، فما زال بعض الوزراء والمدراء تصدر عنهم لوائح وتعليمات تتنافى مع حقوق الإنسان والحريات العامة التي أقرَّها الدستور العراقي.

طلبٌ يصل بيد السيد الوزير فيكتب عليه (حسب التعليمات - مصطلح إداري يعني غير موافق، لأنَّ التعليمات لو كانت تتفق مع الطلب، لما استحق الطلب أنْ يصل إلى يد الوزير)، وطلب آخر بعين الفحوى يكتب عليه (موافق) وهذا يذكرني بمثال لوسيان فافر حول تاريخ الذهنيات (في الصباح الباكر غادرَ ملك فرنسا فرانسوا الأول (1515-1547م) فراش عشيقته ليعود متخفِّياً إلى قصره، فمرَّ أمام كنيسة في

الوقت الذي تُقرعُ فيه النواقيس إيذاناً بوقت الصلاة، فأثَّرَ فيه ذلك، وحضرَ القدّاس والصلاة في خشوع)[33].

وفي عام 1539 م قام فرانسوا الأول باستبدال اللغة الفرنسية، باللاتينية، في دواوين الدولة، قرارات المحاكم وسجلات الحالات المدنية، ولكن هذا الاستبدال لم يدمْ طويلاً.

يتساءل مأمون فندي: (لو قلت إن أعنف المظاهرات المصرية وأكثرها عدداً هي التي كانت في ميدان السادات، أو هل سيفهمني أحد لو قلت إن أكبر مظاهرة في مصرَ حدثت في السادات؟)[34]. لأنّ ميدان التحرير اسمه الرسمي: ميدان السادات، ثلاث محطات رئيسة في مترو الأنفاق في القاهرة عنونتها الحكومة رسمياً بلافتات كبيرة تحت الأرض وفوق الأرض: محطة مبارك (المعروفة شعبياً باسم رمسيس) ثم محطة جمال عبد الناصر (محطة الإسعاف) ومحطة السادات (محطة التحرير)، ويكمل فندي (لا يوجد إنسان في مصر وقف أمام شباك تذاكر المترو وطلب تذكرة للسادات أو مبارك أو عبد الناصر.. هم يطلبون تذكرة للتحرير أو رمسيس أو الإسعاف. مصر الرسمية: " مبارك، عبد الناصر، السادات في محطات المترو" التي تتحدث عنها الحكومة لا يعترف بها الشعب، الشعب له مصره الأخرى، مصر الواقع المعيش: "رمسيس، الإسعاف، والتحرير"). وهذا الأمر يحدث أيضاً في جميع مدن العالم، فالحكومة تضع أسماء غريبة على شوارع معروفة لدى الناس بأسمائها القديمة، فمنطقة شاخكي، نسبةً إلى قرية شاخكي، يسمونها أهالي محافظة دهوك حي الملايين، وهكذا بالنسبة إلى معظم المناطق الأخرى،

---

(33) جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة د. محمد الطاهر، المنظمة العربية للترجمة، 2007، بيروت، ص277.

(34) جريدة الشرق الأوسط، العدد 11759، في 7/2/2011، مأمون فندي، رمسيس أم مبارك، ص9.

وأحياناً تكون أسماء طريفة، كحيِّ الجزمة، وذلك لأنَّ الطرق فيها موحلة، ويتوجب على الماشي أن يحتذي جزمة.

هل يمكن تخطيط اللغة؟

بحسب فيشمان التخطيط اللغوي هو "تطبيق الحكومة، لسياسة لغوية ما".

بسبب بطش فرانكو الإسباني مارس اللسانيون الكتلانيون في نضالهم من أجل لغتهم، أسلوب التغليف، لتحاشي الوقوف ضد التخطيط اللغوي للدولة، والتغليف يعني عرض المنتوج نفسه، بتسميات أخرى، كانوا يبحثون ترقية لغتهم، وتطويرها، لأنَّ الدولة كانت قد سَخَّرت إمكانياتها كافة، لتطوير اللغة الإسبانية المهيمنة، وبحسب علي الوردي فإنَّ انهيار الحضارة العربية، كان لأسباب لغوية في الدرجة الأساس، اللغة العربية لم تستطع مجاراة التطور العلمي، وكعادته يدعم نظرياته بحكايات طريفة (مصلحة نقل الركاب في بغداد كتبت في باصاتها رجاءً إلى الركاب أن يساعدوا الجابي "بأصغر نقد كافي"، وهنا ثار النحويون يريدون أنْ تُكتب " كافٍ"، بدلاً من "كافي"، فلم تكترث المصلحة لثورة النحويين، وأبقت الكلمة على رغم أنوفهم، المصلحة تريد أنْ يفهم الركاب مقصدها من العبارة، ولا يهمها أن يغضب النحويون أو يرضوا).[35]، مصلحة نقل الركاب تريد مساعدة الجباة على جباية الأموال، وتقليل الزحمة، وتسهيل الأمور، وليس من أهداف مصلحة نقل الركاب الالتفات إلى ثورة النحويين، وقد ذكر ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين الكثير من طرائف النحويين (قدم على أبي

---

(35) علي الوردي، أسطورة الأدب الرفيع، دار دجلة والفرات، ط1، 2009، بيروت، ص149.

علقمة النحوي ابن أخ له من سفر، فسأله أبو علقمة: قال رجل لصديق له: ما فعلَ فلانٌ بحمارِهِ قال: باعِهِ، قال: باعَهُ، قال: فَلِمَ قلتَ بحمارِهِ؟ قال: الباء تجر، قال: فَمَنْ جعل باءك تجر وبائي ترفع. وَقَدَمَ على ابن علقمة النحوي ابن أخٍ لهُ فقال له: ما فعل ابوك؟ قال: مات، قال: وما فعلت علته. قال: ورمت قدميه. قال: قُلْ قدماه، قال: فارتفع الورم إلى ركبتاه، قال: قل ركبتيه. فقال دعني يا عم فما موت أبي بأشد عليَّ من نحوك هذا).

السلطة الحاكمة من شأنها الانحياز دوماً إلى لغةٍ بعينها، ولهجةٍ بعينها، هذا الانحياز هو أحد أسباب الصراع بين اللغات المتعايشة، أو بين اللهجات المحلية، ضمن اللغة الواحدة، وكل مجموعة تعتزُ بلهجتها، ولكن لم يحدث أنْ حاولتْ مجموعةٌ ما، بغياب تأييد السلطة الحاكمة فرض لهجتها على الآخرين بدعوى توحيد اللغة، يذهب الموصليّ إلى بغداد، وبعد أول عبارة ينطق بها يعرف البغدادي أنَّ هذا قادمٌ من الموصل، وكذلك لهجة أهالي جنوب العراق، وكذلك الأمر في محافظات كردستان، فاللهجات مختلفة (سورانية وبهدينانية) وداخل كل لهجة رئيسة لهجات ثانوية، فأهل عقرة يتكلمون بطريقة مختلفة عن أهل عمادية، وهكذا دواليك، وهناك من ضِعاف النفوس من يغيّر تعامله بحسب لغة الآخر أو لهجته، فيستغلُّ سائق التاكسي زبونه حالما يعرف من لهجته أنَّهُ غريب قادمٌ من مدينةٍ أخرى لأجل زيارة طبيب أو لشأنٍ آخر.

(إنَّ اللفظ المركب تخطيط اللغة (language planning) قد ظهر في 1959 على يد إينار أوجن عند دراسته المشاكل اللغوية للنرويج، وكان همه تقديم المسعى التقييسي التوحيدي، بواسطة القواعد الإملائية للدلوة لبناء هوية وطنية بعد قرون من الهيمنة الدانماركية)[36].

---

(36) لويس جان كالفي، السياسات اللغوية، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009، بيروت، ص8.

في الأردن هناك تحوُّل من لهجة إلى أخرى نتيجة التعايش، كما هناك تحول من اللهجات الفلاحية واللهجات البدوية عند النساء إلى اللهجات المَدنيَّة حيث الغُنْج والدلال، وعند الرجال من اللهجات المدنية واللهجات الفلاحية إلى اللهجة البدوية، بحثاً عن الفحولة. وفي إقليم كيبك التابع لدولة كندا، يتمسَّك الناس في تعاملهم اليومي والرسمي والتدريس والتربية والبحث باللغة الفرنسية، وكذلك لغة الشارع المصري، فلهجة الجنوب تختلف عن الشمال، وللصعايدة لهجة مختلفة، ولأهالي مدينة الاسكندرية لهجتهم حيث يتكلمون بصيغة الجمع مع استتار الضمير نحن، وربما تختلف لهجة حي المهندسين والزمالك عن لهجة السيدة زينب والمناطق الشعبية الأخرى، بالإضافة إلى ما في اللهجة المصرية من انحراف عن اللغة العربية، فالقاف تُسْتَبْدَل بهمزة والصاد بالسين (صندوق: سندوء) والجيم بالكاف (رجل: راكل) والذال بالدال (ذهب: دهب) والثاء بالتاء إذا كانت في بداية الكلمة أحياناً (ثعلب: تعلب/ ثعبان: تعبان، ثلج: تلك، ثامر: تامر، ثلاثة: تلاتة، ثوم: توم) وبالسين إذا كانت في الوسط أحياناً أخرى (تثبت: تسبت) مع وجود حالات شاذة (ثروة: سروة). والنوبي في جنوب مصر، يتحدث لغةً غير العربية، نظرت محكمة القاهرة للأمور المستعجلة في جلسةٍ ثانية في نهاية كانون الأول 2009 في الدعوى المقامة من النوبيين ضد الفنانة هيفاء وهبي، وذلك لوقف عرض أغنية 'بابا فين' التي اعتبرها النوبيون سباً وقذفاً في حقهم وأنها تعمدت السخرية في نطق لفظ 'القرد النوبي'، وهو الأمر الذي يؤدي إلى التمييز العنصري بين الأطفال، خصوصاً أن الأغنية موجهة إلى الأطفال. والنص الأصلي يقول (طب فين دبدوبي والقرد النوبي والأورغ الشرقي واللعبة الباربي وسبايدرمان). وفي القرد النوبي إشارة إلى دمية لقرد أسود اللون، ولأنَّ النوبي يعاني حرباً من السلطة تستهدف هويته الثقافية ولغته، لون بشرته، غضبَ من هذه الجملة، ولو أنَّ مطرباً تغنَّى بالبقرة الهولندية، لفرح الشعب الهولندي،

أو بالفيل الهندي، أو بالحصان العربي، لأنَّ هذه الشعوب تتمتَّع بهويات ولغات مهيمنة في أوطانها. ولكنَّ النوبي ربما يشعر بفقدان الثقة باعتباره أقلية، وهكذا تزداد حساسية الأقلية تجاه أيِّ مسٍّ باللغة أو اللون أو أحد مكوِّنات الهوية الجريحة.

الهوَّة بين اللغتين العربية والكردية

هل بالإمكان تجسير الهوَّة بين اللغتين العربية والكردية؟

الأدب هو نقطة التقاء وحيدة بين ثقافات شعوب العالم المختلفة، وذلك في سعيه الدؤوب إلى إيجاد مناطق مشتركة للوجود البشري وهمومه الأكثر إنسانيةً، والأدب في جوهره بنية لغوية خاصة، واختلاف اللغات واللهجات، هو السبب الوحيد للقطيعة بين هذه الثقافات، واللغة هي وحدها القادرة على تجسير الهوَّة، ويقول تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الروم: 22. والاختلاف الألسني هو من جانبين: عام: اختلاف اللغات واللهجات للأمم والشعوب والقبائل، وخاص من حيث اختلاف الأصوات من النغمة ورنَّة الصوت حتى لا يشتبه صوتا توأم.

إنَّ القطيعة بين اللغتين العربية والكردية تبدو دائماً في حقيقتها على أرض الواقع، أكبر بكثير مما تبدو للمعنيِّين بهذا الشأن، ولهذا لا يهتمُّ أحدٌ بتجسير الهوَّة، ومحاولة تحقيق تماس ومقاربة تمتدُّ طولاً وعرضاً في جميع الفعاليات الثقافية، يقول فيتجنشتاين: (أعتقد إننا لكي نستمتع بقراءة شاعر، لا بدَّ أنْ نكون محبين للثقافة التي ينتمي إليها، فإذا كانت لا تهمنا، أو كنا معادين لها، فإنَّنا لا نعود نهتمُّ به)[37].

---

(37) فيتجنشتاين، ملاحظات متنوعة، ص160، دار فلاماريون، باريس 2002. أدونيس، رأس اللغة جسم الصحراء، دار الساقي، ط1، 2008، بيروت، ص314.

ولقد ساقَ أدونيس هذا المثل كدليل على عدم اهتمام الغرب بالثقافة العربية، والمُضْمَر من وراء الدليل الذي ساقهُ: عدم نيله جائزة نوبل، ليس لعدم استحقاقهِ، بل لعدم اهتمام الغرب بالشّعر العربي. وهو قد استقى دليله من مصدر فرنسي، ربما لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، وفي كتابٍ آخر وهو من أهمّ كتب الفيلسوف اللغوي فيتجنشتاين يقول: (لا يمكنني أنْ أتفحّص كلمةً عربيّةً مطبوعةً دون أنْ تحدث بباطني عمليّة غريبة: أسمعُ بداخلي صوت هذه اللفظة)[38].

ماذا يعني عدم اهتمام الغرب بالأدب العربي؟ يعني في أحدِ جوانبهِ غُصّةً في فؤاد المثقف العربي، وهو ما رأيته في كلام الشاعر لطيف هملت حين اشتكى من أنَّ الأدب الكردي غير مقروء من قبل المثقفين العرب، بينما المثقف الكردي يتابع بشغف جميع الإصدارات العراقية والعربية، والمثقف العربي بدورهِ يعترفُ بهذه الحقيقة دوماً، ولكنَّه يبرِّر بتقصيرٍ من جانب المثقف الكردي في إيصال صوته مترجماً إلى اللغة العربية. هناك جيل جديد من الشعب الكردي نشأ نتيجة ظروف سياسية مُعَيَّنة ومعروفة، وهو من مواليد 1985 فصاعداً إلى هذا اليوم، لا يتقِنُ العربية، وغير مُهْتَمٌ بها، وبالتالي سوف لن يقرأ الشّعر العربي، ولا الأدب العربي، وغالباً ما يعترف بالغثيان الذي يصيبه وهو يسمعُ أنباء المهرجانات الثقافية المشتركة، هذا الغثيان ينعكِسُ على جيلٍ عربيٍّ جديد، نشأ على هذه القطيعة.

كيف يمكننا تجسير هذه الهوّة التي حدثتْ بسبب الساسة؟

مسؤولية الجواب والاهتمام والانشغال بهذا السؤال تقع على عاتق كلٌّ من المثقف الكردي والعربي على السواء، وليس من المروءة أنْ يرمي بالمسؤولية ككرةٍ مهملة في الجانب الآخر بِحُجَجٍ أقلُّ ما يُقال عنها

(38) فيتجنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة: د.عبدالرزّاق بنُور، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007، بيروت، مقطع 166، ص225.

إنها واهية. في بغداد وزارة ثقافة، وفي أربيل وزارة ثقافة مختصة بإقليم كردستان، وتكاد تكون بينهما قطيعة شبه رسمية، واتحادات للأدباء أيضاً، وصحف ومجلات، وكتب تعاني من الرفوف وسوء الخزن والتوزيع.

سؤال جاك بريفير (متى سيعلم السبعة الذين في زورق النجاة أنّنا ثمانية؟) ومتى سيتعلّم الإنسان أنْ لا يتجاهلَ أخاهُ في الإنسانية لغير ما سببٍ إلا لغته المختلفة؟ نحن لا نطمعُ في أكثر من استمتاع القارئ العربي أو الأجنبي بقراءة الشّعر الكردي، دون أنْ يتحسّس من الثقافة الكردية، ولكن كيف نجعلُ من هذا أمراً واقعاً؟ إنَّ الأدب العالمي الذي أنتجه الروائيون والشعراء الفرنسيون، هو الذي يصنع صورة بهيَّة للفرد الفرنسي، أو للمثقف الفرنسي لدى الوعي الاجتماعي عند الآخر المختلف، وكذلك فعل الأدباء الروس، من تولستوي الذي حين هاجمَ نابليون ووصفه بصورة كاريكاتيرية مضحكة، لَمْ يَثُرْ عليه أحدٌ من مثقفي فرنسا، لأنَّهُ فعل ذلك بصورة غير مباشرة، بصورة فنيَّة ذات بعد جمالي رائع، ليس لأحدٍ إلا الوقوف منبهراً أمام هذه الصورة، والاحتفاء الجماهيري الذي يلقاه القتلة ليس غريباً عن الشعوب، فضريح نابليون في الأنفاليد، وضريح تيمورلنك في سمرقند المدينة الأوزباكستانية، والذي لم تنجُ زوجته من سيفه فقتلها كما فعلَ نيرون، سمرقند التي لم تشتهر بغير القصور التي شيدها السفَّاح تيمور من جماجم ضحاياه، والكثير من الضرائح أقيمت للسفَّاحين في دول العالم، وهؤلاء الذين يبكونهم ويتمنون عودتهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية وحرمة دم الآخر المختلف.

واندثرت الكثير من النصوص التي كانت تُمَجِّدُ نابليون رغم استبداده وتجبُّره، لكلٍّ من هيغو والفونس دي لامرتين، وستاندال الذي صاحبه في بعض حملاته يقول في كتابه "نابليون" (لقد كان ديننا الأوحد، إنَّه صورة الطاقة الشاملة للقرن التاسع عشر، وإنَّ أي بطل

حديث يحمل بالضرورة: انعكاساً من حياة نابليون التي كانت أنشودة لعظمة الروح)[39].

بينما قال ليو تولستوي وهو أمام ضريح نابليون في الأنفاليد سنة 1857 حيث صَرَخَ مخاطباً ذاته: "إنَّهُ لأمرٌ رهيب أنْ يُكَرَّم هذا الفاسق". وربما كانت هذه الرهبة التي شَعَرَ بها تولستوي هي التي دفعته لانْ يتفرَّغ أربع سنوات ليكتب رائعته إلياذة العصور الحديثة "الحرب والسِّلم" 1865- 1869 .

اللغة الكردية: مَجْنِيّ عَلَيْها.. في الأمس واليوم

طُرِدَ هارولد بنتر من احتفال في السفارة الأمريكية في تركيا أقيم على شرف الكاتب آرثر ميلر عام 1985، وكان بنتر يرافقه في جولته التركية، وفي أثناء الحفل بدأ بنتر بالحديث عما سمعه من وجود شعب مضطهد ممنوع عليه أن يتكلم بلغته، ومحروم من هويته يُطلق عليه اسم (أتراك الجبل) فما كان من السفير الأمريكي إلا أنْ أمَرَ بطرده " حِفَاظَاً على المصالح الأمريكية في تركيا" فتضامنَ معه صديقه ميلر وغادر الحفل، وعن هذا الشعب كتب بنتر مسرحيته "لغة الجبل/ 1988". التي طوَّفَت في الآفاق وامتنعت عن كردستان!!![40]

هل للغة الكردية أعداء؟ ومن أين جاءَها الأعداء؟ والذين يعادونها علام يرتكزون؟ وما هو هدفهم؟ نعم للغة الكردية أعداء من غير الناطقين بها، كمصطفى كمال أتاتورك الغابر، وحزب البعث، والفرس، لكن اللغة الكردية انتصرت ككلٍّ اللغات الحيَّة، شيمتها الانتصار..

---

(39) فيكتور هيغو، مقدمة كروموبل، ترجمة د. علي نجيب إبراهيم، دار الينابيع، 1994، دمشق، ص36.

(40) بعدما نشرتُ مقالتي عن هذه المسرحية بعنوان "أيها الطاغية أين تريد؟" في العدد 217 من مجلة الصوت الآخر عام 2008، قام البعض بتقديمها على خشبة المسرح.

اللغة الحية تتطور: أما اللغة التي يتعصَّبُ لها قومها فإنَّها تندثر وتموت، وقال الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة: 3، ولم يقلْ أكملتُ لكم لغتكم، لكنَّ المتشددين وَسَّعُوا دائرة الإكمال في خدمة المُحرَّم، فقالوا اللغة العربية كملت وتَمَّتْ على عهد الرسول ولا يجوز لأحدٍ أنْ يبتدِعَ مصطلحاتٍ جديدة، بينما تطوَّرت العلوم واللغات، يقول الدكتور نعمة رحيم العزّاوي: (وقد نبَّه الزيات إلى أنَّ مذهب التزمت في اللغة وإغلاق باب التجديد أدّى إلى ظاهرتين خطيرتين: "الأولى طغيان العامية طغياناً حَصَرَ اللغة الفصحى في طبقات العلماء والأدباء والشعراء، يكتبون بها للملوك ويؤلفون فيها للخاصة..لأنَّ العامية حرة تنبو عن القيد..فهي تقبل من كل إنسان وتستمد من كل لغة..الثانية: حرمان الفصحى كل ما وضعه المولدون من الألفاظ، وما اقتبسوه من الكلمات لأنَّ اللغويين الذين أقاموا أنفسهم على أسرار اللغة مقام الكهنة على أسرار الدين..حرموا اللغة مورداً ثرّاً، كان يقيها الجفاف والذبول ويؤتيها النَمَاء والخصب)[41]. وهو يقصد الشعراء التقليديين لا المُجَدِّدين الذي يعملون على تطوير اللغة.

يقول ابن جني: (مقاييس اللغة العربية ضربان: أحدهما معنوي والآخر لفظي...فإن أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي، ألا ترى أن الأسباب المانعة من الصرف تسعة: واحد منها لفظي وهو شبه الفعل لفظاً، نحو أحمد، وإستبرق، والثمانية الباقية كلها معنوية، كالتعريف، والوصف، والعدل، والتأنيث، وغير ذلك.. ومثله اعتبارك باب الفاعل والمفعول به ـ رفع الفاعل ونصب المفعول ـ لاعتبار معنوي لا لفظي...

---

(41) د. نعمة رحيم العزاوي، أحمد حسن الزيّات: كاتباً وناقداً، دار الرشيد، 1982، بغداد، ص66، 67. الزيات، وحي الرسالة، ج3، ص195، 196.

من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب)[42].

كان ابن جنّي من دعاة 'اللغة كائن بيولوجي قابل للتطور'، وخالفه الكثير في مذهبه، منهم أحمد بن فارس الذي وإنْ كان يوافق ابن جني في أنَّ للغة قياساً، ولكنَّه يأمر بالتوقف عند ما انتهى إليه القدماء، يقول السيوطي: (قال ابن فارس: لغة العرب، هل لها قياس؟ وهل يشتق بعضُ الكلام من بعض؟ اجمع أهل اللغة ـ إلّا من شذَّ منهم ـ أن للغةِ العرب قياساً، وأنّ العرب تشتقُّ بعض الكلام من بعض، واسم الجنّ مشتقٌّ من الاجْتِنان، وأنَّ الجيم والنون تَدُلّان أبداً على السّتر، تقول العرب للدِّرْع: جُنَّة، وأجَنَّه الليلُ، وهذا جَنين، أي هو في بَطْن اُمّه. وأن الإنس من الظهور، يقولون: آنَسْتُ الشيء: أبْصَرْتُه. وعلى هذا سائرُ كلام العرب، عَلِم ذلك مَن عَلِم، وجَهِله من جهل...أن اللغة توقيف، وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غيرَ ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبُطلانَ حقائقها)[43].

اللغة نموذج بيولوجي

البقاء والاندثار يتقاسمان القوي والضعيف، والمرونة أقوى من القوة نفسها، تقول الأمريكية روث غاريت ميليكان أستاذة الفلسفة في جامعة كونيتيكت في كتابها 'اللغة نموذج بيولوجي': (إن مبادئ اللغة غير تقييمية بل هي أشبه بالوظائف التي تؤدي إلى بقاء الأجناس

(42) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الخصائص، باب في مقاييس العربية، ص31.

(43) جلال الدين السيوطي، المزهر، النوع الثالث والعشرون: معرفة الاشتقاق، ص106. وذكره ابن فارس في الصاحبي باب القول على لغة العرب هل لها قياس، ص11.

البيولوجية حية. بكلام آخر، مبادئ اللغة مبادئ بيولوجية، ومن هذه المبادئ مبدأ قول الحقيقة في خطابنا)[44].

والمبادئ البيولوجية هي التي تتعلق بوظائف أعضاء الكائنات الحية، ومن مبادئها مبدأ التشابه والاختلاف بين هذه الكائنات، ومبدأ الوراثة، تقول عنه ميليكان: (إنَّ بعض الأنواع اللغوية في التعبير تستمر في التداول لأن إنتاجها ونتائجها تفيد كُلاً من المتكلم والمتلقي. هذا شبيه بما يحدث للكائن البيولوجي الذي يكتسب الصفات التي تخدم بقاءه حياً)[45]. وهذا مبدأ التكيُّف، أي التهيؤ والاستعداد الذاتي للكائن الحي لأن يعيش تحت ظروف بيئته التي خلق فيها، واللغة أيضاً تتكيَّف بحسب الظروف والمقاصد، فقد تدلُّ نبرة صوت المتكلم عن الوظيفة التي يريدها من لغته. وتقول ميليكان: (كما أن البشر يكررون التصرفات الناجحة في تحقيق أهدافهم، يتم تكرار أشكال لغوية معينة لأنها مفيدة في الوصول إلى نجاحاتنا كبشر. هذه الأنواع اللغوية كعبارات الشرط مثلاً، تشكل الأعراف اللغوية. فالأعراف اللغوية تنشأ وتنتشر لأنها تقدم حلولاً لمشاكل المتخاطبين)[46]. ومن هنا، تستمر أشكال لغوية معينة، لأنَّها نجحت في فرض الاستجابة التي ينتظرها المُرْسِل من المُرْسَل إليه، وبهذا تستمر هذه الأشكال بالبقاء وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض المعاني حتى تسود ويتشكَّل منها العقل السائد.

والمعنى السائد يتأتَّى من العقل السائد (الجمعي) كما يساهم في ترسيخه، فالشِّعر أحياناً يُرَسِّخُ الكثير من المعاني ويسوِّدُها في المجتمع، يقول ابن رشد: (والصنف الثالث أن يستعمل من الأسماءِ الموضوعة،

---

(44) Ruth Millikan: *Language: A Biological Model*. 5002. Clarendon press. Oxford.p.190.

(45) المصدر السابق، p 64.

(46) المصدر السابق، p55.

وهي المنقولة، ما لا يخيل منها المعنى الذي نقلت إليه، للاشتراك الذي فيه والعموم وكثرة ما يدخل تحته، أو ما يخيل منه عرض بعيد، أو ما يخيل منه زمان غير الزمان الذي وجد فيه المعنى...وكذلك الشيءُ الذي ينقل إليه اسم جنسه...وأما الذي يخيل زماناً غير زمان، فمثل أن يدل على الفعل المستقبل بالكلمة الماضية، أو على ما وجوده في غير زمان بالكلمة الدالة على الزمان. فهذه الأصناف لا ينبغي أن تستعمل في الخطابة. وهي تستعمل في الشعر، أعني التي تخيل في الشيءِ عرضاً بعيداً. والأسماءُ المنقولة أول أمرها تكون غريبة. وهي حينئذ أخص بالشعر. فإذا تمادى الزمان بها وصارت مشهورة، وصلحت للخطابة. فإن اشتدت شهرتها، عدت في أصناف المُسْتَوْلية)[47].

ليست الألفاظ "الغريبة أخصّ بالشعر" فحسب بل بالأدب بشكلٍ أعم. واستناداً إلى تغير وظيفة الشّعر، تبرر نازك الملائكة لحركة الشعر الحر(إنَّ العوامل الاجتماعية لانبثاق الشّعر الحر كثيرة لكننا سنحصي منها أربعة...1- النزوع إلى الواقع.. 2- الحنين إلى الاستقلال: يحب الشاعر المعاصر أن يثبت فرديته باختطاط سبيل شعري معاصر يصبُّ فيه شخصيته الحديثة التي تتميز عن شخصية الشاعر القديم.. 3- النفور من النموذج.. 4- إيثار المضمون: ...إنَّ الشاعر الحديث يرفض أنْ يقسّم عباراته تقسيماً يراعي نظام الشطر، وإنما يريد أن يمنح السطوة المتحكمة للمعاني التي يعبِّر عنها)[48]، وهذه العوامل متوافرة، ولكنَّها بحاجة إلى شاعرٍ مُستعد للدفاع عن مشروعه.

---

(47) ابن رشد، تلخيص الخطابة، باب القول في الألفاظ المفردة، تحقيق د.عبدالرحمن بدوي، ص110.

(48) نازك الملائكة، قضايا الشّعر المعاصر، مكتبة النهضة، ط2، 1965، بغداد، ص42، 48.

الصراع الداخلي

بين دعاة الكتابة بالحرف اللاتيني ودعاة الكتابة بالحرف العربي، ولماذا التميز؟ فليكتبْ كلٌ كما يحب ويتقن. بين دعاة اللهجة البهدينانية واللهجة السورانية، فليتكلّم كلٌ كما يحب ويتقن، أما إذا حاول أحدهم فرض لهجة معينة بقوة القانون، فسيفشل كما فشل الذين سبقوه. وإنَّ هجرة الحرف العربي تعني اندثار أصالة الأدب الكردي ونصوص أحمد خاني وملا جزيري وغيرهما، ثمَّ ظَهَرَ رد فعل للظرف السياسي الخاص للأكراد، من حروب وتهجير وتعريب قسري، بمعاداة اللغة العربية، وبدأ إقبال الكرد على لغات أخرى كالعربية، لأنّها لغة الدراسة وبها تُنال الوظيفة ويتحقق المعاش بالتجارة أو التعامل، فنشأ جيلٌ لا يتقن الكردية كتابةً وقراءة حيث لم تَكُنْ تحت أيديهم، لكن بعد عام 1991 تغيَّرت الدراسة إلى اللغة الكردية في ثلاث محافظات، في اثنتي عشرة مرحلة، ومن ثمَّ بعدها يلتحق الطالب بالكلية ليقرأ باللغة العربية أو الإنكليزية، ونشأ جيلٌ لا يتقن العربية قراءة وكتابة، وَظَهَرَ فقره إلى المراجع المترجمة إلى اللغة الكردية وبهذا اضطربَ قطاع التعليم، والتعليم يعشق الاستقرار.

بماذا انتفعَ أعداء اللغة الكردية؟ بماذا سينتفع أعداء اللغة العربية من الكرد؟ حتى لو أنَّ كردستان استقلّت عن العراق، فماذا سيضرُّ لو أنَّ الشعب الكردي يتقن اللغة العربية مع لغته؟ وهل ستكون اللغة العربية عائقاً ضد الاستقلال؟ فلماذا ما زال هناك الكثير من الدول غير الألمانية تعتمد الألمانية كلغة رسمية؟ حضرتُ ندوةً لأحد أدباء تركيا حول الفلكلور الكردي، وبعدما انتهى كان أحد الجالسين يحصي عليه عدد الكلمات العربية التي نَطَقَ بها ليعيب عليه لغته الهجينة، ولكنْ شخصاً آخر اعترضَ على المُعترِض: وأنت تعترض عليه بكلمات قليلة نَطَقتَ

أكثر من عشر كلمات عربية، فردَّ الأول: هذا لأنني أتكلم على سجيَّتي ولستُ محاضِراً!!!! 'على سجيَّتي' يعني بدون نموذج، فاللغة تنفرُ من النموذج وتريد أن تنساب كمياه النهر، فلماذا لا يدعُ اللغة الكردية على سجيتها؟ لماذا لا تأخذ من هذه اللغة وتلك ما يخدمها؟ ألا توجد طريقة أخرى لإثبات الإخلاص القومي الأجوف؟ أليس إخلاصُ صديقٍ جاهل أشدُّ ضرراً من عداوة عاقل؟ أليس الإخلاص الحقيقي يتنافى مع الكراهية والأحقاد؟ هل يعرف هذا أنَّ دعوته تُجمِّد اللغة الكردية وتمنعها من التطور؟ هل سمع هذا بشعر ييتس (بالأحجار التي رميتموني بها، بنيتُ أنا جداراً لبيتي)؟ ألا يعلم أنَّ اللغة حرَّة تنبو عن القيود، وهي ضلعٌ مهمة من ثالوث الإنسانية (اللغة، الفكر، التاريخ)؟.

وللغة الكردية أعداء من الناطقين بها، والتي ما زالت تخوض معهم صراعاً مريراً وغير منظور، فبعض المتعصبين يرومون قتل اللغة الكردية بفرض قوانين صارمة لتوحيدها أو تطويرها كما يزعمون، فرنسا احتلَّت الجزائر لأكثر من قرن، وفشلت في فرنستها، وتحكّم الأتراك معظم البلاد العربية لقرون طويلة، واتبعوا سياسة تتريك، ولكنَّهم فشلوا، وكذلك جميع الدكتاتوريات فشلت في فرض لغة معينة على الأكراد الذين عادوا إلى لغتهم بعد قرون طويلة من الكفاح، فاللغة أهم وأخطر عناصر هوية الإنسان، التي حين يتخلَّى عنها يكون قد تخلَّى عن روحه. وبتوحيدهم المزمع فرضهُ يريدون إلغاء المترادفات التي تغذِّي اللغة، والتي لا تكاد لغة تخلو منها، فمترادفات العربية نشأت عن اللهجات المختلفة مثل السكين والمدية، فالأولى لغة العرب عموماً، والثانية لغة قبيلة دوس. فقل مدية أو قلْ سكيناً، لن يضيرك ولا اللغة شيء، ولو كان في توحيد اللهجات وتجميد اللغات بمنعها عن القياس والاقتباس خيرٌ، لأمرَ الله تعالى ورسوله بذلك، ولتسابقت الأمم في هذا المضمار.

أزمة الهوية الكردية لغوياً

هي أزمة في جوهرها اجتماعية وسياسية واقتصادية، لأن التاريخ (مسيرة لكن بدون ذات) بحسب لويس ألتوسير، سوف نحاول التخلص من الأنا التي يسميها شتراوس طفل الفلسفة المدلل الذي يقف حجر عثرة في وجه كل عمل جدي، نتيجةً لرغبة الأنا المستمرة في الاستحواذ على كل انتباه، أرجو من القارئ أن يتخلص من الأنا، ذلك الطفل المدلل الذي سوف يفسد عليه فهمه، ويقول ف. تولي أستاذ اللغات في جامعة أوبسالا: (بما أنَّ اللغة أداة، فإنَّهُ بالإمكان تقويمها وتغييرها وتصحيحها وتحسينها كما إنَّه بالإمكان ابتداع لغات أخرى دون قيد)[49].

إنَّ تفضيل الأنا على الغير، من شأنهِ تعطيل الفكر النقدي، بالتقوقع داخل اتجاه خاطئ في إثبات الهوية بتقديم مسألة حماية اللغة على تنميتها، يقول لايبنتز: (إنَّ اللغة هي أقدم شواهد الفكر البشري، وعلى كلِّ أمة أنْ تحمي لغتها وتنميها لأنَّ كل التواريخ تتفق على القول إنَّ الأمة قد ازدهرت في الوقت نفسه مع اللغة)[50]، كيف تزدهر اللغة ونحن نحاول تجميدها بحجة تنقيتها أو حمايتها أو توحيد اللهجات؟ يعاني الشعب الكردي مشاكل لغوية تبدو بلا نهاية، بسبب ضغوط مورِسَت عليهم من ثلاث لغات (العربية، الفارسية، التركية)، وبعد قرون من التبعية والاقتتال الداخلي بين العشائر والقبائل الكردية، بدأت الدعوات إلى بناء هوية كردية مستقلة، منذ أحمد خاني (1650-1708) وغيره من الشعراء، قلق اللغة لم يفارق الشعب الكردي، حتى بعد

---

(49) لويس جان كالفي، السياسات اللغوية، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، 2009، الجزائر، ص21. جاء كلامه في كتابه (مقدمة لنظرية في تخطيط اللغة، 1968).

(50) لايبنتز، «مقالة في الميتافيزيقا»، ترجمة د الطاهر بن قيزة، المنظمة العربية للترجمة، 2006، بيروت، هامش ص11.

حصولهم على الحكم الذاتي بعد ربيع 1991، وربيع 2003، تم تسخير الوسائل الضرورية لبناء الهوية الكردية، وبدأوا بالدعوة إلى لهجة موحدة، استفاد البعض من هذا الاهتمام، والبعض الآخر لم يقدم شيئاً يتناسب مع الدعم المادي والمعنوي الذي توافر لهم، على العكس بسبب غياب التخطيط والرقابة عانت اللغة الكردية صراعاً بين مؤيدي الكتابة بالحرف اللاتيني والحرف العربي، وبين مؤيدي فكرة توحيد اللهجات، والحفاظ على اللهجات، وانعكسَ هذا الصراع سلباً على العملية التربوية، بسبب تغيير لغة المناهج الدراسية بشكل عاجل وغير مدروس، أدى إلى تعثر التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية خصوصاً، وانعكس التعثر على التعليم العالي في الجامعات، حيث انقلبت لغة الدراسة في كلية القانون إلى اللغة العربية، واختلفت اللهجة في كليات أخرى، ولهذا ازداد إقبال الطلبة على القواميس التي بدأت تنفد من الأسواق، قد كانت الحكومات المتعاقبة في إقليم كردستان العراق منشغلة بنفسها عن المشاكل اللغوية، ووسائل الإعلام والبحوث لم تتطلع على تجارب الشعوب، ولم تسأل: كيف يعيش المتخاطبون وضع التعدد اللغوي؟ ما هو أثر التعدد في العلاقات الاجتماعية؟ ما هو أثر العلاقات الاجتماعية في التكاتف والوحدة الوطنية؟ وأنتَ تتجول في مدينة دهوك، لن تُعدمَ منظر أطفال يحملون صناديق صبغ الأحذية على أكتافهم، وآخرين يبيعون المناديل الورقية، تعتقد منظمة 'حماية الطفولة' في دهوك أن تغيير المناهج الدراسية ولهجات التدريس أحد ابرز أسباب تسرب الأطفال من المدارس، حيث يشعر الطالب بالضياع لاضطراره إلى التعلم باللهجتين السورانية والبهدينانية، مما يؤثر سلباً في مستواه العلمي، والنزوح من المحافظات الأخرى سببٌ ثانٍ لعمالة الأطفال.

رغم ذلك مورست رقابة لغوية صارمة على وسائل الإعلام، لأنَّ اللغة كانت مقياساً للوطنية والإخلاص، كلما استطاع الكاتب أو المتحدث تنقية لغته من المفردات العربية، أنقذَ نفسه من الهمز واللمز

والطعن في إخلاصهِ لشعبه، أمَّا الاقتباس من اللغة التركية فلا ضرر منه، لكنَّ الاقتباس من الفارسية دليل قوي على مسيرة النضال والإخلاص، ومقاييس النضال الأقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة، هي عينها مقاييس المنافع والمكاسب المادية، وكانت وما زالت وسائل الإعلام الكردية كافة تطمح علناً إلى أنْ تكون مستقلة، لكنها لم تستطع التخلي عن الدعم الذي تقدمه الحكومة أو الحزب، وهذه الوضعية ليست غريبة كما قد يتصور البعض، فمعظم المؤسسات البحثية الغربية الفرنسية والأمريكية وغيرها واقعة تحت ضغوط ومصالح الشخصية المعنوية الداعمة، وما يتوجب البحث فيه، هو إنعاش المنهج العلمي في أداء هذه المؤسسات الإعلامية، بدءاً ما هو دور الإعلام في التنمية البشرية؟ من خلال قراءة لتاريخ الخطاب الإعلامي الكردي ومدى فعاليته الاجتماعية في منح الحقوق لِمَن هم محرومون من الحقوق، وزيادة وعيهم بضرورة التضييق على المترفين وواسعي الثراء كي يمارسوا دوراً أكبر في تحجيم ظاهرة الفقر والبطالة، مارسَ بعض المتفعين الجُدُد ضغوطاً بكلِّ ما يملكون من قوة لفرض وصاية فكرية على الشعب الكردي، لئلا ينكشف جهلهم وفراغهم الروحي، وكانت هذه الوصاية في ظاهرها محاولة في البناء الديمقراطي، وفي باطنها وحقيقتها حرباً على حرية الكلمة، والإبداع، هذه الحرية التي بدونها تصير الديمقراطية وعاءً فارغاً من المعنى، أو عنواناً زائفاً لحقائق مؤلمة، والاختلاف وحده هو الذي ينشئ حرية الكلمة، فإذا ما تمت محاربة ومحاكمة الاختلاف بتهمة الخيانة، هذه التهمة الجاهزة المتحركة التي وقفت كالأفعى هيدرا تهدِّد الكثير من المفكرين والمختصين وتمنعهم من الدخول في نقاش مثمر حول أمور مصيرية خطيرة.

اللغة الكردية لا تختلف عن لغات العالم الأخرى، ليست عقلانية في نموها، فهي تستجيب للحاجات الاجتماعية، وحين يكتشف المتكلم عجزه عن التعبير عن حاجة جديدة، يُسارعُ إلى الاقتباس من اللغة

الأقرب إليهِ، وليس في هذا الاقتباس خدشٌ للوطنية والإخلاص، بل الوقوف ضد نمو اللغة سوف يجعلها عاجزة عن مجاراة تنامي الطلبات الاجتماعية.

هذا المأزق اللغوي الحاد، الذي تناوله كدستوبيا جورج أورويل في روايته (1984)، منوِّهاً بخطورة الحرب اللغوية، حيث يسمي الدكتاتور نفسه بالأخ الأكبر، ويسمي وزارة الإعلام بـ(وزارة الحقيقة - ميني ترو في اللغة الجديدة - بناء هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض اللامع.. ومن مكانه كان باستطاعة ونستون أنْ يقرأ على الحائط الأبيض كتابة ذات أحرف كبيرة بارزة، هي شعار الحزب المؤلف من جمل ثلاث: الحرب هي السلام، الحرية هي العبودية، الجهل هو القوة.. كانت وزارة الحقيقة تتألف من ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، فضلاً عن أقبية تابعة لها تحت الأرض)[51]، الأخ الأكبر الذي يفهم حركة التاريخ والثورات بطريقة حاذقة تسمح له بتلقيح نظامه ضد السياسة، وبعد ممارسة أنواع الاستبداد كافة، يصل إلى مرحلة الاستبداد اللغوي كوسيلة للسيطرة على العقل الجمعي للشعب، فيبحث في اللغة، ويلغي ويعيد إنتاج بعض المفردات بما يتلاءم مع أهدافه، يصنع لغة جديدة، ويمنع الاتصال بدول الجوار والحضارات الأخرى، يُغير الحقائق التاريخية، يلفّق ماضياً جديداً، يعرض الحقائق بشكل مقلوب، حتى ترتبك العقول فلا تجد حقيقةً ثابتة ومؤكدة إلا الحزب الواحد، فتضطر للإيمان بها، والطرق التي ذكرها أورويل مستخدمة في عصرنا، فمن كثرة تهكم وسائل الإعلام بعبارة (الشعب يريد إسقاط النظام) وكثرة الطرائف بخصوصها، تم إهمالها، ولهذا كان تغيير الأسماء القبيحة من سنة الرسول صلى الله عليه وسلَّم،

(51) جورج أورويل، ١٩٨٤، ترجمة أنور الشامي، المركز الثقافي العربي، 2006، بيروت، ص10.

شَهِدَ رجلٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة حنين فسأله: ما اسمك؟ قال: غراب. قال: أنت مسلم. يقول لويس جان كالفي: (من جهةٍ أولى: محاولة تعديل الإحساس بالتجربة الاجتماعية عبر تعديل التجربة اللغوية، (Joycamp) أي مخيم الفرح، يعني مخيم الأشغال الشاقة، و(Minipax) وهو اختصار إنكليزي يعني وزارة الحرب، والفكرة الكامنة وراء ذلك، هي أنَّ المتكلمين يحللون تجاربهم عبر الكلمات، وإنَّ كل تعديل بالكلمة سوف يعدِّل إحساسهم بالعالم)[52].

هو عينه الذي تناوله بورخس في قصته (ذاكرة فونس) بصورة فنتازية مدهشة (وكان الهجاء على النسق الذي دعا إليه أندرس بيبو: كتابة حرف I بدلا من حرف Y وحرف J بدلاً من حرف G في مبدأ الأمر خشيت بالطبع أنْ تكون مزحة، لكن أبناء عمي أكدوا لي عكس ذلك، وأنَّ تلك كانت شيمة إيرينيو، لم أدر إلامَ أعزو فكرة أنَّ اللاتينية الوعرة لا تستلزم أداةً أخرى سوى المعجم: إلى جهل أم تبجح أم حماقة). ثمَّ يبدأ أندرس بيبو يروي قصة جموح الحصان به وإصابته بالشلل وذاكرته التي صارت لا تنسى شيئاً البتة، صار باستطاعته (استعادة الأحلام كافة بين اليقظة والحلم، لكن كل يوم مستعاد كان يستغرق يوماً كاملاً.. صوت فونس كان صادراً من الظلمة ظل يتحدث: قال لي بأنه كان اخترع نظاماً أصيلاً للعد، وإنَّه في أيام معدودة تخطَّى رقم أربعة وعشرين ألفاً، لم يكتبه لأنَّ ما يفكِّر فيه مرة واحدة لا يُمحى من ذاكرته، وأول حافزٍ له، أعتقد كان استياؤه من رقم ثلاثة وثلاثين في النظام الشرقي يتطلب عددين وثلاث كلمات بدلاً من كلمة واحدة وعدد واحد، فيما بعد طبق هذا المبدأ الهذياني على الأرقام الأخرى، فبدلاً من سبعة آلاف وثلاثة عشر كان يقول - على سبيل المثال: " ماكسيمو بيريث"،

---

(52) لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، 2008، بيروت، ص227.

" السكك الحديدية" بدلاً من سبعة آلاف وأربعة عشر... وبدلاً من خمسمائة كان يقول تسعة، وكانت لكل كلمة علامة خاصة، ضربٌ من الإشارة، وكانت الكلمات الأخيرة معقدة للغاية)[53].

(53) بورخس، الألف، ترجمة محمد أبو العطا، دار شرقيات للنشر، 1998، القاهرة، ص89.
قصة ذاكرة فونس: وهو عنوان اختاره المترجم والعنوان الأصلي للقصة: فونس قوي الذاكرة.

الفصل الرابع

هويات ما بعد الحداثة

كيف بدأت الحداثة؟ حين كشفت الاكتشافات العلمية زيف مقررات الكنيسة، كالقول بأن الأرض: مركز الكون، قالوا لا مقدّس، وبدأ عصرُ تقديس العقل، ثم اكتشفوا عجز العقل البشري وعجز العلم عن حلِّ جميع المشكلات، فنقدوا العقل والعلم لكنهم وهم يقومون بذلك يستخدمون العقل ولم ينكروا منجزات العلم، من الحداثة إلى ما بعدها قالوا باستحالة التحديد والمطلق، فلو رمزنا إلى الحقيقة المطلقة بالرمز(أ) فإنَّ عبارة (ليس هناك أ) في حد ذاتها حقيقة مطلقة، ولذلك وجبَ إضافة ما يفيد التشكيك (ربما ليس هناك أ/ قد لا تكون هناك أ..الخ) وهكذا عدنا إلى الكوجيتو[1] وكنا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة، والفكرة (ليس هناك أ) تأسست على حجة الاختلاف، في مثال أنَّ أحدهم ارتكب جريمة ما، وجئنا برجل دين، وعالم اجتماع، وعالم بايولوجي، وعالم نفس، ورجل قانون، وطلبنا منهم سبباً لارتكاب الجريمة، سيقدِّم كلٌّ منهم نظرية بحسب العلم الذي يتقنه، لو كان هناك

(1) الكوجيتو مصطلح أطلق على عبارة رينيه ديكارت الشهيرة: I think therefore I am أي أنا أفكر إذن أنا موجود.

حقيقة مطلقة، لما اختلفوا ولتوصلوا جميعهم إلى هذه الحقيقة، ولكنَّ الحقيقة المطلقة هي (مجموعة أسباب تضافرت وراء ارتكاب الجريمة) تشيزاري لومبروزو (1835-1909) قام خمس مرات بتغيير نظريته(الرجل المجرم)وأقرَّ لومبروزو أن أسباب الجريمة ليست بيولوجية حصراً، وأن الصفات البيولوجية تتوافر في معظم المجرمين وليس جميعهم وقد تتوافر عند غيرهم أيضاً. وهكذا ننتهي حيث بدأنا وفي كل فكرةٍ نعثر على نقيضها بداخلها، رجال التيه (يمكن أن يتشبثوا بأغلالهم، وأن يزينوا زنازينهم، وأن يعيدوا ترتيب الكراسي على سطح التيتانك)[2].

لماذا ما بعد الحداثة؟ وكيف لنا بالمابعد ونحن غارقون في الماقبل؟

جون فرنسوا ليوتار الذي اعتبر هذا العصر نهاية لـ"الحكايات الكبرى"[3]، ألَّف كتاباً يدرسه أطفال فرنسا يدرسون فيه ما بعد الحداثة في الصف الأول الابتدائي، وأطفالنا المساكين ما زالوا يقبعون تحت جور الخلدونية التي عمرها أكثر من نصف قرن، ومناهج تقليدية أكل عليها الدهر وشرب، بالتأكيد لا أقصد تحديث المناهج التربوية والتعليمية حدَّ التغريب، وقد تنضوي ما بعد الحداثة في السيرة الفكرية لكلٍّ من رولان بارت ولاكان وجاك دريدا وميشيل فوكو وبلانشو وجوليا كريستيفا وغيرهم، من الذين رتعوا تحت مظلة الحداثة، ثمَّ نقضوا أطروحاتها حين يئسوا منها، كما ولَّد الإحباط المتأتي من البنيوية وتظاهرات الطلاب في فرنسا 1968، ما بعد البنيوية، ولِدَت مرحلة ما بعد الحداثة كنتيجة حتمية للإحباط من الحداثة التي أهملت المقدّس والطبيعة الريفية

---

(2) تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة ثائر ديب، ط1، 2000، دار الحوار، اللاذقية، ص47.

(3) موت السرديات الكبرى أو موت المذاهب الكبرى التي حاولت تفسير الواقع تفسيراً شمولياً، كالماركسية.

والعضوية والفطرة والموهبة، وتمظهرت في العديد من المجالات، فلسفة ما بعد الحداثة: إعلاء شأن العقل والحس واستبعاد كل أمر غيبي وعده أمراً خرافياً. حداثة السياسة علمانية. حداثة الدين عقلانية أو إلحاد، حداثة الأدب تحرر من قيم المجتمع البالية، وتمرد على تقاليده وثورة لغوية على الأساليب السائدة في الكتابة والكلام. عمارة ما بعد الحداثة: اجتراح أشكال معمارية معاصرة لا علاقة لها بقيم النشاط المعماري السابق ومبادئه.

وما يهمنا أدب ما بعد الحداثة الذي يقوم وصف الأدب كوعي بدون ذات، ورفض تفسير الناص لنصه أو تعليق فهم النص بظروف كتابته، لأنَّ النص والناص في تغير مستمر كمياه النهر، فإذا كانت الحداثة قد أعلنت دوراً لا مركزياً للموت من خلال موت المؤلف، فإنَّ ما بعد الحداثة ارتكزت على الموت وأعطته الدور الرئيس، فأعلنت موت النص أيضاً، بسبب عدم ثباته، فمرحلة ما بعد الحداثة تريد من الكاتب أن يكون الثوري الذي يحيا ويعيش في موته، فنصه يجب أن يكون: نصاً لا كاتب له، ذا لغة طيَّارة متشظية، مزدوجة، الفأس التي تكسِّر الجليد المتجمِّد فينا وفيه من قبل، فإذا أبله دستوفسكي مشروع لمحاربة الوهم، (إنه الأبله: هو من يقول أنا، هو الذي يقذف بالكوجيتو لكنّه هو كذلك الذي يحمل الافتراضات الذاتية أو برسم المسطح. إنَّ الأبله هو المُفكِّر الشخصيّ المناقض للأستاذ العمومي (المدرسيّ): فالأستاذ لا يكف عن الارتجاع إلى مفاهيم تعليمية، في حين أن المفكر الشخصيّ إنما يشكِّل مفهوماً بقوى فطرية يمتلكها كل فرد كإمكانية لحسابه (أفكر). ذلك هو نموذج غريبٌ جداً، مَنْ يريد أن يفكِّر ويفكِّر بذاته بواسطة الضوء الطبيعي)[4].

---

(4) جيل دولوز وفيلكس غتاري، ما هي الفلسفة، ترجمة وتقديم مطاع صفدي، ط1، 1997، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص77.

الأبله هو ديكارت القائل: (الكوجيتو: أنا أفكر إذن أنا موجود)، وهو المفكر الشخصي الذي يبدأ من مقدمات ذاتية ليرسم مخططه في البحث عن الحقيقة، وكان دستوفسكي هو الذي أشار إلى إمكانية تعارض جديد بين المفكر الشخصي (الأبله القديم) والمفكر العمومي (الأبله الجديد) الذي لا يريد أن يفكر، ولا يبحث عن الحقيقة، إنه لا يريد غير العبث. (والأبله القديم كان يريد الحقيقي، غير أن الأبله الجديد لم يكن يطلب البداهات أبداً، لا يستسلم، كان يبغي المحال..كان يريد أن يصنع من المحال أعلى قدرة للفكر، أي الإبداع)[5].

وهذا الكلام كله لإثبات الفرق بين ذات المُفَكِّر والموضوع المُفَكَّر فيه، أي إنَّ الأشياء موجودة لأننا نفكِّر فيها، والتي لا نفكِّر فيها غير موجودة، فالأبله غير موجود إذن لأنَّه لا يفكِّر في نفسه أبداً، لكن هناك ربما من يفكِّرُ فيه، فهو موجود وغير موجود في الوقت نفسه.

ما بعد الحداثة تريد استعادة المفقود، كما فعل أمبرتو إيكو في باودولينو في بحثه عن حلقة التاريخ المفقودة من الحروب الصليبية التي انبنت على الأكاذيب، ما بعد الحداثة تحاول الانعتاق من التأويلات السابقة نحو فضاءات عذراء، تختزل الاتجاهات الفكرية والأفكار الجدلية في نصٍّ واحد، يبدو للوهلة الأولى أمراً مستحيلاً، ولكن بمقدور نص ما بعد الحداثة أنْ يؤسس نصّاً ذا دوال متعلقة بالتمرد على النمط السائد للكتابة الأدبية، لتحقيق قفزة خارج المعاطف، خارج الإطار السائد لكلِّ جنس، تحاول تكسير القواعد والتقاليد المُتبعة للولوج في نصوص ذات هياكل لغوية عبر كتابة مبهمة ومشوَّشَة للفكر، فهناك كتاب كتبوا في ما بعد الحداثة بالموهبة والفطرة فحسب منهم كافكا وجيمس جويس، فقال النقَّاد عن رواية "يوليسيس" لجيمس جويس الرواية التي اغتالت القرن العشرين، وهناك من النقّاد من يدّعي أن ما بعد الحداثة

---

(5) جيل دولوز وفيلكس غتاري، ما هي الفلسفة، ترجمة وتقديم مطاع صفدي، ص78.

كرؤية جديدة للعالم بدأت بأدب دوستويوفسكي، فالكاتب ما بعد الحداثي خبيرٌ وماهرٌ في الهدم، كثربانتس وإيتالو كالفينو، الكاتب هو ناقدٌ مذهل مهما كان الجنس الأدبي الذي يكتبه، وبعد كلُّ هذا فهو لا يقلُّ روعةً في بناء الأنموذج الجديد والمذهل.

قد يشعر الكثيرون بالخيبة والإحباط نتيجة عدم فهمهم لما بعد الحداثة، وهذا جدلٌ قديم وعقيم كأصل البيضة من الدجاجة أم العكس، وقد سأل أحدهم أبا تمام: لماذا تقول ما لا يُفهم، فأجابه بتهكّم: ولماذا لا تفهم ما يقال؟

مبدأ الهوية المُضْمَرَة

إنَّ هوية الفرد تلعبُ دوراً هاماً، في اختياراتهِ، وكلُّ اختيارٍ هو في حقيقته فعلٌ، من بين خيارات أخرى، يختارها شخصٌ آخر ذو هوية مختلفة، هُويَّتُنَا كامنة في كلِّ فعلٍ نقومُ بهِ، وَهُويَّةُ آبائنا وأجدادنا أيضاً، وقد سَقَطَتْ حضارات عبر التاريخ، وقامت أخرى، وهويات كثيرة، غُلِبَت على أمرها، فانصهرت في هويَّة الغالب، وهويات أخرى قاومت القمع والطغيان، وأفْشَلَتْ سياسة التتريك والفرنسة، والأمركة، بينما انصهرَتْ بعض الهويات بِسلاسة، لا بسبب غَلَبَة الهوية الغالبة وقوتها، بل بسبب الارتداد إلى الهوية الإنسانية المُضْمَرَة، التي افتقدوها في وطنهم، ووجدوها في أرضٍ أخرى، فالكثير من القوميات والاثنيات انصهرت في الأمَّة الأمريكية، والألمانية والفرنسية، رغم أنَّ هذه الأخيرة توفِّر لهم فرص تعليم أبنائهم بلغتهم الأم، وخصوصاً في المدرسة الابتدائية (وقال مدير البرامج الثنائية اللغة في سان فرانسيسكو: "إنَّهُ لهامٌ جداً لنا، أنْ يشعرَ الطلاب بالاعتزاز بثقافتهم الخاصة" يعني ذلك طبعاً ثقافة أسلافهم)[6].

---

(6) صموليل هنتغتون، من نحنُ، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، 2005، دمشق، ص25.

لأنه يعلمُ أنَّ اعتزازهم بثقافة أسلافهم، يعزِّز هويتهم الإنسانية، وبذلك فإنَّ اللغة الأم لا تتعارض مع وحدة المجتمع، بل على العكس تعزِّزها، ونحن جميعاً لدينا هوية مُضمَرة، هوية إنسانية، وهي عامل مشترك بين البشر، وعامل مساعد في معادلة الصراع بين هوية غالبة، وأخرى مغلوبة سواء بالمعرفة والعلم، أو بالقوة والقمع، وكان شِعار العلماء والمفكرين دوماً (حيث توجد الحرية يوجد الوطن). وكما قال أبو تمام:

فالجوُّ جوِّي إنْ أقمتُ بغِبْطَةٍ
والأرض أرضي والسَّمَاءُ سَمَائِي

وقال أيضاً:

إليكَ ساقتنيَ الآمالُ يجنبها
سَحَابُ جُودِكَ مِنْ أرْضِي وأوطَاني

لاستمرار التواصل بين مجموعة معينة من الأفراد، يُفترض استحداث صيغ وكلمات لم تكن موجودة من قبل، مع وجود كلمات تستخدم كرموز لها دلالات متفق عليها بين كل مجموعة، وهذه الدلالات لم تأتِ من فراغ، بل نتيجة ذكريات مشتركة عن حوادث أو شخصيات شهيرة، أو أعراف خاصة بينهم يفهمون معانيها بكيفية متشابهة أو متقاربة، وغالباً ما يكونون قد اتفقوا عليها بصورة لا شعورية. من مثل كلمة (جلي) التي تحمل دلالات كثيرة، منها الهجرة المليونية في آذار 1991، في اللغة الشعبية، أو الانتفاضة في اللغة الرسمية، ودائماً توجد مجموعة كلمات خاصة تعتبر المادة الأولية للغة معينة بالذات يستخدمها صنف معين كسائق التاكسي، أو أفراد عشيرة واحدة، وتكون هذه الكلمات دالةً على خبرة هؤلاء في مجال معين بالذات، وفي إحدى المرات كنتُ جالساً مع شيخ عشيرة فسأل أحد الشباب القادمين ابن من هو فأجاب بن فلان فاستفسر عنه إلى أنْ قال الشيخ: ها نعم نعم لقد

عرفتك، فسارع الشاب المسؤول إلى التصحيح بأنَّه ليس ذلك المقصود، فقال له الشيخ:

- وكيف تعلم بأنَّه ليس هو وأنا لم أصرِّح باسمه.

يُستخدم المجاز في اللغة الكردية، والشعبية منها خصوصاً، فهم غالباً ما يُحرِّفون الأسماء ولكل تحريف دلالته الخاصة، فلو أخذنا اسم رمضان مثلاً، نجد الذين يحبونه ينادونه (رمي) وهي صيغة للتحبيب والتقرب، والذين يكرهونه ويرومون الانتقاص من شخصهِ ينادونه (رمو)، ولكلٍّ من الصيغتين، حقل خاص مليء بالمواقف والذكريات عن "رمضان"، وهذه الصيغ موجودة في جميع لغات العالم.

وهاجرت العقول من العراق زمن البعث، طلباً للمال والرفاهية، ولم تعد، ثمَّ هاجرَ من تبقَّى طلباً للأمن، ومن المستحيل أنْ يكون الوطن مجرد سقف نستظلُّ به، وإلا لماذا هذا الاغتراب؟

العقول المغتربة حورِبَت بلغة عنيفة، استناداً إلى مبدأ الهوية، وعوملت بشوفينية، ولهذا فرَّتْ إلى الخارج، لأنَّها أحست بالمهانة، وبدلاً من تكريمها أو احترامها على الأقل، تمت مهاجمتها بمناسبة ومن دون مناسبة. ولماذا يشعر مواطنو العالم الثالث أنَّهم يعيشون تحت أقدام حُكَّامهم؟ ولماذا خرجَ ديوجين الكلبي (412-323 ق.م) حاملاً مصباحهُ في الظهيرة، يبحثُ عن الهوية الإنسانية؟ لأنَّها كانت وما زالت مُضْمَرَة أو مفقودة، وليس ثمَّة إلا صراعات، وغالبٌ ومغلوب، ولا أحد يفقه مقولة الإمام علي (الغالب بالشرِّ مغلوب)، حيث يفرضُ الغالب على المغلوب، شروطاً وحياةً تفقده هويته الأصل، أو يتخلَّى هو عنها، بحثاً عن فرصٍ أفضل للعيش، أو يتعلَّم المغلوب من الغالب، جوهر المعرفة، ومزايا السلوك الإنساني، بعيداً عن القشور والأخلاق السيئة، وبذلك يصير المغلوب أقوى من الذي غَلَبَهُ، ويتحرَّر من سيطرته وسطوته، كما حدث في الهند، التي تحرَّرت بعدما قال لهم غاندي قاطعوا المنتجات الإنكليزية، قاطعوهم، ثمَّ العصيان المدني، فاضطرَّ الإنكليز للانسحاب.

لكلٍّ إنسانٍ ثلاث هويات: هويَّة إنسانية، وهوية وطنية، وهوية فرعية: قومية، دينية، طائفية، قبلية، عشائرية.. الخ. وكلٌّ من هذه الهويات ظاهرة أحياناً، ومُضمَرَة أحياناً أخرى، بحسب الظروف، والسؤال هو كيف نستطيع تضييق الفجوة المُتَّسِعَة بين الهوية الوطنية العراقية، والهويات الاثنية المتعددة التي انفتحت على مصراعيها بعد 2003؟ هذه الفجوة كانت موجودة، تحتَ ركامٍ من القمع البوليسي، والرقابة المشدَّدة، وانفجرت حال زوال السبب، كما حدث في البوسنة والهرسك، وأحياناً لأسباب تافهة: بسبب لعبة كرة قدم بين المكسيك والولايات المتحدة في شباط 1998، تعصَّب الأمريكيون من أصول مكسيكية، ومنعوا رفع علم غير علم المكسيك (وعلَّق أحد المعجبين الأمريكيين: " لا بد أنَّ ثمَّة خطأ ما عندما لا أستطيع أنْ أرفعَ علماً أمريكياً في أمريكا)[7]. والأزمة التي حدثت بسبب لعبة كرة قدم بين مصر والجزائر، وقد حدثَ هذا زمن النبوة، حين كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين، فسمع بذلك النبي صلى الله عليه و سلم فقال ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة.

والهوية تنصهرُ معرفياً، أمَّا إذا حاول الغالب استخدام البطش والقوة، فإنَّ الهوية ستزداد مقاومتها، وهناك في عَفَك وفي الأنبار وفي بعض محافظات الجنوب، الكثير من العائلات الكردية، التي انصهرت هويتها، بعد جيلين، جاء جيلٌ لا يعرف شيئاً عن لغتِهِ الكردية، ولا عن قوميتِهِ، ويرفض العودة، والانتماء، ولقد التقيت بعضاً منهم عام 1996، في مقهى شعبي في مدينة عَفَك في الديوانية، حين عرفوا قوميتي الكردية، فرحوا بي، وقالوا نحن أيضاً كرد، وحدثني المختار، لقد

---

(7) هنتغتون، من نحنُ، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، 2005، دمشق، ص25.

تزوجنا منهم، وزوجناهم بناتنا، ونحن نعيشُ أفضلَ من أجدادنا، حيثُ أنَّ أجدادنا لمَّا وصلوا إلى هنا في التهجير القسري في العهد الملكي، كان فلاحو المنطقة لا يزرعون غير الحنطة والشعير، رغم وفرة المياه، فاستأجرنا منهم الأراضي وزرعنا البساتين والرز، ولم نتعرَّض لأيَّة مضايقة بسبب قوميتنا المختلفة، وهذا ما يحدث في الغرب، فلا يوجد أمريكي من أصول أمريكية، ولكن الحس الوطني عالٍ لديهم، ولو أنَّ تلك العائلات عانت تمييزاً ما، لَمَا انصهرت هويتهم القومية، وهو ما حدثَ في الإمبراطورية الرومانية، حيث اخترعوا حيلةً قانونية، للدفاع عن حقوق الأجانب غير الرومانيين، وهو ما حدثَ أيضاً في الإسلام، حيث صهيب الرومي وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وغيرهم، وفي صحيح مسلم (أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي لقيَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة، فسلم على عمر فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال: استخلفت عليهم بن أبزي. فقال عمر: من بن أبزي؟ فقال نافع مولى من موالينا؟ فقال عمر واستخلفت عليهم مولى؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر أما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد قال "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ"). وفي عصورٍ خَلَتْ كان الغرب مولعاً بالشرق، لا لِغَلَبَتِهِ عسكرياً، بل معرفياً، وكانوا يشدون الرحال لطلب العلم، ففي القرن السادس قبل الميلاد سافرَ فيثاغورس إلى وادي النيل، وأعطاهُ الفرعون أحمس رسالةً إلى الكهنة الذين فتحوا له أبواب مكتبة المعبد، بعد لأْيٍ، وظل يغترف منها اثنين وعشرين عاماً، قبل أنْ يخرج بنظرياتهِ التي أذهلت العالم. وَعنونَ ابن خلدون الفصل الثالث والعشرين من مقدمته (في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده). وبيَّن السبب (النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها.. تغالط به من أن انقيادها ليس لِغَلَبٍ طبيعيٍّ، إنَّما هو لكمالِ الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها

اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس بل إنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب.. لذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه وفي سائر أحواله.. وفي كل قطرٍ يغلب على أهله، زيُّ الحامية وجند السلطان.. وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك).

والملك مولعٌ بالغرب، والمجتمع في سِباق لطرح الموروث والتخلص من الجذور الثقافية القديمة، واستبدالها بمنظومة غربية وغريبة، ولمَّا تحققوا من فشلهم وخيبةِ آمالهم، أصابهم الإحباط، ثمَّ حدث ارتداد رجعي نحو ولاءات محلية وعِرقية وقبلية وطائفية، مما يؤسِّس صورةً حديثة للمجتمعات البدائية حيث تنشأ النزاعات المسلحة لأسباب بسيطة، فإذا كانت السلطة قوية تبطش بالمجتمع باستخدام فئة أو فئات قريبة منها، وتنصهر هويته في هوية واحدة، هي هوية القائد الضرورة، وإذا كانت السلطة ضعيفة كما في لبنان، الذي يقول المستفيدون من وضعه الحالي (قوته في ضعفهِ) حيث المجتمع المُفكَّك، والجميع في حالة هدنة جبرية، وكلٌّ يتربَّص بالآخر، والولاء المطلق للفئة والطائفة والحزب، بعيداً عن المصلحة العامة، وتمحِي الهوية الوطنية، هويةً منصهرة لمصلحة هوية فرعية، وهو إلى حدٍّ ما يشبه الوضع في عراق اليوم وفي بلاد الأندلس، حيث استشهد ابن خلدون مرتين بقول الشاعر ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلُسٍ
أسماء معتمدٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولة الأسدِ

ونقلَ أبو تمّام في حماسته قول المساور بن هند بن زهير:

لَـمَّـا رَأَيْـتُ الـنَّـاسَ هَـرُّوا فِـتْـنَـةً
عَـمْـيَـاءُ تُـوقَـدُ نَـارُهَـا وَتُـسَـعَّـرُ
وَتَـشَـعَّـبُـوا شُـعَـبـاً فَـكُـلُّ جَـزِيـرَةٍ
فِـيـهَـا أَمِـيـرُ الْـمُـؤْمِـنِـيـنَ وَمِـنْـبَـرُ

وعنونَ ابن خلدون الفصل الرابع والعشرين (في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء). ويُرجعُ السبب إلى (ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلةً لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتمار). تكاسلٌ لفقدان الأمل والطموح، فالكثير من أغنياء كردستان، كانوا لا يبنون قصراً، ولا معملاً، ولا يفكرون في مشروعٍ طويل الأمد، بسبب خوفهم من سقوط مدينتهم، فأربيل مثلاً سقطتْ مرَّات عديدة خلال أعوامٍ قليلة، وأباحَ مسؤول تنظيمات الشمال لحزب البعث أعمال السلب والنهب باعتبارها أنفالاً، ولم يقفْ عالمُ دينٍ واحد، ليعترض على هذا اللبس، بأنَّ المجتمع الكردي ليس كافراً، لتصير ممتلكاته أنفالاً، وكلمة الأنفال تعني المَغَانِم التي يَغْنَمُها المُقَاتِلُونَ فِي حَرْبِهم ضد الكفار، وهي لا تتفق والعمليات العسكرية التي وقعت تحت مظلتها عام 1988.

النظريات واللغات الحيَّة

النظريات الحيَّة هي النظريَّات التي وقعت في دائرة التعديل المستمر رهن الاكتشافات الحديثة، كذلك اللغات الحيَّة، دائمة التطور، أمَّا اللغات التي توقفت عن التطور وعن مواكبة التغييرات الحديثة، فهي اللغات الميتة، وإنْ وُجِدَ مَن يستخدمها قراءة وكتابة، إلا أنَّها لغة لا تخدم مستخدمها في الحصول على العلم والمعرفة.

لا نعيب الحداثة ولا ما بعدها، لكنَّ المغالاة في استخدام لفظة ما بعد (meta) أدَّت إلى استهلاكها، وليس من المعقول أنْ نقد أيَّة نظرية،

يفضي إلى تجاوزها إلى ما بعدها، فربما تكون جميع التفسيرات وتناقضاتها مقبولة من الناحية النظرية، ولكن من الخطأ الفادح الأخذ بنظرية تفضي إلى الحيرة، ومن الخطأ الأفدح التعصُّب لها، فالنظرية إنَّما هي وسيلة خيالية للتخلُّص من الحيرة، وعندما تبدأ بتشويه أو تفنيد الحقائق التي تدعم النظريات التي سبقتها، بدلاً من استخدام تلك الحقائق لتثبيت النظرية، تنهار الأسس النظرية كافة، وهو أمرٌ ليس من الصعوبة بمكان، نقدوا البنيوية، فاعتقدوا بما بعد البنيوية، نقدوا السرد إلى ما وراء السرد، نقدوا الرواية إلى ما وراء الرواية، نقدوا الميتافيزيقيا إلى ما ورائها، نقدوا الحداثة إلى ما وراء الحداثة، ولكن أينَ الخطورة في كلّ هذا؟ هل هذا هو المناخ الصحُي للتفكير البشري؟ خصوصاً وأنَّ لدينا تراثاً هائلاً من الفكر الإنساني، الذي لن يسعنا الوقت أبداً لمطالعته والوقوف عليه، وحين يسوق أمبرتو إيكو حوار الراهب جيوم بطل روايته "اسم الوردة" مع الراهب صانع الزجاج: (. نحن لم تعدْ لدينا حكمة القدامى، ولقد ولى زمن العباقرة وإلى الأبد. فقال جيوم مؤيداً: . إننا أقزام ولكننا نقف فوق أكتاف أولئك العمالقة ورغم صغرنا نستطيع أن نرى في بعض الأحيان أبعد منهم في الأفق)[8]. فإنَّه ينوِّه بعدم مقدرة الإنسان ولو أعطيَ عمراً مضاعفاً أنْ يقرأ تراث الفكر الإنساني، خصوصاً المكتوب بلغات مغايرة، وتُرْجِمَ إلى لغات أخرى، واعترتهُ الأخطاء والتناقضات من جَرَّاء الترجمة.

لاحظَ باروخ إسبينوزا (1632-1677) أنَّ الكتب المقدَّسة كُتِبَت باللغة اليونانية، وأنَّ عيسى عليه السلام كان يتحدَّث اللغة الآرامية، كما أثبتَ من قبل أنَّ (حرية التفكير لا تمثِّل خطراً على الإيمان، أو بتعبيرٍ آخر أنَّ العقل هو أساس الإيمان، والثاني إثبات أنَّ حرية التفكير لا

(8) أمبرتو إيكو، اسم الوردة، ترجمة كامل عويد العامري، سينا للنشر، ط1، 1995، القاهرة، ص135.

تمثِّل خطراً على سلامة الدولة، أي إنَّ العقل أساس كل نظام سياسي تتبعهُ الدولة.. بل إنَّ القضاء على حريَّة التفكير يؤدي إلى ضياع سلامة الدولة والإيمان)[9] ثمَّ توصَّلَ إسبينوزا إلى حقيقة أنَّ (الكتب المقدسة ليس لها مؤلِّف واحد، ولم تكتب للعامة الذين عاشوا في عصرٍ بعينه، بل هي من عمل عدد كبير من الناس ذوي أمزجة مختلفة عاشوا في عصور مختلفة)[10]. وهو لم يتوصَّل إليها إلا بعد سنوات من الدراسة والتمحيص التي قادت إلى أهم التحولات الحضارية والثقافية في عصره، كما استنتج أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام، حيث لا يُعْقَل أنْ يرثي نفسه كما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه (34: 5 فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مواب حسب قول الرب، 34:6 ودفنه في الجواء في أرض مواب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، 34:7 وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، 34:8 فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات مواب ثلاثين يوماً فكملت أيام بكاء مناحة موسى... 34:10 و لم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه). حين يقول كاتب سفر التثنية (إلى هذا اليوم) ما هو التاريخ الذي يعنيه؟ وتسمية أرض مواب لم تأتِ إلا في العصور المتأخرة بعد وفاة موسى. وتعرَّض إسبينوزا لعدة محاولات اغتيال، وقد أثبت بالدليل القاطع أنَّ الكتب المقدسة ما هي في حقيقتها إلا مذكرات ويوميات بعض الصالحين، وتزعم المصادر النصرانية أن مرقص كتب إنجيله في روما، ولعله في الإسكندرية، وأن كتابته تمت ـ على اختلاف في هذه المصادر ـ بين عام 39-75م، وإن رجح أكثرها أن كتابته بين

(9) إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ت:د.حسن حنفي، دار التنوير، 2005، بيروت، ص13.

(10) إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص345، 346.

44-75م معتمدين على شهادة المؤرخ ايرينايوس الذي قال: "إنَّ مرقص كتب إنجيلاً بعد موت بطرس وبولس". ويرى الناقد اليهودي سبينوزا أن هذا الإنجيل كتب مرتين إحداهما قبل عام 180م والثانية بعده... وأقدم ذكر لهذا الإنجيل ورد على لسان المؤرخ بابياس (140م) حين قال: "إن مرقص ألَّفَ إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس".

وانهارت شيئاً فشيئاً سلطة رجال اللاهوت المستندة إلى احتكار الحقيقة، اعتماداً على براهين خرافية تدعيها غير قابلة للإثبات، ومضحكة في كثير من الأحيان، وكان القانون الإنكليزي العرفي والمستند إلى الكتب المقدسة لغاية 1805 (يبيحُ للرجل بيع زوجته)[11] وأصدر البرلمان الإنكليزي في عصر هنري الثامن ملك إنكلترا (1491-1547) قراراً يحظر على المرأة أن تقرأ كتاب (العهد الجديد)، لأنَّها تعتبر نجسة وعند ولادة المرأة تقول الكنيسة دعهن يتألمن وهيا نساعد الرب على الانتقام منهن.

واستطاع جيمس فريزر في كتابه الغصن الذهبي (The Golden Bough) أن يثبت العلاقة بين المعتقدات المسيحية الأساسية والأساطير والطقوس الدينية، فداروين الذي أراد أنْ يثبت أنَّ الإنسان ليس إلا كائناً أرقى من سلالة أسلافهِ القرود في كتابه (أصل الأنواع) يقول عن نفسه: (وبعد مضي خمس سنوات من العمل، سمحتُ لنفسي أن أتأمَّل في هذا الموضوع.. وأنا أرجو المعذرة إلى التطرق إلى هذه الأمور الشخصية، وأنا أقوم بتقديمها لأبيِّن أنني لم أكُنْ في عجالة للوصول إلى أي قرار، وقد قارب بحثي الآن 1859 على الانتهاء، ولكن بما إنَّ إتمامه سيستغرق مني علة سنوات أخرى، وبما أنَّ حالتي الصحية بعيدة كل البعد عن القدرة، فقد وجدتُ نفسي مضطراً لأنْ أنشر هذه الخلاصة، كما كنتُ مدفوعاً إلى فعل ذلك بشكل أكثر خصوصية لأنَّ السيد والاس

---

(11) مصطفى الساعي، المرأة بين الفقه والقانون، ص21.

الذي يدرس التاريخ الطبيعي لأرخبيل الملايو، قد توصل بالكامل إلى نفس الاستنتاجات العامة التي توصلت إليها). ثم يقول عن كتابه: (هذه الخلاصة التي أنشرها، هي بالضرورة ليست كاملة)[12]. فالوقت لم يكن كافياً لإكمال أبحاثه، وتخوُّف أن يصبح اكتشافه قديماً، فسارعَ إلى نشره، وهناك نص في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" في البروتوكول الثاني يؤيد دعم رؤوس الأموال لداروين ونظريته، للخَلاص من سلطة الكنيسة، ولا أحد ينكر التطور، وكانت ملاحظاته صائبة، ولكن استنتاجاته كانت بمجملها خاطئة، ليس لها أساس علمي، فرضيات غير قابلة للإثبات، وكيف سيثبتُ أنَّ الإنسان تطوَّر عن جرثومة صغيرة قبل مئات ملايين السنين؟

يقول البروفيسور (ميشيل دانتون) وهو من العلماء المشهورين في علم الأحياء المجهرية (Microbiology) في كتابه (التطور: نظرية في مأزق) ما يأتي: (في عالم الجزيئات والأحياء المجهرية لا يوجد هناك كائن حي يُعَدُّ "جَدّاً لكائنٍ آخر، ولا يوجد هناك كائن أكثر بدائية، أو أكثر تطوراً من كائن آخر)[13]. لكن الأحياء مُصَنَّفة تحت ممالك بحسب تطورها، من اللبائن التي هي الأكثر تطوراً، إلى البكتريا التي هي أقلُّ تطوراً، فالبكتريا ليس لديها أجهزة هضمية كاملة ولا تنفسية، وبيئة البكتريا متنوعة جداً، فهي قادرة على العيش في أيَّة بيئة، حتى ضمن بيئات ذات نسب عالية بالفضلات النووية والكبريتية الحمضية، ويوجد عادة حوالى عشرة مليار خلية بكتيريّة في الغرام الواحد من التربة ومئات الآلاف من الخلايا في الملمتر المكعب من ماء البحر، وتلعب البكتيريا

---

(12) تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، 2004، القاهرة، ص55، 56.

(13) انظر إلى : "Michael Denton" Evolution: A Theory in *crisis* صفحة 290 - 291.

على بساطة أجهزتها دوراً أساسياً وحيوياً في تدوير المغذيات البيئية، فالعديد من الخطوات المهمة في دورة التغذية تتم بوساطة البكتيريا، أهم هذه الخطوات تثبيت النتروجين في الغلاف الجوي. وهكذا دائماً تكون التفاصيل الصغيرة هي الأهم. وفي العدد رقم 2235 من المجلة العلمية الأمريكية المعروفة (New Scientist) الصادرة في 22 حزيران 2000م تقول بأن هذه النظرية في تراجع مستمر في العالم، حتى أنها وضعت على غلافها عنوان (حرق دارون Burning Darwin) وأدرجت داخل العدد خريطة للعالم بينت فيها البلدان التي تتراجع فيها نظرية دارون بسرعة وتتقدم فيها (فكرة الخلق Creationsm). وهذه المجلة تطلق صفارة الإنذار وتقول لأنصار هذه النظرية: "إن العلماء على وشك أن يحرقوا دارون". ويقول ديفيد بروكس: (إذا كان المفهوم الشائع للتاريخ قبل ماركس هو أنَّهُ شيء يستطيع الفرد أحياناً أن يلعبَ فيهِ دوراً حيوياً، فقد صار في جانب كبيرٍ منه بعد كتاب "رأس المال/ الجزء الأول 1867" رد فعل للمتغيرات الاقتصادية، وإذا كان المفهوم العام للفعل الإنساني قبل فرويد يرتكز على افتراض معرفة الإنسان بنفسهِ وعلى حضور ذهنه، فقد قدَّم كتاباه " تفسير الأحلام/ 1900"، و" علم الأمراض النفسية/ 1901" رأياً مزعجاً مؤدَّاه أنْ ليس بمقدور المرء أنْ يعرف سوى الأسباب الظاهرة لهذا الفعل، وإذا كان المفهوم المتداول للأخلاق قبل نيتشه هو أنَّها قانون راسخ، لا يُمارى فيه... فقد صار بعد كتابيه "هكذا تكلم زرادشت/ 1883" والعلم المسرور/ 1885" ضَرباً من الوهم الضروري الذي أبدعه خيال الإنسان ومن ثمَّ يجوز عليه التبديل تبعاً لحاجة هذا الإنسان)[14]. وإذا كان مفهوم عبث الأقدار سائداً في الفلسفات القديمة، حتى أنَّ نجيب محفوظ سَمَّى أولى رواياته

---

(14) موسوعة الأدب والنقد، ترجمة د. عبدالحميد شيحة، المجلس الأعلى للثقافة، ص257.

بـ(عبث الأقدار/ 1939) أدركَ خطأه في روايته الثانية (رادوبيس/ 1943) وأصلحه على لسان فرعون (أتقولين صدفة يا رادوبيس، وما المصادفة؟ إنَّها قضاء مُقنَّع)(15).

وما كان للفرعون أن يؤمن بهذه النتيجة إلا بعد مناقشات جادة دارت بينه وبين قائد حرسه طاهو ورئيس الحجاب سوفخاتب الذي يقول: (مصادفة؟ إنَّ هذه الكلمة يا مولاي مهضومة الحق، يُظَنُّ بها التخبُّط والعمى، ومع هذا فهي المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجلِّ الكوارث، فلم يبقَ للآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق. كلا يا مولاي إنَّ كل حادثة في هذا العالم لا شكَّ موكلة بإرادة ربِّ الأرباب)(16). ونرى العالم جاك مونو رئيس معهد باستور في باريس، والحائز جائزة نوبل في علوم الحياة يضعُ كتاباً كاملاً عنوانه 'المصادفة والضرورة' ويقول فيه: (ولكن متى ما سُجِّلَ الحادث الفريد الذي لا يمكن التنبؤ به، بالضرورة، في بنية الـ DNA، فإنَّهُ سيصبح موضوع نسخ وترجمة، أي إنَّه سيتضاعف، وسينتقل إلى ملايين ومليارات النماذج، وبعد أن يكون قد خرجَ من المصادفة المحضة، نراه يدخل في عالم الضرورة الأكثر ما تكون حتمية، ذلك أنَّ الاصطفاء يعمل على المستوى العِياني، مستوى الكائن الحي)(17).

وهكذا نكتشِفُ الأساس الهش لنظريات الحداثة وما بعدها، التي لم تفضِ بالبشرية إلا إلى مزيد من الحيرة، وبتطور العلوم بدأت تتآكل في النيران المحتدمة لتسارع الأفكار البشرية. وحين أراد الدكتور بين هوبرنك أنْ يدافع عن كثرة الأخطاء والتناقضات في الكتاب المقدَّس،

---

(15) نجيب محفوظ، رداوبيس، ص76.

(16) رادوبيس، ص31.

(17) جاك مونو، المصادفة والضرورة، ترجمة حافظ الجمالي، دار طلاس، ط2، 1998، دمشق، ص115.

كتبَ يقول تحت عنوان فرعي "خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدَّس": (يرى بعضهم أنَّ النص الكتابي لم يَعُدْ أهلاً للثقة والاعتماد عليه، وذلك نظراً للعدد الكبير من الأخطاء التي دخلت عليه وشابته من جرَّاء أعمال الترجمة والنسخ، فالتشويه الذي لحقَ بالنص الأصلي جاء بالغاً جداً، حتى إنَّه لم يعد بإمكانك التحدث عن "كلمة الله".. هذه الظاهرة متوقَّعة لأنَّ الكتاب المقدَّس كان قد ساهمَ في كتابتِهِ أربعون شخصاً من خلفيات وحضارات متنوعة ومتفاوتة جداً، وذلك على مدى فترة استغرقت أكثر من 1500 سنة، ومن بين هؤلاء كان الكهنة والرعاة والفلاحون وصيادو الأسماك والأساتذة بالإضافة إلى قادة الجيش والملوك)[18].

بعدما انتهى نجيب محفوظ من رواية الشحاذ، سأل نفسه (ثَمَّة أناس بلا دين، فكيف يمكن التعامل معهم؟ وكيف يمكن أنْ يتعاملوا مع الحياة؟)، بعدما كتبَ عن الواقع كثيراً، أعجبته فكرة البحث في هوية العابث، ونظرته إلى الحياة، وانشغلَ بهذا السؤال بحسب طرابيشي، حاول الإجابة فكانت رواية ثرثرة فوق النيل. فص10 من الرواية من دون الفصول معنون بمشروع مسرحية، والمشروع يخصُّ سمارة بهجت (فكرتها تدور عن الجدية في مواجهة العبث، والعبث فقدان المعنى، معنى أي شيء، انهيار الإيمان، الإيمان بأيِّ شيء، والسير في الحياة بدافع الضرورة وحدها ودون اقتناع وبلا أمل حقيقي، وينعكس ذلك على الشخصية في صورة انحلال وسلبية.. وتموت القيم جميعاً تنتهي الحضارة.. أما الجدية فتعني الإيمان، ولكن الإيمان بماذا؟)[19].

العبث كان استثناءً، والسلبية كذلك، يوم صدرت الرواية عام

(18) د. بين هوبرنك، العلم الحديث في الكتاب المقدس، ترجمة ميشال خوري، ط1 - 2007، عمّان، ص288.

(19) نجيب محفوظ، ثرثرة فوق النيل، ص108.

1966، ورغم ذلك غضب الكثير من المسؤولين، هدد المشير عبدالحكيم عامر علناً، بأنَّ محفوظ بحاجة إلى تأديب، اتصل أحمد مظهر بسامي شرف مدير مكتب عبدالناصر يطلب تدخلاً شخصياً من عبدالناصر، الذي كان زميلهُ في الكلية الحربية، لحماية نجيب محفوظ، لكن رجاء النقّاش لم يستطع أنْ يقول لماذا غضب مسؤولو مصر، وعلى رأسهم صلاح نصر مدير المخابرات، في الرواية الكثير من التوريات والطعون، منها تساؤل أنيس مع نفسه (لم يكن عجيباً أنْ يعبد المصريون فرعون، ولكن العجيب أنَّ فرعون آمنَ بأنَّهُ إله)[20]. وعن الأخبار والصحف (قال أنيس ساخراً: لا توجعوا رؤوسنا، ما أكثر ما نسمع ولكن ها هي الدنيا باقية كما كانت، ولا شيء يحدث على الإطلاق... رمقه خالد بإعجاب قائلاً: خذوا الحكمة من أفواه المساطيل)[21]. فوسائل الإعلام الحكومية تصنع الهوة بين المواطن والسلطة، لأنها لا تقول ما يريد أن يسمعه المواطن، ولا تنقل إليه إلا الأخبار التي تريد الحكومة إيصالها إلى المواطن، وغالباً ما تكون مبالغاً فيها.

لا شيء يحدث، ماذا بتنظرون؟ تغييراً سياسياً؟ هل كان عبدالناصر يعتقد نفسه إلهاً أم نصف إله؟ وكذلك السادات ومبارك وجميع رؤساء وحكام الدول العربية، حين يخاطبون شعوبهم يقولون بفخر زائف: لولانا لما كنتم، ولا كانت هناك دولة!!!، الذين لا يحبونني لا يستحقون شيئا غير الموت!!. هذا سبب اغتراب المواطن عن مؤسَّسات الدولة، فالتفكير ممنوع، ما دام القائد يفكر بدلاً من الشعب. وقالها الكثير من الشعراء والأدباء بصيغ مختلفة، منها قصيدة معروف الرصافي:

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام مُحرَّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلّا النُّوَّمُ

(20) نجيب محفوظ، ثرثرة فوق النيل، ص23.

(21) نجيب محفوظ، ثرثرة فوق النيل، ص24.

ودَعُـوا الـتـفـهُّـم جـانـبـاً ... فـالـخـيـر أن لا تَـفـهـمـوا
ودَعُـوا الـسـعـادة إنـمـا ... هـي فـي الـحـيـاة تـوَهُّـم
فـالـعـيـش وهـو مُـنَـعَّـمٌ ... كـالـعـيـش وهـو مـذمَّـم
وإذا ظُـلِـمـتـم فـاضـحـكـوا ... طـربـاً ولا تـتـظـلّـمـوا
وإذا أُهِـنـتـم فـاشـكـروا ... وإذا لُـطِـمـتـم فـابـسِـمـوا
إن قـيـل هـذا شـهـدكـم ... مُـرّ فـقـولـوا عـلـقـمُ
أو قـيـل إن نـهـاركـم ... لـيـل فـقـولـوا مُـظـلـمُ
أو قـيـل إن ثِـمـادكـم ... سَـيـل فـقـولـوا مُـفـعَـمُ
أو قـيـل إن بـلادكـم ... يـا قـوم سـوف تُـقـسَّـمُ
فـتـحـمـدوا وتـشـكّـروا ... وتـرنّـحـوا وتـرنّـمـوا

حرب الهويات القديمة والحديثة

عناصر الهويات التقليدية، غير ثابتة، تتغير حسب الظروف، فلو أنَّ حالة مصاهرة حدثت بين عائلتين عربية وكردية، بالتأكيد فإنَّ حِدَّة الشعور بالهوية القديمة، ستكون أخف لدى أفراد العائلتين، وستجد نوعاً من الألفة والتفاهم إزاء الآخر، جرَّاء اكتساب هوية جديدة، أكثر إنسانية، وكذلك لو حدثت المصاهرة بين عائلتين من السنة والشيعة أو الترك والكرد، وبعد أنْ يسوق أمين معلوف عدداً من الأمثلة الشبيهة يستنتج (في حال وجود نوع من التراتبية بين العناصر التي تشكّل هوية كل فرد، فهي ليست ثابتة، بل تتغير مع الزمن وتغيُّر التصرفات بعمق)[22]، تغير الهوية مع الزمن يعني التهوي، مهما كانت المقاومة قوية، فإنَّ هويّاً لا بدَّ أن يحدث بمرور الزمن، وتزداد حِدَّة التمسك بالهوية والتعصُّب لها

(22) أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة د. نبيل محسن، دار الحصاد، 1999، دمشق، ص17.

في الأزمات والحروب، فقد ازداد تعصب الشعب الأمريكي لقوميته بعد 9/11، وبدا بعضهم كالثور الهائج، فجاءت واقعة احتلال العراق كهدية إلى ابن لادن ما كان يحلمُ بها، وهكذا تكون أخطاؤنا، أفضل الهدايا إلى الأعداء، ويحسب نيتشه (مَنْ كان يحيا بمحاربة عدوٍّ ما، تصبح له مصلحة في الإبقاء على هذا العدو حياً)، فالحكومات تحتاج إلى الأعداء لحشد التأييد، وكسب قلوب الناس، وإذا لم يكن هناك عدو، بحثوا عنه وأوجدوه، ولو من لا شيء، والمليشيات والعصابات قبل التأكيد على الهوية التقليدية، أو الفرعية، تحتاج إلى الأكاذيب، والتهويل، لجمع الأتباع، لأنَّ (الأهداف السياسية للحروب الجديدة تتعلق بالمطالبة بالسلطة على أساس هويات تقليدية في ظاهرها: الأمة، القبيلة، الدين، غير أنَّ بروز سياسة الهويات الفئوية لا يمكن أنْ يفهم على أساس المفاهيم التقليدية، بل ينبغي أنْ يفسر في سياق التنافر المتنامي بين أولئك الذين يشاركون في الشبكات العابرة للأمم)[23]، ما دامت الهوية وسيلة للمطالبة بالسلطة، فإنَّ العديد من مراكز القوى سوف تستهدف إجراء عمليات تهوي لمصلحتها، كما فعلَ معاوية بن أبي سفيان في كسب ولاة علي بن أبي طالب، بدايةً بزياد بن أبيه، لكن نجاح فئة معينة في تحقيق أهدافها باستخدام الهوية كوسيلة، من شأنهِ دفع أصحاب الهويات المُغايرة إلى التمسك بهوياتهم، والتعصُّب لها، لهذا (نجدُ بين العالميين أصوليين ونفراً من غلاة القوميين في المهاجر، ونفراً من الواقعيين والليبراليين الجدد الذين يعتقدون أنَّ التسوية مع النزعة القومية تتيح أفضل أمل للاستقرار، فضلاً عن الجماعات الإجرامية المتعددة القوميات المستفيدة من الحروب الجديدة، وعلى الرغم من وجود نفر غير قليل من الناس المقيدين بالأرض وممن يُرجَّحُ أن يتشبثوا بالهويات

(23) ماري كالدور، الحروب الجديدة والقديمة، ترجمة حسني زينة، دراسات عراقية، 2009، بيروت، ص 106.

التقليدية، فإنَّ هناك أيضاً أفراداً شجعاناً ومجموعات مواطنين يرفضون الفئوية والنزعة الاستعبادية)[24]. هؤلاء الشجعان هم الذين خرجوا في ميدان التحرير، لم يهتفوا ضد قومية أو طائفة، لم يقيدوا أنفسهم بالأرض، بهويتهم التقليدية، إنَّهم يطالبون بحقهم في حياةٍ أفضل.

يتساءل أمين معلوف: (لماذا يرتكبُ العديد من الأشخاص اليوم، جرائمهم باسم هويتهم الدينية أو الاثنية أو القومية أو غيرها)[25]. ونركِّز على لفظة اليوم، ونسأل هل كانت لديهم بالأمس البعيد أو في الحروب القديمة مبرِّرات غير تلك التي ذكرها معلوف؟ جرت الحروب بسبب أطماع ومصالح الأسر الحاكمة أو القيادات السياسية، ولكن تحت شعارات دينية أو قومية، لكن لماذا حين نفشل في السيطرة على مسألة شائكة، نلجأ إلى خصخصتها أو تجزئتها؟ كما حدث مع مفهوم التميز العنصري، الذي لجأ إلى الاختباء وراء خصخصة خفيَّة للتميز العنصري، تسانده مصطلحات العولمة من مثل الديمقراطية التوافقية والاستحقاق الانتخابي، والمحاصَصة والتعددية والمشاركة الوطنية، هي في حقيقتها تتنافى مع مبادئ العدالة، فمصطلح الاستحقاق الانتخابي، يجعل الفاشل في الانتخابات فائزاً، لأنَّ فائزاً آخر سوف يعطيه من أصواتِهِ، وهذا يتنافى مع العدالة والمساواة، أمَّا نظام الكوتا لمصلحة المرأة باعتباره إنجازاً حضارياً، فهو في حقيقته إنجاز سلبي يقوِّض الحضارة، فإذا كانت المرأة ترفض سلب شيءٍ من حقوقها بسبب جنسها، فمن الأحرى أنْ ترفض أيضاً المطالبة بحقوق على أساس جنسها، ولكن الواقع غير ذلك، فربما يحرزُ أحدُ الذكور عشرين ألف صوت، ويتنحَّى لمصلحة امرأة حازت ألف صوت، فكيف لشخصٍ لم يحصل إلا على ألف

---

(24) ماري كالدور، الحروب الجديدة والقديمة، ترجمة حسني زينة، ص106.

(25) أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة د. نبيل محسن، دار الحصاد، ص13.

صوت، يفوز بمقعد برلماني مُخصَّص لذكرٍ حصل على عشرين ألف صوت، لا لسبب معقول، غير أنَّ هذه أنثى، وهذا ذكر، أيْ لأنَّها من جنسٍ آخر، أيْ لأنَّها أنثى، بينما نصَّت المادة 14 من الدستور العراقي الدائم 2005 على (العراقيون متساوون أمام القانون دون تمييزٍ بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي). ولكن يبدو أنَّ التمييز ضد الذكر مسموح، وضدَّ المرأة ممنوع، كما التمييز ضدَّ اليهود يعتبر جريمة يسمونها " معاداة السامية"، أمَّا أنواع التمييز الأخرى فهي مُباحة، وبما أنَّ المادة 14 من الدستور لم يُذكر في نهايتها عبارة تختم بها المواد القوانين التي يُراد أنْ يُشرَّع لها قرارات استثنائية (ما لم يرد يرِد قانون خلافاً لذلك) ولكن كيف لقانون أو قرار صادر عن أيَّة جهة كانت، أنْ يتناقض مع الدستور؟ أليس في هذا نقضٌ صريح لمبدأ سمو الدستور؟ فالدستور باعتباره القانون الأعلى في البلاد، يجب أن لا يَصْدُرَ قانونٌ أو قرارٌ أو نشاطٌ أو فعاليةٌ تناقضه.

وقد تزيد السلطة من قمعها واضطهادها لطائفة من الشعب، أو قومية، أو إثنية، وتمارس ضدها التمييز العنصري والوسائل الكفيلة بإذلال أبنائها وتحقيرهم، مستخدمةً بذلك طائفة أخرى من المجتمع، تقوم بالتزلُّف إلى السلطة وادِّعاء صلات القرابة مع الأسرة الحاكمة، كأنْ يقول أحدهم: (حْنَّا من النَّفَس) أي من المناطق القريبة جغرافياً من الأُسرة الحاكمة، التي سرعان ما سوف تمارس بحقِّها الممارسات نفسها، كما حدثَ مع العقوبات الجماعية لعشيرة الجبور بعد محاولة الاغتيال الفاشلة في السادس من كانون الثاني 1990 في استعراض الجيش، لكنَّ هذه العقوبات سبقتها عقوبات أشد ضد الشعب الكردي، فجميع الكرد كانوا متهمين ومراقبين من الجهات الأمنية، ويشكِّلون خطراً على الأمن الخاص بالأسرة الحاكمة، وبعد الشعب الكردي، طائفة الشيعة، والعقوبات الجماعية تتسبَّب بردود فعلية نفسية بعيدة المدى

تتنافى مع ترسيخ أسس سليمة لثقافة الاعتراف بالآخر، وسوف تؤدي إلى العصبيَّة العشائرية أو القومية أو الدينية التي أضطهِدَ بسببها، فبسبب قوميته أو طائفته وجدَ نفسه مهدَّدا بالقتل والتهجير، سيجعله يزداد بها تعلُّقاً، حتى يمحي لديه الشعور الوطني أو الإسلامي أو الأخلاقي أو الإنساني، فلو أنَّ الوعي الجماعي لدى فئةٍ ما تقرِّر أنَّها لا تقبل الانتقال إلى أرضٍ ومنطقةٍ جغرافية أخرى، ولا توافق على استغلال أراضٍ زراعية تعود إلى عائلات تمَّ تهجيرها لأسباب عِرقية، وهناك عشائر رفضت لأسباب أخلاقية كعلاقات حسن الجوار، وليس لأسباب إنسانية كما ينبغي، وهذا التمييز العنصري وَبَالٌ شديد الخطر، ويؤدي إلى تفكّك المجتمع، وإذكاء روح العداء والكراهية، مما يؤدي إلى نزاعات خانقة، تتطور إلى حرب شرسة، سببها سياسة الهوية، وهي سياسة إقصائية، فالصرب كانوا يطالبون بالسلطة المطلقة على أساس هويتهم، وسياسة الهوية تعني (المطالبة بالسلطة اعتماداً على هوية محدَّدة، سواء أكانت الهوية وطنية، قبلية، دينية، أو لغوية، بمعنى من المعاني تنطوي سائر الحروب على صراع هويات.. الشيوعيين ضد الديمقراطيين)[26].

وتستخدم (تقنيات زعزعة الاستقرار الهادفة زرع الخوف والحقد، والهدف هنا هو السيطرة على السكان عن طريق التخلص من كل هوية مختلفة، بل من كلِّ رأيٍ مخالف)[27]. لو نتصوّر تركياً متزوِّجاً من كردية، أو العكس، لن يشعر بقوة الانتماء القومي والتعصُّب الذي قد نراهُ لدى تركي متزوِّج من تركية، سيقول برحابة صدر: "الكردي مسلم والتركي مسلم"، فضلاً عن الأخوَّة الإنسانية، ولكن في الوقت نفسه هناك حرب استمرَّت عقوداً بين الترك والكرد بسبب اللغة فقط، فالاثنان يعيشان في تركيا ويدينان بالإسلام، ويتمنَّيان انضمام تركيا إلى الاتحاد

(26) ماري كالدور، الحروب الجديدة والقديمة، ترجمة حسني زينة، ص14.

(27) ماري كالدور، الحروب الجديدة والقديمة، ترجمة حسني زينة، ص16.

الأوروبي، وسيقاتلان في خندقٍ واحد، ضد أيِّ عدوان خارجي على تركيا، وإمبراطور الهند جلال الدين أكبر (1542-1605)، لم يلغِ ضريبة الحج على الهندوس، إلا بعدما تزوج من أميرة أجيكرا الهندوسية، فراح يعتمد الأخوة الإنسانية، وينظر بألفة إلى الأديان الأخرى، ويؤسس للعدل أساس التعايش، هذا الأمر ينطبقُ على الكرد والعرب والسنة والشيعة في العراق. لماذا كان هناك في صفوف صلاح الدين الأيوبي من غير المسلمين يقاتلون أبناء دينهم؟ بسبب عوامل مشتركة عديدة، منها اللغة والثقافة والأرض، وحسن الجوار، وغير ذلك. لماذا هناك مَنْ يُسمَّون بالمرتزقة يقاتلون أبناء جلدتهم مع الصائل الغازي المهاجم المحتل؟ بسبب الظلم الذي وقعَ عليهم، أو لأسباب مادية، أو بسبب عوامل مشتركة أيضاً كالثقافة واللغة والموطن. في لبنان ودارفور ونيجيريا تقاتلت الطوائف في حروبٍ شرسة من أجل حصة أكبر من السلطة، كانت حروباً عبثية، انتحارية، لا تختلف كثيراً عن حرب البسوس، أو أية حربٍ جاهلية أخرى، ومن الجميل ومن الحكمة أن يعترف بعض القادة السياسيين اليوم: أنَّ هذه الحروب التي خاضوها كانت أخطاءً قاتلة لن تتكرَّر مرَّة أخرى، ولن نسمح لأحدٍ بإغلاق باب الحوار مع الآخر المختلف..

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أنَّ الشاعر الجاهلي الصعلوك الشنفرى كان في بني سلامان بن مفرج لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره وكان السلامي اتخذه ولداً وأحسن إليه وأعطاه فقال لها الشنفرى اغسلي رأسي يا أخية وهو لا يشك في أنها أخته فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم فقال له الشنفرى أصدقني ممن أنا قال أنت من الأواس بن الحجر، فقال أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة، ثم إنه ما زال يقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً وقال الشنفرى للجارية السلامية التي لطمته وقالت لست بأخي:

ألا ليتَ شِعْري والتَّلَهُّفُ ضَلَّةٌ
بما ضَرَبتْ كَفُّ الفتاةِ هَجِينَها
ولو علمت قُعْسوسُ أنساب والدي
ووالدِها ظَلَّتْ تقاصَرُ دونَها
أنا ابن خيار الحُجْر بيتاً ومَنْصِباً
وأمي ابنةُ الأحرار لوْ تَعْرِفينَها

والقُعْسُوسُ: لَقَبٌ للمَرْأةِ الدَّمِيمَة. والشنفرى لم يسأل عن نسبهِ وأصولهِ، حتى شعرَ بالتمييز العنصري، فهيَ قد لطمته بسبب افتخارها بقومها، وهو أقسم أنْ يقتلَ منهم مئة رجلٍ ثأراً وافتخاراً بقومهِ. وحينَ عيَّر أبو ذر رجلاً بأمِّهِ قال له صلى الله عليه وسلم: (يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ).

نفى الإسلام الهويات السياسية واللغوية والقومية، واحتاطَ من أشكال التمييز العنصري كافة، لأنَّها بذرة الشقاق والنزاعات والحروب، وأكَّد صلى الله عليه وسلم ذلك في خطبة الوداع فَقَال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى، ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أ بَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ). ولماَّ مارسَ الأمويون التميز العنصري ضد الآخر المختلف، والأعاجم منهم خصوصاً، سَقَطَتْ دولتهم على أيدي الأعاجم، ومارس العباسيون التميز عينه، ومارسه كذلك السلاجقة ومن

قبلهم البويهيون وجميع مَنْ تعاقبَ على الكرسيِّ في بغداد من بعدهم، وتحزَّب أمراء الطوائف في الأندلس لهوياتهم واقتتلوا فيما بينهم فذهبت ريحهم وزالت دولتهم، وكذلك فعلت جميع الإمبراطوريات القديمة.

انغلاق هوية الدين القومي

صورةٌ أخرى من التهوي (إنَّ الهويات الطائفية في كل المجتمعات ذات الطبيعة التعددية، لها شخصية متحوِّلة، تتغير مع الوقت نتيجة التفاعلات، داخل الجماعة أو بين الجماعات، وتفقد بعض الجماعات هويتها عبر عملية تآكل طويلة المدى لأنَّ أفرادها أصبحوا مهمشين أو تمَّ استيعابهم من جماعات أخرى)[28].

هذا التغيُّر قد يحدث أيضاً في عملية تآكل قصيرة المدى جداً، كما حدث عندما افتخر فراكلين بنجامين عام 1760 لانتصار بريطانيا على فرنسا، وقال: "أنا بريطاني" ثمَّ في تموز 1776 شجب فراكلين وألغى هويته البريطانية ووقع إعلان الاستقلال الأمريكي.

رغمَ أنَّ علماء الشيعة الإيرانيين في النجف، طالما صرَّحوا بتذمرهم من أنَّ لإخوانهم من علماء الشيعة العرب في النجف، ميولاً قوية لتقديم عروبتهم على هويتهم الدينية الشيعية، وهذه الحقيقة معروفة، ولم تكن سرية، لأنَّ جميع الحكومات التي جاءت بعد العهد الملكي كانت تشجِّعُ هذه الميول، خوفاً من أطماع شاه إيران، ورغمَ ذلك راهنَ قادة إيران الجدُد على أنَّ العراقيين الشيعة، سوف يُغلِّبون هويتهم الدينية، على هويتهم العرقية، والوطنية، ويرفضون قتال إخوتهم في الدين، وراهنَ البعث في العراق على الهوية العرقية، وقامَ بتحريض العرب في جنوب إيران، ففي حزيران 1979 حدثت مصادمات عنيفة بين جيش الجمهورية

---

(28) تيد روبرت جار، أقليات في خطر، ت مجدي عبدالحكيم وسامية الشامي، مكتبة مدبولي، 1995، القاهرة، ص102.

الإسلامية، وتنظيمات منطقة (خوزستان/ عربستان) في خورمشهر وعبادان، وخاب ظنُّ قادة إيران ثانيةً لأنَّهم اعتقدوا جازمين أنَّ هوية عرب الأهوار الدينية الشيعية، ستمنعهم من اللجوء إلى العراق، ولكن حدث العكس، وتوالت نداءات الاستغاثة إلى بغداد، لتخليصهم من الحكم العسكري التعسفي، وبلغَ الخطر إلى أنْ دفع الملالي إلى إخلاء المنطقة من العرب، عن طريق شاحنات حملتهم إلى مناطق متفرقة في إيران، وحين احتلَّ الجيش العراقي مدناً في جنوب إيران، أصابتهم صدمة نابليون الذي حين دخل موسكو، وجدها مدينة أشباح، فعاث الجنود فساداً سلباً ونهباً، وبالتالي قلَّ انضباطهم، وانشغل القادة بالغنائم. وبعد السنة الرابعة من الحرب العراقية الإيرانية، ازدادت نسبة الفرار من الجيش العراقي، وبدا أنَّ الكثير لم يعد يحلو لهم مقاتلة إخوانهم في الدين، أو أنَّهم تعبوا من الحرب، وللسيطرة على أزمة الفرار من الجيش، أصدرت بغداد أوامر بإعدام كلِّ مَنْ يُضبط هارباً من الخدمة الإلزامية العسكرية رمياً بالرصاص بدون محاكمة، من قبل الفرقة الحزبية في منطقته وبحضور المختار، على أنْ يُسترد ثمن ثلاثين إطلاقة نارية من ذوي القتيل، وتمنع أيَّة مظاهر للعزاء.

ولمعرفة الخميني بمكمن الخطر، وأنَّ بعض المسلمين في العراق يُغلِّبون هويتهم العرقية على هويتهم الدينية، وهو إذْ يريد هذا التغليب، فلا يريده إلا في إيران فقط، لمصلحة القومية الفارسية، ولكنَّهُ في العراق يعتبر مُخيِّباً للآمال، فخطب في المجلس الوطني بالجنود الاحتياط في 18 نيسان 1980 قائلاً: (يتبجَّحُ صدام حسين بعروبتهِ... فلا بدَّ أن تعرف الأمم المسلمة كافة، حقيقة معنى الانتماء الذي يفاخر به.. فكلمة "نحن عرب" تساوي بالنسبة له القول " إنَّنا لا نريد الإسلام" لأنَّ العرب في بداية تاريخهم كانوا ضدَّ الإسلام)[29].

---

(29) لورانت شابري، آني شابري، سياسة وأقليات، مكتبة مدبولي، 1991، القاهرة، ص174.

وبهذه الخطبة كان الخميني يروم حرمان صدام من أيَّة شرعية دينية، ولكنَّ صدام لم يحاول قط الحصول على الشرعية الدينية، إلا بشكل سطحي كادعائه بأنَّهُ من نسل آل البيت، وأدبيات البعث تقول على لسان ميشيل عفلق (كانت المهمة الرئيسة للإسلام، أن ينتقل العرب من مرحلة قبلية إلى مرحلة قومية، وأن يؤكِّد نداءً تاريخياً أصيلاً فيهم، وهذا الدور الوسائلي للإسلام كتابع ثقافي للعروبة قد اكتملَ الآن، وباتت القومية هي التي يكون في وسعها وحدها تأمين البعث، بعث الكيان، الكنه العربي)[30].

وإنَّ أحداً من المسلمين سواء كان شيعياً أم سنيًّاً لا يمكن أن يرضى بهذا الكلام المستند إلى فهم خاطئ لأصول الإسلام، وعلى هذا الأساس أفتى محمد باقر الصدر بحرمة الانتماء إلى البعث، وكذلك علماء المسلمين، كما أنَّ أدبيات البعث تقول أيضاً لا يمكن الدعوى إلى العروبة دون إبطال حكم القرآن، لأن من القوميين العرب من يدينُ بغيرِ الإسلام، فهم يقدِّمون العروبة على الإسلام، لكن يوم ذُلَّ العرب، ببقاء القدس (91) سنة بيد الصليبيين، جاء صلاح الدين الكردي فحررها، وحين تفاقمَ خطر التتار وهاجموا الشام، جاء قطز المملوكي فأنقذ المسلمين من فتنة التتار في عين جالوت، والسلطان التركي محمد الفاتح فتح القسطنطينية في 29/ 5/ 1453م، وبسبب نعرة العروبة الجاهلية عانى الكرد والشيعة اضطهاداً كبيراً من البعث، وليس من المعقول أنْ يتخلى هؤلاء عن هويتهم التي عانوا بسببها، كما أنَّ البعث رغم الحملات الإيمانية والشعارات الدينية التي رفعها في مرحلة الاحتضار، كانت زائفة، فقد ظلَّت صلاة الفجر تهمة، وإعفاء اللحى تهمة، ووجدت الكثير من التقارير الحزبية التي كتبت تتهم البعض بالذهاب إلى المسجد في صلاة الفجر. لم يتعلَّم البعث من درس عبدالناصر، بل على العكس

---

(30) المصدر السابق، ص163.

سعى بجدية إلى أنْ يكون وارثه، بتبنِّي فكرة القومية العربية، توحيد الوطن العربي، ففشلت وحدتهما مع سوريا، وصار حلم توحيد الوطن العربي على أساس القومية، باذخاً وسخيفاً.

لا مَهَمَّةَ لي، ولا مَكَادَة: لا أهمُّ ولا أكاد، فمن غيري لهذه المَهَمَّة؟ وحسبي محاولة للفهم الذاتي لمأزق الهوية في العراق الجديد: من ثلاثة وجوه داخلية ووجهين خارجيين ربما كان أشدَّ ضغطاً: الأول باطني أيديولوجي لصراع بين العلماني والديني، والقومي والحضاري، والسياسي والإنساني. والوجه الثاني ظاهري اجتماعي: بالخروج من حفرة عسكرة المجتمع إلى تسييسهِ، وتفكيكهِ، والدفع نحو تسييس فكر الأجيال الشابة، وتعكُّر كلُّ شيء، بعدما صارت السياسة صفة لازمة لكلِّ التشكيلات الاجتماعية من العائلة إلى العشيرة والطائفة والقومية والدين.

والوجه الثالث: للنضال المستميت الذي قامت به بعض الشخصيات من أجل التمسُّك بكراسيها، والتضحية بالغالي والنفيس من أجلِهَا، والوجه الخارجي يتمثَّل في التنافس الدولي على الشرق الأوسط، وانعكاساته في العراق، وتنافس دول الجوار من التأثير في صنع القرار السياسي في العراق، ونتجَ من هذه الوجوه، عدة نتائج: أولاً: مفاوضات مرهقة، وتلاعب في تنفيذ الوعود والاتفاقيات، واستغلال عراق ضعيف، لا يملك الأهلية لصناعة قرار رادع، مما يدفع جبراً إلى سياسة التحدي والمغامرات. ثانياً: ربط العراق من خلال السياق السياسي السائد بشخصيات، بدلاً من إيجاد مؤسسات. ثالثاً: تدهور اقتصادي وشلل شبه تام في قطاع الصناعة والزراعة، العاجزين عن منافسة المستورد المدعوم من قبل الحكومة، مع المبالغة في تصوير خطر الإرهاب، مما يمنحه قوة إضافية، بتعليق جميع الأخطاء على شمَّاعتهِ، رابعاً: إساءة تقدير ردود الفعل السلبية وازدياد مشاعر العداء للسلطة في الشارع، خامساً: التفاؤل حدَّ السذاجة في إمكانية حصد الأصوات الكافية للبقاء في المنصب للدورة الثالثة، دونما تحقيق تقدم ملموس على

الأرض، بإنشاء مؤسَّسات دولة قوية، تحتكر استخدام القهر المشروع على مختلف الأفراد، وتجد مشروعيتها في حمايتها لمصالح المجتمع، وحقوق الأفراد، بغير الاحتكار لن تتحقَّق السيطرة، مع التنويه بحقيقة تاريخية أنَّ تناحر الأحزاب والجماعات الحاكمة وسوء الأحوال الاقتصادية، سبب لجميع الانقلابات والثورات الدموية، فضلاً عن تضييق هامش الحرية، الذي يخلق كبتاً اجتماعياً، يمهِّد لقيام الحركات الهدَّامة، تتحدَّد وظيفة الدولة بتوازن المصلحة العامة مع حقوق وحريات المواطنين، وبدون ضوابط مؤسساتية على دور الدولة، تُهْدَر حقوق المواطنين والمصلحة العامة، من أجل نزوات شخصية، لا علاقة لها بالسياسة، من غضب أو أحقاد ومكائد، أو شهوات وملذات آنية في تحصيل مكاسب أكثر على حساب حقوق المواطن والمصلحة العامة، كما أنَّ التخلف الاجتماعي الاقتصادي، وتدني المستوى المعاشي يقفُ صخرةً أمام ممارسة المواطن لحقوقهِ، هذه الصخرة عينها التي تستخدمها أو تستفيد منها السلطة في ممارسة سيطرة وهمية مزعومة على فئة من الجماهير تمثِّل أكثرية الناخبين، وبهذا نكون تحت مظلة ما يُسمى في الفقه الدستوري " مرحلة الدولة البوليسية"، وهذه المرحلة التي دخلتها أوروبا في القرن الثامن عشر، وفي بداية القرن العشرين بدأت لديهم "مرحلة الدولة الخدمات"، ثمَّ تحققت "مرحلة الدولة المسؤولة عن الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي".

ما الفرق بين رجل الأحزاب ورجل الدولة؟ الأول ربما يمارس القتل والتهديد كما شهدنا في مشاجرات أعضاء مجلس النواب في دورة 2005، وأحدهم حقق تهديده بتفجير عبوة ناسفة تحت مقعد زميله، والثاني وَضَّحَ دوره نوري السعيد في خطابِهِ الذي أذاعته بغداد في كانون الأول 1956 الذي تهجَّم فيه على عبدالناصر، لانتهاجه سياسة المغامرة والمقامرة بكلِّ شيء، وعين النشأة القروية، وإغراءات الانضباط العسكري لحاشيته، أغرى صدام بغزو الكويت، قال السَّعيد: (يحقُّ

لرجل الدولة الأمين، أنْ يُغامر بحياته ومركزهِ، إذا أراد ذلك...ولكن لا يجوز له قط، أنْ يُجازف بمقدرات أو كيان الأمة التي يرعاها). ونشر السعيد الخطاب بصورة مقال عام 1957 في مجلة (life international). وتحضرني نصيحة بان كي مون (على قادة العراق الجديد، أنْ يتصرفوا كرجال دولة). ومن مفهوم المخالفة أنَّهم يتصرفون كرجال مافيا.

الفصل الخامس

أزمة التهوي

التهوي يعني اكتساب هوية جديدة، سلوك حياة مغايرة، دول العالم الأول اكتسبت هوية كونية، عالمية، من شأنها احتضان جميع القوميات والأديان، دون تمييز أو مفاضلة، دول العالم الثالث لم تفهم الدَّرس، حيث ما زالت النزعة القومية المتعصِّبة تنأى بسادةِ القوم المتاريف، عن الأقليات المضطهدة، والمهمشين، هؤلاء الأمراء أنصاف الآلهة، مصل تغذية المجتمعات المخملية، الذين لا يقرؤون كتاباً، ولا يعوون حركة التاريخ.

يعتمد الوجود الاجتماعي على تحديد الهوية الشخصية لأفرادهِ، والوسائل المتبعة في التحديد، هي أساس المجتمع، وهي أساس التفسير الصائب لسؤالنا: لماذا نجحت بعض الجماعات في تكوين أمة، بينما لم تنجح جماعات أخرى، رغم توافر ظروف مشابهة؟ ذلك لأنَّ وسائل التحديد تنجح كلّما قللت من مظاهر عدم المساواة، استناداً إلى الكفاءة والنزاهة.

هل من الممكن محو الخصوصية الدينية أو اللغوية أو القومية التي يمتاز بها شعبٌ ما؟

إذا كان هذا الأمرُ غير ممكن، فلماذا ما زال البعض يحاول؟

الشاعر الجاهلي الأعشى ميمون، يخاطبُ الأحمق الذي لا يفتأ يحاول:

أَلَسْتَ مُنْتَهِياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا
وَلَسْتَ واطِئَها ما أَطَّتِ الإِبِلُ
كَناطِحٍ صَخْرَةً يوماً لِيَفْلِقَها
فَلَمْ يَضِرْها، وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

صفحات التاريخ تؤكِّدُ أنَّ جميع المحاولات التي استخدمت القهر والاضطهاد والقمع والبطش في عملية المحو، قد فشلت، كسياسة التتريك، والفرنسة، والتفكُّك القومي للاتحاد السوفياتي، أعادهُ كما كان، ويوغسلافيا، وعدم نجاح تجارب الوحدة بين الدول العربية المتحدة في قوميتها وحدودها والكثير من العوامل الأخرى، وكرد فعل على فشل هذه التجارب، ظهرت نزعة قومية قطرية، فالمصري يكره الجزائري، والعراقي طوال عقود يكره السوري، بفعل ماكنات الإعلام الحكومية، حتى منعت الأغاني والمسلسلات والمسرحيات السورية، منعاً باتاً، وصار الخليجي يعتزُّ بهويته الفوقية فوق الأقطار العربية الأخرى ويرى نفسه مختلفاً، وهكذا، فالاتحادات القوية لم تأتِ إلا عن قناعة تامة ومصالح مشتركة متوازنة، كما في الإمارات العربية المتحدة، والاتحاد الأوروبي متعدِّد القوميات، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وفي كندا، وأستراليا قد نجحت، في صهر الفوارق اللغوية والدينية والقومية، كما نجح الاندماج التام في العصور الإسلامية المتقدِّمَة.
صفحات التاريخ تؤكِّدُ أيضاً، أنَّهُ كلما ظَهَرَت النعرة الطائفية والقبلية والقومية، تفتتت الدولة، وتناوشَها أمراء الحرب، وذهبت ريحهم، فالدولة الأموية بسبب نعرتها القومية، فشلت في احتواء الموالي، الذين أسقطوها فيما بعد، ومظاهر عدم المساواة التي تفشت في النصف الثاني من العصر العباسي، ساهمت في إسقاطها. وفي الإمبراطورية الرومانية، حيث اخترعوا حيلةً قانونية، للدفاع عن حقوق الأجانب غير الرومانيين،

وفي صدر الإسلام لو أنَّ العائلات عانت تمييزاً ما، لَمَا انصهرت هويتهم القومية، حيث صهيب الرومي وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وغيرهم، وكما في صحيح مسلم (إنَّ اللهَ يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا)، يعني يُشرِّفُ، وَيُكَرِّمُ وذلك بسبب العلم والعمل والكفاءة والنزاهة لا غير.

أليست محاولات خلق هوية وطنية عراقية موحَّدة باستخدام القوة هي التي جَنَتْ على المجتمع العراقي؟ لأنَّ هذه المحاولات كانت تتجاهل وجود أقليَّات، وأطياف، مهضومة تحت مظلة هذه الهوية الوطنية التي صارت مكروهة فيما بعد، كما ظلت تركيا بعنادٍ ومُكابرة، وطوال عقود طويلة تتجاهل وجود شعب كردي، بمحاولات ساذجة وسطحية لتزييف التاريخ، وتغيير الأسماء، بتسميتهم الشعب الكردي بأتراك الجبل. ولم يفهموا أنَّ معرفة أساس المشكل، أهم أجزاء الحل، وأنَّهم بتجاهلهم المشكلة، والقفز فوقها لن يصلوا إلى حل أبداً، فالحقائق التي نتجاهلها اليوم، سوف تطعننا في ظهورنا غداً، وكما يحدث في عراق اليوم من قفز فوق أسئلة الهوية، وها هي الحكومة التركية، وبعد هذه العقود من الدماء والحروب والاعتقالات والتعذيب، وأكثر من خمسة عشر مليون كردي ممنوعين حتى التسعينات من استخدام لغتهم: تفتحُ لهم قناةً فضائية، وكما قال الإمام علي: (يفعلُ العاقل في المصيبة، ما يفعله الجاهل بعد أيام).

هل هناك خلل في البنية الأساسية للهوية الوطنية العراقية؟

كيف ومتى بدأ هذا الخلل بالتشكُّل؟ لماذا لم يلاحظهُ أحدٌ من الداخل؟

متى ستبدأ في العراق مناقشات جدية للشروخ التي طرأت على الهوية العراقية؟ متى ستبدأ خطوات مدروسة لتخليص الخطاب الهووي مما عَلَقَ به من شوائب؟ هل هناك خلل في البنية الأساسية للهوية الوطنية العراقية؟ كيف ومتى بدأ هذا الخلل بالتشكُّل؟ لماذا لم يلاحظهُ أحدٌ من الداخل؟ ما معنى أن يكون لدى العراقي هوية اجتماعية، يستندُ

إليها في طريقة تفكيره؟ أليست شِدَّة اعتزاز المواطن العراقي بهويته الفرعية أو التطرف في ادِّعاء الوطنية، قد أفسدَتا عليه حياتَهُ؟

أحداثٌ خطيرة، وقعت في آذار 1991، حيث ثارت أربع عشرةَ محافظة، وخرجت عن سلطة البعث، لم يبقَ غير أربع محافظات (بغداد، الموصل، صلاح الدين، الأنبار)، هذه المحافظات أيضاً لم تخلُ من قلاقل لولا تمركز وسائل البطش فيها، هذه الأحداث فاتت المفكرين العرب، والعراقيين، فلم يتوقَّف أحدٌ عندها، ولم تأخذ حصتها من البحث والتمحيص، أما في الولايات المتحدة، فقد أشبعوها فحصاً وتمحيصاً، فقد تقدمت ليورا لوكيتز بأطروحة دكتوراه، إلى جامعة هارفارد الأمريكية عام 1992، عنوانها (العراق.. والبحث عن الهوية الوطنية)، بدأت أطروحتها التي أجازتها هارفارد بسؤال (هل أنَّ انتفاضة الكرد في الشمال والشيعة في الجنوب كانت مجرد رد فعل لسياسات نظام البعث، أم أنَّ هناك خللاً بنيوياً أساسياً في التركيبة الداخلية العراقية يحول دون اندماج اجتماعي متكامل لشعب العراق)[1].

بدأ الخلل أكثرَ وضوحاً بعد اكتشاف النفط في ولاية الموصل، لمَّا رأت بريطانيا زيادة تكاليف الاحتلال، استبدلته بانتداب، ورأت الأخير مُكلِفاً أيضاً، فاستبدلته بمعاهدة صداقة في مؤتمر سان ريمو 1920 يحفظ لبريطانيا جميع مصالحها وامتيازاتها التي نالتها بموجب الاحتلال أو الانتداب، ولم يتغيَّر غير الاسم فقط، معاهدة ملزمة للجانب العراقي، وفي حال إخلال العراق بهذه المعاهدة، تستخدم بريطانيا القوة المسلحة للدفاع من مصالحها بموجب اتفاقية الصداقة، كلُّ هذا مقابل تأهيل هيمنة سنية في هويات الحُكّام الجدد للعراق، يعملون على خلق الظروف الملائمة لاستقرار المجتمع العراقي تحت مظلة هوية وطنية

(1) لؤي خزعل جبر، الهوية الوطنية العراقية، المرتكز العراقي للمعلومات، 2008، بغداد، ص80. لوكيتز 2004، ص15.

عراقية، هذا المسلسل الدموي أعيدَ مرةً ثانية بإخراج أمريكي، وما حدثَ في آذار 1991، من تحول هزيمة الجيش العراقي في الكويت إلى انقلاب أربع عشرةَ محافظة، وهو يشبه ما حدث عام 1917، حيث ثار الجيش الروسي المهزوم في الحرب العالمية الأولى، واستخدم السلاح لقتل قيصرهم، وقد أجاد بوريس باسترناك تصوير الأحداث في رائعته "الدكتور زيفاكو".

حروبنا الأهلية نراها في السينما قبل أن تقع بسنوات، وحروبهم الأهلية يمثلونها في السينما بعد وقوعها بقرن أو عقود طويلة، ليتجنَّب الناس تلك الوحشية والمجازر التي وقعت.

يحاول البعض بسذاجة وغباء كبيرين استمرار التمسك باستخدام شِدَّة اعتزازهِ بهويته الفرعية كي يُعزِّز من مكانتها، وربما كانت النيات حسنة، ولكن النيات الحسنة وحدها لا تكفي، ولهذا قيل (عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديقٍ جاهل)، لأنَّ الأخير يريد منفعتك فيضرك، وهو إذا يهدف إلى تعزيز هويته الفرعية، لا يعلم أنَّه يهدم هويته الوطنية، وأنَّهُ بهذا الهدم الأخير، لن تبقى له هوية فرعية ولا وطنية، لأنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ، وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى، أفرط في إغذاذ السَّيْر حتى عطبت راحلته، ولم يقضِ سفره، ولا يعلم بأنَّه قد تحول إلى دون كيشوت، يحارب طواحين الهواء، بمحاربته أبناء بلدهِ، فيفكِّك وحدة المجتمع، إلى شراذم متربِّصة بعضها ببعض، يَعَضُّ كلُّ فردٍ من زعماء الحرب على شفته السفلى، وهو يقول لنفسهِ: (تلزمنا شرارة صغيرة فقط). كما حدث في يوغسلافيا، وفي أمريكا بداية القرن التاسع عشر، وهو ما أجاد المخرج مارتن سكورسيزي تصويره في فيلمه (عصابات نيويورك/ 2002) حيث جَسَّد دانييل دي لويس شخصية الجزَّار بيل، وهو بروتستانتي متطرِّف، يؤمن بمبادئ إله الانتقام والعذاب في العهد القديم، يسوم المهاجرين الأيرلنديين الجدد سوء العذاب، في مقابل ليوناردو دي كابريو الذي جسَّد شخصية الشاب أمستردام، وهو ابن القس الكاثوليكي المتسامح،

مذابح بشعة وقعت في مناخ ديمقراطي وانتخابات محلية، وديفيد هيلمينكز بدور شرمر هودن ممثل الطبقة الغنية، الذي لا تهمه شخصية المنتصر، بقدر ما يهمه استقرار الأمن لتحقيق أرباح مالية أكبر.

أليس في محاولة إضفاء مظهر ديمقراطي على هذه الفوضى العارمة في العراق، نوع من التشويه المتعمَّد للحقائق؟ أليس في تفصيل منصب جديد ينهك الميزانية العامة، وفي إعلان الرئيس أوباما شفقته من التبعات المالية الثقيلة لهذا المنصب، شيء من العجب العجاب؟ أليس في دعوة أحدهم إلى زيادة عدد الوزارات من أجل إرضاء جميع الأطراف: طرفة مضحكة مبكية؟

توقعت إمبراطورة روسيا الملكة كاترين الثانية (1729-1796)، قبل وفاتها بخمس سنوات: سيفاً جديداً، يعيد النظام إلى فرنسا، بعد الفوضى التي نشرتها الثورة الفرنسية، وكان السيف نابليون 1799، الإمبراطور الذي أقضَّ مضاجع ملوك أوروبا، أكثر مما فعلت الثورة الفرنسية، بكثير، وجعلهم يسرعون إلى الكثير من الإصلاحات السياسية والاقتصادية، التي بدونها ما كان بإمكانهم أنْ يقنعوا مواطنيهم بالحرب ضد الإمبراطور الديمقراطي الكابوس نابليون. فلولا دكتاتورية نابليون الوارث الشرعي لمبادئ الثورة الفرنسية، التي كانت أوروبا ترتجف خوفاً كلما لاحَتْ في الأفق، يتراءى لهم مصير لويس السادس عشر وعائلته، فهل يتذكر الساسة مصير نوري السعيد والعائلة المالكة وعبدالسلام عارف وجعفر العسكري ومصير النايف والداود اللذين أوصلا البعث إلى السلطة، وصدام الذي أمسك بيدِهِ الرئيس الأمريكي ريغان وقال: (هذا أملنا الوحيد في الشرق الأوسط)؟

دولة تنفق ألف مليار دولار من أجل نقل الديمقراطية إلى بلدٍ آخر، وفي الوقت نفسه تنفق مبالغ طائلةً أيضاً، للدفاع عن نظام دكتاتوري، مجاور لهذا البلد، ويعلن كل يوم نياته لامتلاك السلاح النووي!!. تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إلَّا السُّكُوتُ لَهُ، وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلانَا مِنْ تهمة الإرهاب.

أجابت البرفيسورة جين كيركباتريك (1926-2006) مستشارة السياسة الخارجية للرئيس ريغان عام 1980 ثمَّ أول امرأة تُمَثِّلُ الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة حيث سئلت آنذاك، عن سبب دعم بلادها لأنظمة قمعية؟ فقالت ببساطة ووضوح لم تتعودهما السياسة الأمريكية: (صحيح إنَّ حكامها دكتاتوريين لكنهم دكتاتوريونا) .[2]

ولمع صيتها حين نشرت مقالاً بعنوان (الدكتاتوريات والمعايير المزدوجة) بحثت الفرق بين الأنظمة الاستبدادية والأنظمة الشمولية مثل الاتحاد السوفاتي، وكيف أنَّ من الضروري للمصالح الأمريكية دعم بعض الأنظمة الاستبدادية، التي تخدم السياسة الأمريكية، في حين ليس بمقدور الحكومات الديمقراطية أنْ تقدِّم هذه الخدمات[3].

وهذا يذكرني بقصة قصيرة لنجيب محفوظ عنوانها (الرجل الثاني) نقلها المخرج أشرف فهمي إلى السينما المصرية تحت عنوان (الشيطان يعظ/ 1981) وفي الفيلم يقول عادل أدهم الذي يقوم بدور الشبلي فتوَّة الدرب الأحمر، لنور الشريف الذي يقوم بدور شطّا الحجري: (نحنُ نفضِّل الوغد المطيع على الشهم المتمرِّد). وهي الحكمة العملية التي تتعامل معها السلطة في كلِّ عصرٍ وأوان: هذه العبارة البليغة منصوصٌ عليها في نص القصة القصيرة[4].

يُقَالُ: إنَّهُ ليسَ شيءٌ من الدواب أقصر ظمأً من الحمار، وبهذا فهو بحاجةٍ دائمة إلى سيِّدِه كي يسقيه الماء، أما بخصوص مقولة "العدل أساس الحكم"، فهي حِكمة نظرية مكانها على الجدار فقط، وإلا كيف

(2) رعد كامل الحيالي، نظريات معاصرة، الخنساء للطباعة، 2002، بغداد، ص16.

(3) Jeane Kirkpatrick, "*Dictatorships and Double Standards,*" Commentary Magazine Volume 68, No. 5, November 1979, pp. 34-45.

(4) نجيب محفوظ، الشيطان يعظ، دار مصر للطباعة، ص24.

يتمنى الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، في مكان، والدفاع عن حكومة دكتاتورية لا تعترف بالديمقراطية ولا بحقوق الإنسان في الوقت نفسه؟ وكيف يتمنَّى إنقاذ دولةٍ ما، مع جعلها ضعيفة ومفكَّكة، بحاجةٍ دائمة إلى الدولة السيدة.

والموظَّفُ الحمار، لا يعلمُ شيئاً عن هويته، وأهم مزاياه لا يأتي بأمرٍ مهما كان صغيراً بدون أمرِ رئيسهِ، حتى وإنْ كان ضمن واجباته وفي حدود صلاحياته ومسؤولياته، ليس لوجودهِ أدنى فائدة، سوى لو حدثت مشكلة أو أزمة، يبرز دوره بتبرئة رئيسهِ وتحمُّل نتائج الخطأ بإيثار وشجاعة.

وفي لقاء تلفزيوني شهير قال السيد النائب لرئيسهِ القائد الضرورة: (أنتَ كالمحطَّة، إذا لم نَرَكَ، ينفدُ شحننا، فلا نعرفُ الصواب من الخطأ). ثمَّ بعد ثرثرةٍ طويلة قال له السيد النائب: (خطأكَ أفضلُ من صوابنا). وبعد ذلك توالت أخطاؤه وتعاظمت، حتى ابتلعتْ شعباً برمته، وفي فن الإدارة، ليس ثَمَّة نجاح بدون هيئة استشارية من ذوي الخبرة والاختصاص، وإلا لَمَا قال الحباب بن المنذر في معركة بدر: يا رسول الله منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه ولا نقصر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ' بل هو الرأي والحرب والمكيدة ' قال الحباب: 'يا رسول الله ليس هذا بمنزل'.

فهل كان في بلاط نيرون من يجرؤ على أن يقول له إذا استشاره (ليس هذا برأي) أو لدى أيِّ دكتاتور آخر؟ بالتأكيد لم يكن، والدكتاتور لا يُوظِّفُ غير الحمير، وأخبرنا تعالى عن فرعون ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الزخرف: 54. استخفَّ بعقولهم، ولكن ليس من العدلِ أن ندرس توظيف الحمير من قبل الدكتاتور حَصْراً، فكلنتون في ولايته الأولى كان صريحاً بأنَّهُ لا يريدُ موظفين يناقشونه، بل يريدُ حميراً يشتغلون بجدٍّ ولا يتعبون ولا يفكِّرون، فإذا

حققوا إنجازاً نسبوه إلى رئيس البيت الأبيض، وإذا حدث وفشلوا في أمرٍ ما، تحملوا المسؤولية بشجاعة ونسبوا الإخفاق إلى أنفسهم بسبب عجزهم وضعفهم، كما فعلَ رامسفيلد وكولن باول في خطاب الاستقالة، محاولين تبرئة بوش، يقول ديفيد هالبرشتام: (من المفارقات الغريبة أنَّ التحذيرات التي تلقَّاها كلنتون حول وارن كرستوفر، ربما أسهمت في تثبيت الرجل في المنصب، ليس شخصاً قوياً مستقلاً متمتعاً بآراء تخصُّهُ عن العالم.. ولعلَّ آخر شيء كان كلنتون يريده هو وجود رجل في الخارجية قد يبادر إلى تكوين نوع من التوتر الداخلي بقوَّة شخصيته)[5] .

كرستوفر حين أدَّى اليمين الدستورية كان في السابعة والستين من عمره، ولكنَّ الحمير غير مشمولة بسنِّ التقاعد، وكان أكبر سِنَّاً من الرئيس كلنتون بإحدى وعشرين سنة، ولد عام 1925، وفي عام 1945 أنهى دراسة القانون، نائب مدعي عام الولايات المتحدة 1967-1969، من 1977 إلى 1981 وكيل وزير الخارجية، منحه كارتر وسام الحرية لدوره في إطلاق سراح 52 رهينة في السفارة الأمريكية في طهران، في 20/ 1/ 1993 أدَّى اليمين الدستورية كوزير للخارجية، وحتى 20/ 1/ 1997.

وآخر شيء يريدهُ المدير العام، أنْ يكون نائبه أو وكيله ذا شخصيَّةٍ قوية، يسرِقُ منهُ الأضواء، وكان اختيار كلنتون قد أثارَ ضَجَّةً كبيرة، وتساءل الجميع لماذا اختاره (وبعد بضعة أشهر وفي أولى زيارات كرستوفر إلى الشرق الأوسط، اجتمع بحافظ الأسد الذي سألهُ: كيفَ أصبحتَ وزيراً للخارجية؟ كيف حصلت على المنصب؟ ما من أحدٍ ممن عرفوا كرستوفر جيداً اعتبرَ ذلك تعييناً مُوَفَّقاً.. كان حِمار شغل من الطراز الأول، كان شديد التحكُّم بعواطفه الشخصية مما حَصَّنَهُ ضد عِلّتي

(5) ديفيد هالبرشتام، حربٌ في زمن السِّلم، ترجمة: فاضل جنكر، مكتبة العبيكان، 2003، الرياض، ص 308.

التسريب والسعي إلى المجد، جاعلاً إيّاه مُرَشَّحاً لإضفاء إنجازاته الخاصة على البيت الأبيض، إذا سارت الأمور بصورة جيدة، فإنَّ الأضواء ستتركّز على البيت الأبيض، أمّا إذا تعثّرت فإنَّ كرستوفر كان رجلاً من نوعية لم يعد لها نظير من بين المرشحين، رجلاً مستعداً لتسليط الأضواء على ذاته)[6]. وهناك أمرٌ آخر، فالدكتاتور يُقرّبُ أبناءه وأقرباءه ويمنحهم سلطات شبه مطلقة، يقول ابن خلدون: (يُقرِّب الملك أقرباءه، ويوليهم الولايات العامة، فيفسدون، فيبطش بهم) ولم يتنبه ابن خلدون إلى أنّه قد يحدث العكس (يُقرِّب الملك أقرباءه، ويوليهم الولايات العامة، فيفسدون، فيخاف الملك أو يتأخر في عزلهم، فيبطش الشعب بالملك أو يعزلونه).

في صفحةٍ مسروقة من ألف ليلة، قالت شهرزاد بلغني أيها الملك السعيد أنه كان ملكٌ قد ولّى أقرباءه كافة، في مناصب الدولة المهمة وغير المهمة، وفي يومٍ من الأيام خرجَ في جولة تفقدية، فاكتشفَ أنَّ أقرباءه لا يُنَفِّذون أوامره، ولا يحترمون شخصهُ، إلا حين يمثلون أمامهُ، واستشار العرّاف الذي استورده من الهند، فتخوَّف من أنْ يقول شيئاً، قد يودي بحياتهِ، فطلب مهلةً، وطالت المهلة، وخرج الملك يوماً للصيد، فأمطرت السماء، فدخلَ وحاشيتهُ إلى كوخٍ حقير، وسأل صاحبه: (لماذا لم تخرج إلى عملك هذا اليوم؟ والتفتَ إلى حاشيته: ألم أقل لكم إنَّ شعبي جميعهم تنابلة)، ردَّ الرجل الفقير: (كنتُ أعلمُ يا سيدي أنَّ السّماء سوف تمطر). سأله الملك: (وكيف عرفت؟)، فأجابهُ: (وجدتُ حماري لا يريد الخروج، وهو حين يفعل ذلك، أدركُ عن تجربة أنَّ أمراً سيئاً سوف يحدث). اشترى الملك حمارهُ، وقلّدَهُ تاج الوزارة، وطردَ العرّاف، فما كان من الحمار إلا أنْ اتصل بأبناء فصيلته وأرسل إليهم رسالة الكترونية أنَّ هذا البلد جنّةُ الحمير، وجاء الحمير يهرعون إليه،

---

(6) المصدر السابق ص307.

حتى ما بقيَ في أوروبا حمارٌ واحد، وصاروا جميعهم ولاةً ووزراء ومسؤولين رفيعي الدرجات، لم يرضَ أدناهم بأقلَّ من منصب مدير عام، ولمَّا كان لهذه الحمير رؤىً مختلفة بحسب تجارب البلدان التي قدموا منها، حاولَ كلٌّ تطبيق رؤيته الحماريَّة، فَحَدَثَ تضاربٌ خفيف، لكن الشعب عاشَ فقيراً سعيداً، لأنَّ الحمير وإنْ كانت تستهلكُ علفاً كثيراً، لكنَّها أبداً لا تؤذي أحداً ولا تحبُّ سفك الدماء، ولا ترسلُ الأعلاف إلى بنوك خارج البلد، بدأت الدول العربية تُقَلِّدُ هذه التجربة، وها نحنُ نرى كثيراً من الحمير قد ارتقت في بعض البلاد العربية وتسلمت أعلى المناصب.

الهوية بين التجربة والنظرية

من نظرته إلى العراق، واستناداً إلى مبدأ الهوية، استخلص أمين معلوف مركز بلية عصرنا في مقولتين صحيحتين باطلتين (بربرية العالم الإسلامي، وَقاحة الغرب) من العراق (كان هناك طاغية دموي حكمَ البلاد بواسطة الإرهاب طوال ثلث قرن، وأثخنَ شعبه بالجراح، وبذَّر أموال النفط في نفقات عسكرية أو بذخية، وغزا جيرانه، وتحدى الدول، وأكثر من العنتريات وسط تصفيق الجماهير العربية، قبل أنْ ينهار دون قتال حقيقي، وما كاد الرجل يسقط حتى غرقت البلاد في الفوضى، وراحت الطوائف المختلفة تتذابح، كما لو كان يُراد القول: انظروا كان لا بد من حاكم دكتاتوري لضبط شعبٍ كهذا) والصواب أنْ يكتب غزا جيرانه، ومن العراق أيضاً (كان هناك حصار أوقعَ شعباً بكاملهِ في البؤس، وأودى بحياة مئات الآلاف من الأطفال، دون أنْ يحرم الدكتاتور سيكاره، ثمَّ كان هناك غزو تقرر تحت ذرائع كاذبة ولم يأبه للرأي العام ولا للمؤسسات الدولية، وكان من بين دوافعه الطمع في السيطرة على الثروات النفطية، ولم يكد النصر الأمريكي يتحقق حتى

تقرر التعجيل بشكل اعتباطي في حل الجيش العراقي وجهاز الدولة، وأدخِلَت الطائفية صراحة إلى قلب المؤسسات، كما لو أنّهم تعمدوا إغراق البلاد في حالة دائمة من عدم الاستقرار، وعلاوة على ذلك كانت أعمال التنكيل في سجن أبو غريب، والتعدي المنهجي والإهانات المتواصلة، والأضرار الجانبية، والتجاوزات العديدة التي ظلت بلا عقاب، وأعمال النهب والفوضى الإدارية والمالية،.. يرى البعض أنَّ حالة العراق تثبت عدم قابلية العالم الإسلامي للديمقراطية، ويرى الآخرون أنَّها تميط اللثام عن حقيقة وجه " نشر الديمقراطية" حسب الطريقة الغربية، يمكن أن نرى حتى في شريط موت صدام حسين مدى ضراوة الأمريكيين والعرب على السواء)[7]، وأورد المترجم الصواب كنقيض للبطلان، بينما الصِّحة تناقض البطلان، وفي نظرة معلوف إلى العالم بعد نهاية الحرب الباردة (انتقلنا من عالمٍ كانت فيه الانشطارات إيديولوجية بالدرجة الأولى، وكان النقاش فيه متواصلاً، إلى عالمٍ باتت فيه الانشطارات هووية بالدرجة الأولى وللنقاش فيه حيز صغير، فراح كل واحد ينادي بانتمائه في وجه الآخرين، ويطلق لعناته ويحشد أهله، ويؤبلس أعداءه، هل لديه ما يقول غير هذا، ما أقل المراجع المشتركة بين أعداء اليوم!!)[8]، وفي نسبة الانشطارات إلى الهوية، تصير هوِيوية.

إذا كان عداء الماركسية، هو العامل المشترك الوحيد بين القاعدة والغرب، فإنَّ هذا العامل لم يعد له وجود، و(سيتذكر الناس يوماً ما هذه السنوات، اللعينة كتلك السنة التي أقدمت فيها الشرطة الأكثر حضارة في العالم، شرطة لندن على بطح مسافر شاب برازيلي على

---

(7) أمين معلوف، اختلال العالم: حضاراتُنا المتهافتة، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، 2009، بيروت، ص31.

(8) أمين معلوف، اختلال العالم: حضاراتُنا المتهافتة، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، 2009، بيروت، ص 23.

الأرض في ميترو لندن بريء ولكن أسمر البشرة، وقتله بسبع رصاصات في الرأس. إنَّ صِدام الحضارات ليس نقاشاً بين مزايا إيراسم وابن سينا، والكحول والحجاب، أو النصوص المقدسة، إنما هو ميلٌ عالمي إلى كره الأجنبي، والتميز العنصري والتكيل الإثني والمجازر المتبادلة أي نحو تآكل كل ما يشكل الكرامة الخلقية لحضارتنا الإنسانية)[9].

ومن مبدأ الهوية، استنتج سوسير مقولته: " ليس في اللغة إلا الفروقات" وأنَّ المعنى في اللغة مسألة اختلاف ليس إلا، فالدال "بطة" هو بطة، لأنَّه ليس قطة، ولا شطة، مبدأ الهُويَّة، من مبادئ أرسطو المنطقية، كلُّ شيء هو: هوَ، أ = أ، ولا يمكن لألف إلا أن يساوي ألفاً، وبالتالي لا يمكن لأيِّ شيء أن يكون موجوداً معدوماً في اللحظة عينها، والمكان نفسهِ، وهو المبدأ الثاني مبدأ عدم التناقض، وهو استنتاج صادر عن مبدأ الهوية، كما أنَّ الشيء إمَّا أن يكون موجوداً أو غير موجود، والطالب لا يمكن إلا أنْ يكون ناجحاً أو فاشلاً في سنة دراسية محدَّدة، أما الخيار الثالث (ناجحُ فاشل) فهو مبدأ الثالث المرفوع، وهو استنتاج آخر عن مبدأ الهوية، أمَّا إذا قلنا عن شيء نعم ولا، فهو أمرٌ خارج عن "حكم التجربة" بحسب المفهوم الكانطي، كجواب ابن العربي لابن رشد الفيلسوف (ولقد دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغَهُ ما فتح الله به علي في خلوتي فكان يظهر التعجُّب مما سمع فبعثني والدي إليه في حاجة قصداً منه حتى يجتمع بي فإنه كان من أصدقائه وأنا صبيٌّ، ما بَقَلَ وجهي ولا طرَّ شاربي، فعندما دخلت عليه قام من مكانه إليّ محبة وإعظاماً، فعانقني، وقال لي: نعم، قلت له: نعم، فزاد فرحه بي، لفهمي عنه، ثم إني استشعرت بما أفرحَهُ من ذلك فقلت له: لا،

---

(9) أمين معلوف، اختلالُ العالم: حضاراتُنا المتهافتة، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، 2009، بيروت، ص289.

فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده، وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهيّ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر قلت له: "نعم لا". وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها فاصفرّ لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل وعرف ما أشرت به إليه، وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي فشكر الله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة وقال هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغالق أبوابها والحمد لله الذي خصني برؤيته ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية فأقيم لي رحمه الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني وقد شغل بنفسه عني فقلت إنه غير مراد لما نحن عليه فما اجتمعت به حتى درج، وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونقل إلى قرطبة وبها قبره ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير، وصاحبي أبو الحكم عمرو ابن السراج الناسخ فالتفت أبو الحكم إلينا وقال ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه هذا الإمام وهذه أعماله يعني توالفيه وقلنا في ذلك: "هذا الإمام وهذه أعمالهُ، يا ليت شعري هل أتت آمالهُ"[10]. هذه القصة قال عنها ناقد أكاديمي: "خرافات". لو أنَّ شخصاً آخر غير ابن العربي لَمَا اختزلَ ابن رشد خطابهُ إلى كلمةٍ واحدة، تُضمِرُ سؤالاً طالما حيَّر الفلاسفة: "نعم"، من ابن رشد تعني: "هل منحكَ الكشف والفيض

(10) ابن العربي، الفتوحات المكية، ج1، الباب الخامس عشر: في معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم، ص152.

الإلهي، ما أعطاهُ لنا النظر والتأمل والدراسة؟". وكذلك جواب ابن العربي (نعم ولا) ما كان لغير ابن رشد أن يسبرَ أغوارهُ، ولهذا قبل أنْ نقرأ ديوان شعر، علينا أنْ نسأل عن هوية الشاعر وهوية القرّاء الذين يستهدفهم، ونلاحظ، أنَّ قائمة المستهدفين تتغير بمرور الزمن بحسب المراحل التي يمر فيها الشاعر.

وكان لمحمود درويش رأيٌ تراجع عنه فيما بعد، أفصحَ عنه في ديوانه الأول الذي أصدره 1964،

قصائدنا بلا لون
بلا طعم.. بلا صوت
إذا لم تحمل المصباح
من بيت إلى بيت!
وإن لم يفهم "البُسَطا" معانيها"
فأولى أن نُذَرِّيها/ ونخلدَ نحن..للصمت!
لو كانت هذي الأشعار
إزميلاً في قبضة كادح
قنبلةً في كف مُكافحْ
لو كانت هذي الأشعار!(11)

وهو يقصد أنْ يفهمها الجميع، ويقول درويش بعد ثلاثة عقود: (وهذا يعني أن الغموض، هنا، لا يعود إلى كون شعر الشاعر مجرد طلاسم وألغاز، وإنما يعود، كما ذكرت، إلى عمق فكر الشاعر واتساع ثقافته." ويسأله المحاور" . شعرك واضح إلى حد الغموض بل إلى حد الاستغلاق أحياناً. في حالة من إبهام كامل كمثل قولك: "أعرف ما يحزن قلبك المثقوب بالطاووس". فيجيب درويش: ("القلب المثقوب

(11) محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، أوراق الزيتون: عن الشعر، ط1، 2003، دار الهدى، كفر قرع، حيفا، ص28.

بالطاووس" بالنسبة لي صورة في منتهى الوضوح. لكنني لا أعرف كيف أفسرها. نعرف كيف يفرش الطاووس غروره ويطلق بذلك احتفالاً لونياً. إذ ذاك ينقب أي قلب)[12]، وأدونيس (القول بشعرٍ يقرؤه الجميع ويكتبه الجميع يعني شيئاً واحداً: القضاء على الشّعر. وفي مناخ من هذه المقولة يعيش القارئ العربي- يعيش، في ما يشارك في القضاء على الشّعر دون أن يدري)[13]، (ويعلن أدونيس غير مرة أنَّه يكتب لعدة مئات فقط على امتداد الوطن العربي)[14]. وفي مقولة أدونيس تحدٍّ ولومٌ وعتاب يخفي وراءه إغراءً كبيراً، و"دعْ عنك لوْمِي فإن اللّوْمَ إغراءُ" وهو نهيٌ للقارئ العربي، الذي يعشق التحدِّي، بألا تقرأ شعري، لأنك لن تفهم، و"ما زادهُ النهيُ شيئاً غيرَ إغراءِ":

وَكُــلٌّ يَــدَّعــي وَصْــلاً بــلــيــلــى
ولــيــلــى لا تُــقِــرُّ لــهــم بــذاكــا

هوية القارئ المستهدف مهمة، كما هوية الكاتب، وكلُّ هذا ليس في منأىً عن النص المقروء، فالنقد الهُويوي لا يخطئ أبداً، بل يتبنَّى هوية مُغايرة، وبذلك يروم إعادة تأسيس هُويَّة النص بذاتِهِ لذاتِهِ، وللنقد الهُويوَي أذرع طويلة، لا ينفلتُ منها شيء، وعيون واسعة مُتَّسِعَة، وأدوات غير قابلة للحصر، لكن قبل هذا:

هُوْيَّة أمْ هَويَّة؟ بفتح الهاء: بطاقة التعريف، التي يبرزها المرء لرجال الشرطة أو نقاط التفتيش، وبضمِّ الهاء: مصطلح فلسفي، يسمح بتحويرِهِ إلى أداة نقدية مع (مقارنة غامضة للمصطلح الهيدجري (Dasein)

---

(12) مجلة مشارف، عدد 3، تشرين الأول 1995، المقابلة التي أجراها معه عباس بيضون، ص93.

(13) أدونيس، زمن الشّعر، دار الساقي، ط6، 2005، بيروت، ص127.

(14) د. عبدالكريم حسن، لغة الشعر في زهرة الكيمياء، المؤسسة الجامعية، ط1، 1992، بيروت، ص7.

وينطق به المُنافِحون العرب على نحوٍ خاطئ "هَوية بفتح الهاء". في حين إنَّ الهُويَّة مصطلح ينتمي إلى المعجم الفلسفي العربي منذ العصر الوسيط ويحيل في المنطق إلى مبدأ الذاتية أو الهوية "أ = أ"(15).

والهُوية صورة العلاقة مع الآخرين، ومع المكان (ظَهرت الهوية، كما لو كانت معياراً للتفسير، مهيمناً على كل تحليل تاريخي وسياسي وسوسيولوجي.. صار هذا الأمر: يُشكِّل ظاهرة جديدة)(16)، ولم يقدِّم تفصيلاً، ولا دليلاً عملياً على نجاح هذا المعيار، والسؤال هو كيف نستخدم الهُوية كمعيار لتفسير النص؟ هل نعتمد المناصَّات: "اسم الكاتب، عنوان الكتاب الرئيس والثانوي والإهداء، وصورة الغلاف، والجنس الذي اختاره الكاتب لكتابهِ، وغير ذلك؟ وهل تعتبر هذه الإيقونات المناصِّية " خارج النص بحسب المفهوم الدريدي: لا شيء خارج النص" أم داخله؟ بالتأكيد ليس بمقدورنا اعتبارها خارج النص، وبحسب جينيت هي "الأرجل التي يمشي بها النص إلى جمهورهِ وقرائه".

كالسطوة التي يمارسها اسم مؤلِّفٍ شهير على قارئهِ، وبغض المؤلف بسبب موقف شخصي خارج النص المقروء، من شأنِهِ إفساد عملية القراءة من الداخل. ويعد مناصَّات النص، كأداة للنقد الهويوي، هناك التناص الداخلي ومحاورة النص لنصوص أخرى، وهُوية الضمائر النحوية، وهُوية الشخصيات بالنسبة إلى الأعمال السردية، كهُوية "ك" في روايتي ثلج لباموك ومحاكمة كافكا، وهوية المحكمة وهوية مدينة قارص التركية، زمن رواية ثلج، يبدأ بوصول البطل ومعه في الحافلة

(15) مجموعة مؤلفين، مفاهيم عالمية: الهوية، ترجمة عبدالقادر قنيني، المركز الثقافي العربي، 2005، بيروت، ص17.

(16) مجموعة مؤلفين، مفاهيم عالمية: الهوية، ترجمة عبدالقادر قنيني، المركز الثقافي العربي، 2005، بيروت، ص14.

نفسها الممثل المسرحي صوناي ظائم الذي سيقود انقلاباً عسكرياً لمصلحة العلمانيين، محاكاة لوصول ك بطل كافكا في القصر والمحاكمة، وتشابك التباس هُوية الشخصيات في كوميديات شكسبير.

الاغتراب الهويوي

هل من الممكن فصل الهوية الكردية عن تاريخها؟ عن اللغة؟ عن المجتمع؟

هل يشعر المواطن الكردي بالاغتراب؟ لماذا يقول الشاعر فلك الدين أمين: في وطني أتمنى المنفى؟ لماذا ما زال الكثير يحلمون بالمنفى؟ وكلُّ منفىً، يعقبهُ الفتح والنصر.

لماذا ينظر المواطن الأوروبي والغربي إلى مؤسَّسات الدولة، نظرة ودية أليفة؟ كيف نغيِّر نظرة المواطن الكردي إلى مؤسَّسات الدولة؟

الاغتراب الهويوي للمواطن الكردي، يمكن تقسيمه قسمين، استناداً إلى شكل مؤسسات الدولة:

أ- مؤسسات الدولة المركزية العربية قبل 1991.

ب- مؤسسات الدولة اللامركزية الكردية بعد 1991.

ليست حالة خاصَّة، فالمرحلة الأولى تنطبق على الهوية العراقية المغتربة استناداً إلى شكل مؤسَّسات الدولة المركزية قبل 2003، واللامركزية بعد 2003.

في المرحلة أ، كانت هناك طبقة استطاعت أنْ تحمي مصالحها بعلاقات مع السلطة المركزية في بغداد، وصولاً إلى درجة قربها من البعث، من مستشارين ومدراء، وعلاقات خاصة، وقلما يوجد ثراء فاحش، متوارث بدون جاه، وعلاقات قوية مع مؤسسات الدولة، هذه الطبقة عينها ركبت الموجة، صارت أكثر جاهاً وثراءً في المرحلة ب، في المقابل بدأ الاغتراب يأخذ شكلاً آخر، يستند إلى العلاقة مع

المُؤسَّسة، ظهرت طبقة غاضبة، لم تحصل قط على حياة كريمة، بدأ اغتراب يستند إلى ظلم ذوي القربى، وهو الأشدُّ مَضَاضَةً، لكن الاغتراب لم يكتسب شكلاً مؤسَّساتياً، يمكن استيعابه، وتحجيمه، والسيطرة عليه، وإمعاناً في تجاهلِهِ، بقيت المسافة بين المواطن ومؤسَّسات الدولة، تزداد بحسب درجة سيطرة الأقلية، وتغيرات البنية الطبقية للمجتمع، لأنَّ مؤسَّسات الدولة في المرحلتين ذات طابع شخصاني بحت.

فترات قاسية حَمَّلت الهوية الكردية، تَرِكَة تغييرات جوهرية تأرجحت بين أنساق متضادة للذاتية والموضوعية، باعتبار الذاتية وجود الهوية الكردية لذاتها، في الوعي واللاوعي، سواء الفردي أم الجمعي، واعتبار الموضوعية وجود الهوية الكردية في ذاتها، أي الوجه الآخر للذاتي، المقابل، الوجود المضاد، الوجود الموضوعي في وسائل التعبير، في المرحلة الأولى أ ظلَّت الأحزاب الكردية تنوء بهمِّ تعبئة الشعب الكردي حول الهوية القومية، باعتبارها السند القانوني والإنساني لمطالبهم وحقِّهم في حياةٍ أفضل، بعيداً عن الخوف والاضطهاد والتهجير، وكانت الهوية الكردية تعاني قلقاً واضطراباً نتيجة الحرب الباردة التي تستهدف تذويبها، من الحكومة المركزية، حتى أنَّ بعض رؤساء العشائر الكردية ظهروا على شاشات التلفاز، وقالوا بأنَّنا من أصول عربية، نزحت إلى الجبال بسبب مشاكل وحروب عشائرية، في المرحلة ب نتيجةً للهجرة المليونية التفت المجتمع الدولي إلى الشعب الكردي، مُنِحَ ولأول مرة منطقة آمنة خارج سيطرة بغداد، واستمرَّ الحزبان الكرديان في إدارة المنطقة 1991-2003 بإدارتين منفصلتين، كانت الحرب الباردة بين الحزبين، وقود الاستمرارية والكينونة، لكن نتيجة الهجرة المليونية عينها، نَزَحَت الكثير من العائلات الكردية إلى أوروبا، لِتُشَكِّل مصدراً للعملة الصعبة، وللتنمية البشرية والثقافية والاقتصادية، من خلال عودة الكثير منهم إلى كردستان، لتقديم خدماتهم بإخلاص، لكنَّ البعض منهم عاد من أجل الاستفادة فقط،

للحصول على منصب أو صفقة مشبوهة، مع الاحتفاظ بجنسيته الأوروبية، واعتزازه بهذه الهوية، بسبب اغترابهِ عن هويته الكردية، وعجالته بلملمة وتحقيق أرباح أكبر، وبشكل أسرع، والعودة إلى حيث تنتظره عائلته.

بعض الوافدين من الغرب، بِنيَّة تغيير واقع كردستان، أرادَ تطبيق مشاهداته غير الواعية عن طريق وسائل الإعلام أو غير ذلك، فاقترحَ الطريقة التوليفية في التعليم الابتدائي، ويظنُّ بعض خبراء التربية أنَّ هذه الطريقة التي تم تعميمها دون دراسة كافية، هي السبب الوحيد في أنَّ معظم خريجي المدارس الابتدائية لا يجيدون كتابة الحروف، ولا التلفظ بها بشكل صحيح.

ينتشر لدينا مرضٌ نفسي خطير، فالقادة السياسيون الذين جاؤوا من الخارج، ليحكموا البلاد، يخوِّنون الشعب، أو ينظرون إليه نظرة استعلاء، فالذي يحمل الجنسية الأمريكية لا يقدر أنْ ينزل إلى مستوى مَن لا يحمل سوى الجنسية العراقية فقط، وكذلك بقية حاملي الجنسيات: البريطانية والفرنسية والألمانية، وهلم جرّاً، فالذي بقيَ في الداخل، يذوق ألوان العذاب، والحصار والجوع، والخوف، والحكم البوليسي، يُنظر إليهِ كجبان وخائن، وبعثي، وإلى آخره من الأوصاف، وبالمقابل تسببت هذه الظاهرة بعقدة نقص، وأزمة ثقة، بعض أفراد الشعب، حالما يرون أحد الذين عادوا بعد ثلاثين سنة من الاغتراب، عانوا سهر الليالي الحمراء والزرقاء، في مجتمعات لا تعرف معنى الجوع، ولا الصوم، ولا الخوف، لا يسعهم إلا الانحناء احتراماً، باعتبارهم شبه آلهة، وبالمقابل يريد البعض من هؤلاء المستوردين، ممارسة الانتقام من الذين بقوا في الداخل، وإذا ما التقى أحدُ المسؤولين من الوزراء أو المدراء العامين المستوردين، أحداً من المغتربين، حتى ولو أنَّهُ لم يلتقِ بهِ يوماً، هناك في بلاد العم سام، سوف يرحِّبُ به كأخٍ غير شقيق، ويكتب على ملفِّهِ هامشاً (يُعاد فوراً إلى

الخدمة بدرجة خبير، ويُحال إلى التقاعد، مع احتساب سني غربته خدمة فعلية لأغراض الراتب والتقاعد) باعتبارهِ مناضلاً سياسياً، لم يسكت أمام ظلم الجنرال، بل غادر العراق ليبدأ نضاله في ليالٍ حمراء على موائد لاس فيغاس، ووالت دزني، مئات وربما آلاف الطلبات تمَّ ترويجها إلى دائرة التقاعد العامة لمواطنين كانوا عراقيين، لم يطأوا أرض الوطن منذ ثلاثين سنة، بحسب أيديولوجيا الانتقام من عراقيي الداخل، الجياع الفقراء، الذين يحلمون بوظيفة، وإذا حصلوا عليها، تحذف خدمتهم العسكرية، لأنَّهم كانوا يقاتلون دولة جارة، وصديقة، أما العراقيون الذين استشهدوا في تلك الحرب المشؤومة، فاعتبروا متوفين، كذلك المنافع في العراق الملكي، كان لحاشية الملك، وعراق قاسم كان لأصدقائه وغيرهم ممن يُسَبِّحون بمجده وعبقريته، والعراق زمن البعث، كان لأزلام البعث، وعراق اليوم، صار للعراقيين الجدد المستوردين، كان صدام حسين، وحاشيته، يدركون تماماً، أنهم وحوش مفترسة، وأحياناً كثيرة كان يفتخرُ بذلك، باعتباره الرجل الوحيد في العراق، والبقية ذكور أو إناث، ولكنَّ أحداً من حاشيته لم يكن يتمتع بجنسية أخرى غير العراقية، ويقول الشاعر د.هـ. لورنس: (البعوضة تدركُ تماماً/ بأنَّها على الرغم من صغر حجمها: وحشٌ مفترس/ ولكنَّها على كلِّ حال لا تمتص أكثر من طاقة معدتها/ إنَّها لا تمتص شيئاً من دمي لتودعه بنكاً) حتى أنَّ كتاباً رسمياً صدرَ عن رئيس مجلس قيادة الثورة يمنع عند كتابة طلب (عريضة) أو كتاب رسمي، أنْ يُلحق اسمٌ ما بلفظة المحترم، عدا اسم واحد هو اسم الجنرال.

من جانبٍ آخر اتحدت الجهود المختلفة دونما إرادة مباشرة، وانصبَّت في محاولات تذويب الهوية الكردية في بوتقة الحداثة، لكنَّها حداثة سطحية، تستهدف القشور فقط، تروم تغيير المَلْبَس والمأكَل، فانتشرت المأكولات الغربية، والأزياء، ومطاعم البيتزا، وقصَّات الشعر الغربية، ونالت المرأة جُرعةً من الحرية، أكثر مما كانت تحتاجها،

فازدادت بالمقابل حالات الطلاق، والقتل غسلاً للعار، والانتحار حرقاً، في حوادث مشبوهة، وبدلاً من معالجة هذه الظاهرة بالتعرف على أسبابها وجذورها، راحوا ينشئون دوراً لرعاية وحماية الزوجة الخائنة، والبنت الهاربة، إمعاناً في تفكيك المجتمع الكردي المحافظ، وبالتالي تزداد المسافة بين مؤسسات الدولة والمواطن، ومن جانب آخر تزداد دعوات محاربة المساجد، أو تحجيم بنائها، أو اقتراحات بتوحيد خطبة الجمعة، في كل محافظة مسجد واحد، يخطب الجمعة، هؤلاء المغتربون المتجنّسون لا يكادون يفهمون طبيعة الشعب الكردي، لا يفهمون أنّ خطيب الجمعة، لا يتجاوز كلامه أبداً قال الله تعالى، قال الرسول صلى الله عليه وسلّم، لا يأمر بالفساد وإشاعة الفوضى، بل بداية الشرور، والفوضى، عندما لا يجد الناس أحداً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر (لا تقتل، لا تسرق، لا تغضب، لا تحسد، أحبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك، حليلة جارك كوالدتك، لا ضَرَرَ ولا ضِرار.. الخ). فضلاً عن الدور الإيجابي للمساجد في إيقاف حالات السلب والنهب، وإعادة الكثير من المواد والأثاث المسلوب من المؤسسات الحكومية، إذا اختفى هذا الكلام، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سينهض الفوضويون، الذين لا يخشون الله، غير مبالين بالدماء المسفوكة في سبيل تحقيق أطماعهم، نشرت مجلة المحامي (في عام 2006 حكمت محكمة الأحوال الشخصية في دهوك بالطلاق في 158 دعوى قضائية، وفي عام 2007 ارتفعَ العدد إلى 172 حالة طلاق، وفي عام 2008 ارتفع العدد إلى 317 حالة طلاق).

وفي أربيل كانت حالات الطلاق (عام 2006 فكانت هناك 1141 حالة طلاق، وعام 2007 ارتفعَ العدد إلى 1385 حالة طلاق، وفي عام 2008 انخفضَ العدد إلى 1083 حالة طلاق).

بينما ترتفع النسبة في مدينة السليمانية (في عام 2006 فكانت هناك 1629 حالة طلاق، وفي عام 2007 ارتفعَ العدد إلى 2063 حالة

طلاق، وفي عام 2008 ارتفعَ العدد ليتساوى مع العدد الذي يشير إلى العام وهو 2008 حالة طلاق)[17]. سنةً بعد أخرى تزداد حالات الطلاق، التفكك الأسري يتبعهُ تفكك في النسيج الاجتماعي، والابن الذي ينشأ بعيداً عن أحد والديه، وبما سوف يعاني صراعاً هوياتياً، ويصير عالةً على المجتمع، هذا الضياع، يحدث هو عينه بشكل صراع في العقل الجمعي، حول إشكاليات اجتماعية أخرى، والذي قد ينتهي بوحدة العقل الجمعي لفئة تعاني التهميش، كما حدثَ في تظاهرات الشعب المصري يوم 25 كانون الثاني 2011، حيثُ أنَّ أحداً لا يقدر أنْ يُخمِّن حركة التاريخ، التي هي حركة المجتمعات، ذات الهوية الحديثة، المعقدة، خِلاف الهوية القديمة الخالية من أدنى تعقيد، وكما بدأت الملاحم بالبطولات الفردية، ثم جاءت الإلياذة ببطولة جماعية، وقد كان الناس قديماً يحبون الأبطال ويؤسطرونهم، حتى إذا ماتوا في معركةٍ أو على الفراش، اتخذوا من أصنامهم آلهةً يعبدونها، فإذا بروائي شاب يصنع بطلاً شجاعاً لكنّه سافل، ذكي وفحل، لكنّه مخادعٌ وخائن، ضميره حي وإنساني، لكنّه قاسٍ أشدُّ القسوة، فاهتزَّت صورة البطل، وظلَّت تهتز حتى صار الناس اليوم يحبون الأشياء العادية المألوفة، التي يمرون بها ولا ينتبهون لها، فالتغيير الفردي أساس الجمعي، كما يقول غاندي (كُنْ أنتَ التغيير الذي تريد أن تراه في العالم) ويفصِّل ليرمنتوف التغييرات الهوياتية الفردية، وصولاً إلى أنَّ الفرد مسؤول عن حركة المجتمع، حيث يخاطب المهمَّشُ نفسه (نعم، ذلك كان حظي منذ نعومة أظفاري، الناس يقرؤون في وجهي غرائز شريرة أنا منها بريء، وما زالوا يفترضونها فيَّ حتى نَبَتَتْ وتأصَّلَت، كنتُ خجولاً فاتهموني بالمكر،

(17) أحمد حسن خلف، قاضي أول محكمة الأحوال الشخصية في دهوك، مجلة ياريزه ر، العدد 18/ 10، 2009، نقابة محامي كردستان في أربيل ص232.

صبحتُ كتوماً، ولكنَّ أحداً لم يعطف عليَّ بل كانوا جميعاً يؤذونني، صبحتُ حقوداً أحبُّ الانتقام. كنتُ أشعرُ أنني فوقهم، فقيلَ لي أنني ونهم، فأصبحتُ حسوداً، وكنتُ مهيَّئاً أنْ أحبَّ جميع الناس، فلم يفهمني أحد، فتعلمت الكره)[18]. معارفنا تعتمد على وضعنا الاجتماعي، والتاريخي لا الشخصي، وهذا التشيؤ يدفعُ إلى اكتساب الإنسان صفات غير إنسانية، هي العلة في تنوُّع إنتاج المجتمعات المختلفة في مراحل تطورها المختلفة، لأشكالٍ متباينة من المعرفة، والمغزى كامنٌ في مرض العصر، الذي يسمونه 'الضجر'، الذي يجعلُ الشاب يشيخ وهو في ريعان شبابه، خصوصاً إذا كان يعاني الإفلاس الروحي والمادي، والبطالة، والتهميش، والشعور بالتفاهة، (إنْ كان يجب أنْ أموت، لن تكون خسارة العالم فيَّ عظيمة، وأنا لستُ ضجراً أعمق الضجر؟ إنني كرجلٍ يتثاءب في حفلةٍ راقصة)[19].

منعطف الهوية الكردية

ما زال هناك شيءٌ غير قليل من الغموض، يكتنفُ الهوية الكردية، المُعَلَّقة بين ماضٍ أليم ومستقبلٍ مجهول، ومقارنات لا تنتهي بينهما، تُسبّبُ صراعاً داخلياً نفسياً من أجل الكينونة، صراع لا يحتملُ النّصر ولا الهزيمة، لأنَّهُ صراع هويوي يمسُّ كينونته ووجوده، هذا الغموض يبدو ظاهراً في عدم استقرار المجتمع الكردي، بسبب عدم استقرار دور المواطن الكردي الفرد، سببهُ اضطراب أسئلة الهوية، تزداد المسألة تعقيداً حين يشعر بأنَّهُ لا يكاد يميز بين:

---

(18) ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، ترجمة سامي الدروبي، دار رادوغا، 1984، موسكو، ص228.

(19) المصدر السابق، ص283.

ماذا أريد؟ وماذا ينقصني؟

تدفعه رغبة نفسية شديدة لتأكيد ذاتهِ، بعد تراكم أحاسيس معقدة بالتهميش الاجتماعي، في زمنٍ كان يعرف نفسه مواطناً من الدرجة الثانية، فيصيرُ المواطن مغترباً في وطنهِ، ولهذا الاغتراب دورٌ كبير في هذه الأزمة السياسية اليوم، أو للكثير منهم على الأقل، وبينما ينشغلُ بسؤال ثانوي: كيف أبدو أفضل؟ فاتَهُ سؤالٌ رئيس: كيف أكون أفضل؟ وفي بحثهِ المحموم عن مكتسبات جديدة، قد لا يشعر بضياع فرصتهِ بالمحافظة على الخزين الموروث، كما حدث في جميع الإمبراطوريات، التي كانت تروم التوسُّع، ظنّاً فيه زيادةً للقوة، بينما كان العكس، لا يجلب التوسع إلا الانتشار والتشتت والتشظّي، من ثمَّ يأتي الانحلال ببطء، وَلَمَّا كانت الأنا تعاني أزمة انعدام الثقة في الآخر، ولفترةٍ طويلة حتى ترسَّخَتْ وصار من الصعب الخَلاص منها، ولكن انعدام الثقة، لم يأتِ من فراغ، بل جاء من تجارب مريرة، لذا فالتوازن المنشود في آركيولوجيا الهوية يقول بأنَّ انعدام الثقة خيرٌ من السذاجة السياسية التي لا تجلب غير الصدمات وخيبة الأمل، سَعْيَاً وراء سراب الوعود الكاذبة، كبروق الصيف، لكن الظروف تغيرت، ولأول مرة يشعر المواطن الكردي، بأنَّ لهُ دوراً في صنع القرار، إلى حدٍّ ما، لكن ليس تماماً، والإشكالية هنا، أنَّ التجربة أثبتت أنَّهُ لا يلزم من تغير الظروف دوماً، حدوث تغيير في الهوية، كما لا يلزم تحقق الأفضل، كما لا يلزم من تغير المسموع والمرئي تغير الرؤية والسمع، فالمرئي والمسموع يدعوان إلى نبذ الطائفية والفئوية والتزمت والتعصب، والعنصرية والعدوانية، وأنواع التمييز الأخرى كافة، ولكن الواقع يخبرنا بغير ذلك، فالتغييرات الهويوية، وتقلبات أحوالها، لا تحدثُ في الظاهر فقط، بل يلزمها إحداث تغيرات في التوازنات القارَّة خلال قرون، أو عقود، فمن العسير زلزلتها أو الإخلال بها، أو حدوث تغيير مفاجئ، بل على العكس لا يقع هناك تغيير البتة، وكأنَّ شيئاً لم يحدث، وتقلبات حركة العملية

السياسية السريعة والشديدة، حتى الصواعق والتصريحات النارية التي تذهب أدراج الرياح، تُحْدِثُ تَصَدُّعاً أسفلَ قاع الهوية الوطنية، بالإقليمية والقومية، تراكمات بطيئة، لتغييرات وتفاعلات لا تنعكس على السطح إلا ببطء شديد، يَصْعُبُ على الباحث ملاحظتها.

وإذا كان المواطن الكردي يَدَّعي مع نفسهِ بأنَّهُ يعرف ماذا يريد، فإنَّ نتائج الانتخابات هي التعبير الوحيد عن هذه الإرادة الجمعية، وقد أثبتت تقدماً ملحوظاً في العملية السياسية، حيث أنَّ تغييراً قد حصل، وظهرت معارضة حقيقية لأول مرة في البرلمان الكردي، وهذا دليل على شيء من الحيوية في جوهر الهوية، حيث يطغى التفكير الأسطوري، ونسبة الخير والشر إلى آلهة الأولمب أو أبطال أنصاف آلهة، ينقذون الناس من آمالهم بالوعود المعسولة، رغم أنَّ الجميع قد نال فرصته، فبينما في الحكومة المركزية لم يتحقق أدنى تقدم، لا في مجال الخدمات ولا مجال الأمن، ولا التنمية ومكافحة الفساد الإداري والبطالة، وجميع الذين حصلوا على الأصوات، كانوا في برامجهم الانتخابية يقولون بأولويات سرعان ما تناسوها، أولها خدمة المواطن.

(توصل تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية صدرّ عام 1937 إلى استنتاج يقول: إنَّ الفاشية تناسب روح إيطاليا، وقد جلبت النظام بعد الفوضى، والانضباط بعد التسيب، والوفرة بعد الإفلاس.. كل ذلك في فترة زمنية قصيرة جعلَ اتخاذ جملة من التدابير الصارمة أمراً ضرورياً)[20].

فهل توصَّلَت السفارة الأمريكية إلى استنتاج مشابه؟ السفارة المتكونة من عشرين بناية بكلفة ستمائة مليون دولار بكادر يزيد على اثني عشر ألف موظف مدني وعسكري واستخباري.

---

(20) نعوم تشومسكي، ردع الديمقراطية، ترجمة فاضل جتكر، دار كنعان، 1993، دمشق، ص46.

هل بوسع دولة ذات مؤسَّسات قانونية أنْ تحارب الديمقراطية؟

أظهرت النتائج فوز حزب مبارك بنسبة 96% قبل خلعه بشهرين، وفجأة نزلَ الملايين إلى الشوارع، في المدن كافة، وفي العراق سابقاً فاز صدام بنسبة 99,999%، واليوم أيضاً حقق خمسة أشخاص فقط، نسبة ربع أصوات الناخبين، ولكن تظاهرات يوم 25 شباط، في مدن العراق عموماً، تظهر غير ذلك، ستالين كان يقول: (ليس مهماً أسماء المرشحين، ولا رغبات الناخبين، المهم من يُمسك بصناديق الاقتراع)، اختزلت الديمقراطية في أشخاص، لا في نظام يتخُذ شكلاً مؤسساتياً، فالديمقراطية ليست هِبَة من أشخاص يعتبرون أنفسهم القادة الوحيدين، سنوات عِجاف لم تظهر صحافة قادرة على كشف مواضع الفساد وسوء استخدام السلطة، واستغلال الوظيفة، والأساليب المبتكرة، للإثراء بدون سبب، بواسطة تشريعات ضبابية هدفها زيادة امتيازات فئة محدودة على حساب المصلحة العامة، اختزلت الديمقراطية في نظام انتخابي غير عادل، غير نزيه، عملية سطحية لاختيار قادة سياسيين، استناداً إلى درجة القرابة، أو الصداقة، أو الولاء، بعيداً عن شرطي الكفاءة والنزاهة، أنثى تأخذ مقعداً في مجلس النواب بتسعمائة صوت فقط، وَذَكَرٌ لا ينال مقعداً بأكثر من أربعة عشر ألف صوت، وآخر يدخل بألفي صوت، والعشرات منهم بشهادات مزورة، ولهذا أصدروا قراراً يعفو عن السادة الأغنياء المزورين، أما الفقراء المزورون فإلى جهنم، وهكذا دواليك، وبقيت طريقة العيش عينها، والعقل السائد ازدادَ عنفاً، ومجموعة تبريرات تستند إلى إيديولوجيا انتهاك كرامة الإنسان، بالأمس بدعوى تحرير القدس، والخطر الخارجي، والأمن القومي، والمؤامرة العالمية، والأمن الرئاسي، وتحركات أعداء الحزب والثورة، واليوم بدعوى أعداء الديمقراطية، والإرهاب القادم من دول الجوار، والمؤامرة الإقليمية، الديمقراطية حرَّرت أوروبا من محاكم التفتيش، والحق الإلهي للحاكم، وأنقذت المواطن من عبودية الملك والحاكم، وحررت العراق من الحزب الواحد، وعبادة الأصنام، والألقاب، فالقائد الرمز كان عز

المؤمنين وفوز المجاهدين، وزوجته خديجة الصغرى، لكن اليوم ظهرت لدينا حكومة أوليغارشية، تستخدم كلمة الديمقراطية نفسها لتعني بها واقعين مختلفين، الأول افتراضي من شعارات مزيَّفة، أنقذناكم من البعث، منحناكم الحرية، والثاني واقعي حقيقي، نظام حكم القلة، طبقة سياسية لا همَّ لها سوى زيادة نفوذها، وتوسيع سلطاتها الخاصة، والإثراء الشخصي لأعضائها، فهناك المصلحة الخاصة لسكان المنطقة الخضراء، التي تُسَخِّرُ المصلحة العامة وتهزأ بالمواطن، منحناكم الحرية وسلبنا منكم الأمن والراحة، والكهرباء، ومياه الشرب، ووقود السيارات، والخدمات، لأنَّ مجموعة مصالح المنطقة الخضراء الخاصة المتضخِّمة لم تتلاشَ أمام المصلحة العامة، وبهذا تظل الأوليغارشية قائمة، تحقِّقُ أهدافها بأيَّـة وسيلة ممكنة، وانتقل العراقي من عبودية القائد الرمز، إلى عبودية فئة محدَّدة من الأغنياء، أوليغارشية، وإذا بكلِّ ما هو موضوعي، وثقافي، كل ما هو إنساني، وبالتالي حَضاري، يَنحَيِرُ لمصلحة كل ما هو شخصي، ونفعي، وبهذا فإنَّ تجربة العراق تؤيد فكرة أنَّ الديمقراطية لا يمكن لها أنْ تنجح في المجتمعات الفقيرة المسحوقة، وليس بمقدروها تقديم خدمات للمواطن، لأنَّها لا تخدم سوى المجتمعات الواعية بدورها في صناعة القرار، وبحسب فيلسوف الحداثة آلان تورين (لا تولد الديمقراطية من دولة القانون، وإنَّما من الدعوة إلى مبادئ أخلاقية: الحرية والعدالة باسم أكثرية بلا سلطة، وضد المصالح المُسَيطرة، فالديمقراطية ليست مقصورة على إجراءات ومؤسسات وإنما هي القوة الاجتماعية السياسية) ويؤدي افتقار الديمقراطية إلى الضغط الاجتماعي والأخلاقي إلى أنْ تتحول بسرعة إلى أوليغارشية، ويضيف تورين (ليست دولة القانون هذه مقترنة بالديمقراطية اقتراناً ضرورياً، فبوسعها أن تحاربها)[21].

---

(21) آلان تورين، ما الديمقراطية، ترجمة عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، 2000، دمشق، ص37.

هوية البطل الأسطوري

اللوغوس "العقل" في تضاده مع الميثوس "الأسطورة"، قد انتصرَ في النهاية، في لحظة تاريخية، انبثقت منها الحداثة ونبذت الأساطير وراءها، إلا كدلالة لعلماء الأنثروبولوجيا على مرحلة عقلية في تاريخ الفكر البشري. لكن ما زال للشعب الكردي أساطيره الخاصة، كجميع الشعوب، كاوه الحداد، وثورته على الحاكم الظالم، يحيون ذكراه كل عام، وغيرها من الأساطير.

لأنَّ الكتب المقدَّسة والأديان السماوية، نصَّتْ على العودة، فالإنجيل يقول بعودة المسيح عليه السلام، والقرآن ينفي موته، والأحاديث تؤكِّدُ عودته، فضلاً عن المهدي المنتظر، وبمرور الزمن، طرأت على هذه الحقائق، تراكمات كثيرة، في محاولات تحريفها، بإضافة بعض الأحداث، والتفاصيل، والشيطان يختبئ في التفاصيل الدقيقة، وجاء في جميع الأساطير، يغيب البطل في رحلة أسطورية، ثم يعود منتصراً، بروميثيوس يصعد إلى السماء، يسرق النار ويعود، تموز وأدونيس وأوديسيوس وإيناس يهبطون إلى العالم السفلي ويعودون، كلكامش يذهب إلى غابة الأرز، ويعودُ، بطل الهند الأسطوري القديس كريشنا يعود من منفاه، ومريدو الحلاج ينتظرون عودته، يقول جوزيف كامبل: (الرموز الأسطورية، لا يمكن أنْ تُصنَّع تصنيعاً، لذلك لا يمكن السعي في طلبها، فضلاً عن أنَّها لا يمكن أنْ تُخْتَرَع، كما لا يمكن أن تُقمَع بشكل دائم، إنَّها إبداعات تلقائية للنفس، وكلٌّ منا يحمل في داخله قوة المنطلق هذه)[22].

كتبَ نيكوس كازانتزاكس عن قرية يونانية يحكمها الترك، والصراع

---

(22) جوزيف كامبل، البطل بألف وجه، ترجمة حسن صقر، دار الكلمة، 2003، دمشق، ص17، 18.

المحتدم بين الذين يزيفون دينَ المسيح، والمقتدين به، في رائعته (المسيح يصلب من جديد)، ومن قبلهِ ذهبَ خيال دوستويفسكي بعيداً، فتخيَّل عودة المسيح، برواية إيفان صوت العقل، الإنسان المادي الحديث، لأليوشا تلميذ الأب زوسيما، لثيط همته للكف عن الاستمرار في محاولات الإصلاح، إيفان على لسان المفتش الكبير، كاردينال إشبيلية، يمتدح ثلاثة أسئلة لإبليس، سألها للسيد المسيح عليه السلام (كون الأسئلة قد ألقيت، تشهد بأنَّ الأمر لم يكن أمر عقل إنساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق، ذلك أنَّها تضمُّ في ذاتها، وتشتمل على كل التاريخ المقبل للإنسانية، وتقدِّم رموزاً ثلاثة تتركَّزُ فيها جميع تناقضات الطبيعة الإنسانية، التي لا سبيلَ إلى حلها.. الآن بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أنَّ كلَّ شيء تضمنته تلك الأسئلة قد تأكدت صحته، إلى درجةٍ لا نستطيع أن نضيفَ إليها شيئاً، أو أنْ نحذف منها شيئاً بعد اليوم).[23]

والأسئلة كانت في شكل ثلاثة اختبارات: الاختبار الأول (هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة، حولها إلى خبز، تهرع إليك الإنسانية كقطيع جائع)[24]. أجابه السيد المسيح (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)، وفي الاختبار الثاني قال لعيسى ألقِ نفسك من فوق الجبل؟ فأجابهُ السيد المسيح: يا لعين، الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

والثالث كان (ألا فاعلم أنَّنا لسنا معك، بل معه هو.. إننا منذ زمنٍ طويل كَفَفْنَا عن أنْ نكون معك، وتحيَّزنا هل هو، فمنذ ثمانية قرون، قبلنا أنْ نأخذ منه ما سَبَقَ أن رفضته.. أعني الهبة الأخيرة التي عَرَضَها عليك، وهو يشير لك إلى ممالك الأرض، لقد قبلنا أنْ نأخذ من يديه

(23) لأخوة كارامازوف، ترجمة سامي الدروبي، دار رادوغا، 1988، موسكو، ج1، ص534.

(24) المصدر السابق، ص534.

روما وسيف القيصر، وأصدرنا قراراً بأنْ نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين.. لقد كان في وسعك أنْ تقبل سيف القيصر، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نَصَحَكَ بها الروح القوي)[25] ويقصد بالروح القوي: إبليس، رفضَ السيد المسيح المادة في أبسط صورها، الخبز، فكيف بالذهب والأموال وبعض التقارير تتكلم عن عشرة أشخاص يمتلكون نصف ثروات العالم، وقد قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة: 34- 35. وفي الاختبار الثاني، حاول التشكيك في قدرة الله، والدخول من باب الإيمان في القضاء والقدر، يقول تعالى ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ يوسف: 21. مهما نخطّط لأمرٍ، ويكاد يصير بين أيدينا، فيأتي أمرُ الله خلاف توقعاتنا، وغير المتوقَّع دائم الحدوث، أمرهُ والدهُ بألا يقصَّ رؤيته على إخوتهِ، فَغَلَبَ أمرُ الله، ففعل، أرادَ إخوتهُ أنْ يبعدوه، فسخر الله فرعون ليوسف عليه السلام، لأنَّ " الناس مربوبون مقهورون مربوطون بأقدارهم". ولا تتحقّق إلا مشيئة الله في خلقهِ، والسؤال الثالث يتعلّق بالسلطة والجاه، فالرموز الثلاثة التي ترسم مستقبل الإنسانية: المال والسلطة، وبينهما قدر الله وقضاؤه.

ويحكي إيفان حكاية المفتش الكبير (لقد انقضت خمسة عشرَ قرناً منذ أنْ وعدَ بأن يعود إلى مملكته، منذ أنْ كتبَ رسوله " سأعودُ قريباً" أما اليوم والساعة فإنَّ أحداً لا يعرفهما، وإنّما يعرفهما أبي الذي في السموات.. ولكن الإنسانية ما تزال تنتظره بإيمانٍ واحد، وحماسة لم تتغير.. أحداث قصيدتي تجري في إسبانيا، مدينة إشبيلية، في أحلك

(25) المصدر السابق، ص543.

عهود التفتيش.. " في نيرانٍ رائعة، تمجيداً لله، يُحرقُ الزنادقة الأشرار" ، ... نزلَ إلى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية، التي تمَّ فيها أمس، إحراق حوالى مائة من الزنادقة... لكن الأمر الغريب هو أنَّ جميع الناس سرعان ما عرفوه ـ شفى ضريراً، وأحيا طفلةً ميتة ـ اضطرب الجمهور وصاح وبكى، وفي تلك اللحظة ظهر الكاردينال، المفتش الأكبر.. وهذا هو يشير إلى المسيح بسبابته، آمراً الحرس بأن يعتقلوه.. وسجدَ الجمهور بحركةٍ واحدة أمام المفتش الأكبر الذي باركَ الجمهور صامتاً وانصرف، أُخِذَ السجين إلى المبنى العتيق الذي يقع في المحكمة المقدسة... تقدَّم المفتش الأكبر ..وضعَ المصباح على المنضدة وقال له:

أهذا أنت إذن؟ اسكت لا تقل شيئاً! وما عساك أنْ تقول لي؟ إنني أعرف سلفاً ما قد تقوله لي؟ لماذا تجيء اليوم لتعرقل عملنا.. إنَّ كل قول جديد قد تأتي به، سيسيئ إلى حرية إيمان الناس، لأنَّه سوف يبدو معجزة من المعجزات، وقد كانت حرية إيمانهم أعزَّ شيءٍ لديك، آنذاك منذ خمسة عشر قرناً، ألم تكن تردد على مسامعهم مِراراً: " أريد أن أجعلكم أحراراً".. ولقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر الأحرار، إنَّ هذه الحرية هي من صنعنا، وقد كلفتنا جهوداً لا نهاية لها، ولكننا أتممنا عملنا أخيراً باسمك.. البشر في هذا اليوم بعينِهِ أشدُّ اقتناعاً منهم في أيِّ وقتٍ مضى بحريتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بكثير من الطاعة...

لقد أجبت بقولك: " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" أفكنتَ تجهل إذن أنَّ روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه، وأنَّهُ سيقاتلك ويغلبك، وأنَّ الجميع سيتبعونه قائلين: " من هذا الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذي وهبَ لنا نار السماء" لسوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تنادي فيه الحكمة الإنسانية وينادي العلم الإنساني بأنَّ الشرَّ لا وجود له، وأنَّ الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها،

مؤكدين أنَّ هناك جائعين فحسب، أطعمهم تجعلهم فاضلين، بهذه الصيحة سيحملون الراية ضدك، سيقوِّضون معبدك، ويقيمون مكانه مبنىً آخر، هو برج بابل ثانٍ مهدَّد، صحيح أنَّ البناء لن يتم، كما لم يتم في المرة الأولى... لأنَّ الذين سيطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى النهاية، وسوف نطعمهم باسمك، كاذبين عليهم بأننا نفعل ذلك باسمك، بدوننا لن يستطيعوا أن يطعموا أنفسهم أبداً، لنْ يهبَ لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحراراً، ولكنهم سينتهون إلى أنْ يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: " استعبدونا ولكن أطعمونا"... لقد وعدتهم بخبز السماء، ولكنني أسألك: هل يُقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر هؤلاء البشر، الذين سيظلون إلى الأبد فاسدين عاقين؟ إذا كانت ألوف من الناس، أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأنْ تتبعك في سبيل خبز السماء، فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تحس بأنها قادرة على أنْ تتنازل عن خبز الأرض، في سبيل خبز السماء... وسوف نوهمهم مع ذلك بأنّنا نطيعك أنت، وبأنّنا نحكمهم باسمك، سوف نكذب عليهم من جديد، لأنّنا لن نسمح لك بعد الآن بأنْ تتدَخَّل في شؤوننا، وسيكون هذا الكذب الضروري عذابنا، فلا رغبة أقوى ولا همَّ أبقى لدى الإنسان الذي أصبحَ حراً، من همِّ العثور على سيدٍ يعبده بأقصى سرعة[26].

المسرحي البريطاني هارولد بنتر أعجبه صمت السيد المسيح عليه السلام أمام هذيان الكاردينال الذي بلغَ التسعين من عمره، ودخل في حوارٍ طويل، بعدما أحرق مائة إنسان، فقدَّمَ مسرحية المفتِّش الأكبر وأسئلته الثلاثة، وأعاد تقديمها ضمن فعاليات المسرح العالمي، في احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008، كتب دوستويفسكي روايته

---

(26) الأخوة كارامازوف، ترجمة سامي الدروبي، دار رادوغا، 1988، موسكو، ج1، ص522، 536.

عام 1880، وتخيل أنَّ حكاية المفتش الأكبر وقعت في إسبانيا الجائمة تحت قبضة محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر، والأسئلة استوحاها دستويفسكي من الكتاب المقدَّس، وأدبٌ عظيم اقتبِسَ من الكتب المقدَّسة، ولو فعلنا نحن في الشرق، لاتهمونا بالسرقة، لأنَّ معظم القراء لا يعرفون التناص، ولم يقرؤوا لأبي هلال العسكري في كتابهِ (فن الصناعتين) وسمّى الظاهرة حسن الأخذ، أو سوف يتهمونك بالإرهاب، أو بالكفر والإلحاد، أو سوف يقذفونك تحت مظلة الأدب الإسلامي، ليحددوا من قرائك، أو بأية اتهامات أخرى، ناتجة من ضيق الأفق والثقافة المنغلقة.

أحاديث كثيرة تُبَشِّرُ بالمهدي، عند الترمذي وابن ماجة والحاكم والدار قطني، ورواية ابن حبَّان (لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً ثم يخرج رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً)، وفي البخاري (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟) ومنكم أي من أمَّة محمد، وعند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري وقد ولد سنة 255 للهجرة، بحسب بحر العلوم، أو 256 بحسب الكليني، وعلي بن عيسى الأربيلي 228، والمستشرق غولدتسيهر أنَّهُ ولد في بغداد، وقد لخَّصَ جواد علي في كتابه (المهدي المنتظر/دار الجمل- ط2- 2007) الكثير من الروايات، وتنتظر الشعوب الإسلامية عودتهما، ومن هذا الانتظار الذي مصدره الإيمان، انبثقت انتظارات أسطورية كثيرة، أقدم كالأغاني التي تُغَنَّى لعودة تموز من باطن الأرض، وأحدث كمريدي الحسين بن منصور الحلاج قالوا في البداية إنَّهم ينتظرون عودته، وما زال الناس ينتظرون.

هوية الفرد هوية المجتمع

كانت وما زالت هوية الفرد، أساس عمل الأنظمة الأوليغاركية،

التي اعتمدت النَّسب غالباً، أو الثروة، حين كانت المناصب تُعلنُ للبيع من قبل الملك في تاريخ أوروبا الوسيط، واليوم اكتست تلك الأنظمة الأوليغاركية ثوباً ديمقراطياً، باعتماد الثروة في اختيار عناصر السلطة من الدرجة الأولى، وأحياناً النَّسب، للدرجات الأقل، بعيداً عن أيِّ شكلٍ مؤسساتي، وهو عين ما حدث في الحرب الأهلية الإنكليزية (1649-1660) حين قام البرلمان بطرد الملك من إنكلترا، وأسسوا ما يُسمَّى بحكم الكومنويلث، واستبدلوا بذلك نظاماً أوليغاركياً بنظام أوليغاركي آخر، فشلَ هذا النظام في إنكلترا، وعاد الملكُ إلى عرشهِ (إلا أنَّ روسيا أخذت تعمل بموجبه، منذ سنة 1818، وأخذته إيطاليا منذ سنة 1922، وألمانيا سنة 1933، وهو اليوم يمثِّل النزعة الوحيدة من الأوليغاركية)[27]. هذه الأنظمة التي جرَّت العالم إلى الحرب العالمية الأولى، بسبب عدم إمكانية رأي للفرد، الذائبة هويته في هوية المجتمع، لمصلحة السلطة المستبدة، هذه الأنظمة بدأت تعود في أزياء ديمقراطية زائفة، وانتخابات مزورة، وإذا تفوَّه الفرد بكلمة حق يَصِفُ فيها ممارسات الجيش العراقي الذي يقوم بدور الشرطة، وينتشر بين الأحياء السكنية، فأنتَ خائن، أو إرهابي، أو بعثي، أو عدو الديمقراطية الوليدة، التي لم تتقدَّم خطوةً إلى الأمام منذ سنوات طويلة، كما كان المواطن من قبل إذا سألَ عن الأسباب الحقيقية للحرب الإيرانية العراقية، اتهموه بالخيانة، وبالتشكيك في نيات البعث المخلص في طلب السلام، ولن ينجو من وفاةٍ غامضة، كتلك التي لحقت بوزير خارجية الجزائر محمد الصديق بن يحي في 3/ 5/ 1982، إثرَ حادث طائرة على بعد 50 كلم من الحدود الفاصلة بين العراق وتركيا، حيث كان في مهمة ديبلوماسية لحل الخلاف بين العراق وإيران، هذه الوفاة التي تم تعتيمها

(27) برتراند رسل، أثرُ العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، 2008، بيروت، ص72.

إعلامياً بشكلٍ يكاد يكون تاماً في ذلك الوقت، وهكذا يسير الإرهاب الداخلي جنباً إلى جنب مع الإرهاب الدولي الخارجي، تحجيم حرية الفرد في الداخل، أو السيطرة عليه وترويضه، سواء من قبل الدولة أو من قبل منظمات وأحزاب أخرى تقوم باستغلالهِ بسبب هويته الذاتية، وحاجته وأحلامهِ بحياةٍ أفضل.

هوية الفرد هي النواة الأولى التي ترتكز عليها عملية قياس نجاح، أو نجاح أعمال السلطة، مخاوفنا من المستقبل المجهول، من الفقر غالباً، أو حروب مفاجئة، لم يخلُ منها تاريخ العراق، أو كساد اقتصادي، لاعتماد الاقتصاد على النفط، واتكالنا في كلّ شيء على دول الجوار، فلم يبقَ لدينا صناعة ولا زراعة، والإصلاحات الاقتصادية كافة، كمحاولات فاشلة، كان من شأنها، جعل الأغنياء أغنى، ومحو الطبقة المتوسطة، كلُّ هذا، وغيره، يكشفُ شيئاً من التناقضات التي يعيشها الفرد داخل المجتمع، والمأزق الذي وجدَ نفسهُ فيه، والإحراج حيث لم يعدْ ربُّ الأسرة يستطيع توفير حياةٍ كريمة لعائلتهِ، أو تلبية متطلباتها، بسبب المفارقات التي تحكم علاقة الفرد بالمجتمع، مما يحدو بنا للبحث عن كيفية تكوين الذات الفردية الكردية المحافظة أو غير المحافظة في مجتمعٍ كرديٍّ يدَّعي الحداثة، ويتجه عموماً نحوها، عن كيفية تذويبها، عن كيفية تموضعها في أشكالٍ قد تكون غريبة عنها، لكننا بحسب سقراط (لم نؤسِّس الدولة، لمجرد إسعاد قسم من أهلها، بل لإسعاد الجميع معاً، على قدر الإمكان، فغرضنا في إنشاء الدولة، اكتشاف العدالة، كما أننا في دولة أخرى ساء نظامها نكتشف التعدي)[28]. هذا التعدي هو الظلم، وازدياد مظاهر اللامساواة، بسبب الفساد، قد تجد قلةً من أبناء العائلات القريبة من عائلات تمارس

(28) أفلاطون، الجمهورية، ترجمة عيسى الحسن، الأهلية للنشر والتوزيع، 2009، عَمَّان، ص192.

الحكم، يقبضون أكثر من راتب من الدولة، دونما تقديم أيّة خدمات فعلية، مقابل ما يقبضونه، بالمقابل تتفشّى البطالة، والفقر في عموم المجتمع، وتاريخ المجتمعات يخبرنا بأنَّ حالة واحدةً من توزان الفرد، لم تتحقَّق قبل تحقيق توازن في الجسم الاجتماعي، توازن بين احتياجات الفرد، ومتطلبات المجتمع.

ما من ضغطٍ أكبر من ضغط المجتمع على هوية الفرد، الذي يرى ويسمع عن حياة الترف التي يعيشها البعض في مجتمعٍ يعيشُ فيه أيضاً، هوية الفرد قد تنساق وراء العرف والممارسات الاجتماعية، وغالباً ما يجدُ الفرد نفسهُ إمَّعة، مصطلح مستخدم في الجاهلية، عن الرجلِ يجيبُ كلَّ ناعق، الذي لا رأيَ لَهُ من قبل نفسه، فهو تابعٌ أبداً، ويقولون أيضاً (هُوَ بِنْتُ الجَبَلِ) أيْ الصدى يجيب المتكلم بين الجبال، فهو مع كل متكلم كما الصدى يجيب كل ذي صوت بمثل كلامه، فالهوية الفردية تبرزُ من خلال مقاومتها لحقيقة الإجبار الذي يمارسه المجتمع، وقد يحاول الشعراء تثبيت هذه الأعراف، وغالباً ما اتَّخذ الناس أبيات شاعرٍ كأحكامٍ وقوانين، كما في معلقة الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله
على قومهِ يُسْتَغْنَ عنه وَيُذَمَّمِ
وَمَهْما تَكُنْ عندَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
ولَوْ خالَها تَخْفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ
ومَنْ لا يَزَلْ يَسْتَرْحِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ
ولَمْ يُغْفِها يَوْماً مِن الذُّلّ يَنْدَمِ
ومَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
ومَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ
ومَنْ لا يَذُدْ عن حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ
يُهَدَّمْ، ومَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

ومَـنْ لا يُـصـانِـعْ فـي أُمُـورٍ كَـثِـيـرَةٍ
يُـضَـرَّسْ بـأَنْـيـابٍ ويُـوطَـأْ بـمَـنْـسِـمِ

والكثير من الأبيات الشعرية، هيَ حِكَمٌ وقواعد للسلوك البشري، في حياة الفرد والمجتمع في حيثيات يومهِ المَعيش، رأى فيها القدماء نبوءات تتحقق، وما زال الكثير، يثبت البرفيسور البرازيلي روبرتو مانغابيرا أونغر، نبوئية الشعر بجعلها قياساً (في عصر الديمقراطية والمشاركة السلمية أو الحربية بين كل أجزاء الإنسانية، فإنَّ الفلسفة مثلها في ذلك مثل الشّعر والسياسة، يجب أنْ تكون نبوئية/ (prophetic)، يمثُل محتوى نبوءتها، رؤية لكيف يمكننا أنْ نستجيب، الآن وبالأدوات المتوافرة لدينا، لتجربة ضياعنا في فراغ يتكون من الزمن، إلى بدايته ونهايته التي لا نستطيع رؤيتها، الذي لا يُبالي بمخاوفنا، إنَّها نبوءة تتعلق بطريقة تحررنا وارتقائنا في عالم الزمن)[29].

شَبَّهَ غوستاف لوبون (1841-1931) الجمهور النفسي المحكوم بقوى اللاشعور الطاغية بالإنسان المُنوَّم مغناطيسياً، الذي يصبحُ عبداً لكل فعالياته اللاواعية، ووَصَفَ لوبون وهو يلاحظ صعود مدِّ الجماهير بأنَّهم " مغول العصر"، ونوَّهَ بالإمبراطورية الرومانية التي احتلت بلاد اليونان، ثمَّ سقطت بفعل الجماهير الغاضبة، وكذلك أغلب الإمبراطوريات، وأنَّ الحضارة الغربية سوف تلقى المصير نفسه، نشرَ كتاباً عنوانه "علم نفس الجماهير"، تناول فيه الأسباب التي أنجبت الاشتراكية، وأنَّ المجتمع هو شيء مصطنع، وأنَّ تأكيدات الساسة ووعودهم الخيالية بالإصلاح والتجديد، ستمثُل ومضات أمل للمحرومين، بشيء أكثر من مجرد الخبز اليومي، هذه الومضات سوف تتحول إلى انتشار مشاعر تجاه عدم المساواة الاجتماعية، إلى الحسد والبغضاء إزاء

(29) روبرتو مانغابيرا أونغر، يقظة الذات: براغماتية بلا قيود، ترجمة د. إيهاب عبدالرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، 2010، الكويت، ص36.

قلة من الأثرياء يحكمونهم، إلى غرائز عنف حالما يكتشفون زيفها، وأزمة النقد، وسلطة الحكومة المطلقة على العقل، تصنع مجتمعات غير قادرة على العيش من دون آلهة، وبسبب هذا الكتاب هَرِعَ إلى بيتهِ قادة العالم، رئيس فرنسا ريمون بوانكاريه والرئيس ثيودور روزفلت، وغيرهما يستجدون نصائحه للسيطرة على الجماهير.

لم يستطع العلم الحديث، بأدواته كافة، التنبؤ بزلزال اليابان، أو الحد من مخاطره، كما لم تستطع الأجهزة الأمنية لحسني مبارك، بأدواتها القمعية والاستخبارية كافة، أن تقف في وجه اللاشعور الجمعي الذي جَمَعَ آلاف الناس في ساحة التحرير، ووحَّدَ صفوف الملايين، لم تستطع ماكنة البعث الإعلامية طمأنة الشعب الكردي، وقرارات العفو الزائفة، خصوصاً بعد قصف حلبجة بالأسلحة الكيمياوية، فنزحَ أهالي محافظة دهوك، واجتازوا الحدود التركية، مشياً على الأقدام، في ظروف سيئة من الجوع والخوف، هذه الهجرة المليونية التي هزَّت ضمير المجتمع الدولي، ودفعت مجلس الأمن إلى إصدار قرار يعتبر كردستان منطقة آمنة منذ ربيع 1991.

لا يمكننا أن نتنبَّأ بحركة اللاشعور الجمعي لمجتمعٍ ما، وأية محاولة للتنبؤ سوف تكون أقرب إلى روايات الدستوبيا، والخيال العلمي، لكن يمكننا أنْ نفترض أنَّ اللاشعور الجمعي لديهِ إحساس غامض، بالتهديد الكبير الذي يتربَّصُ بهوية جماعةٍ ما، ومحاولات استئصالهم غير الملحوظة بسبب بطئها الشديد، ومشاعرهم القلقة إزاء مستقبلٍ ضائع للأغلبية المضطهدة من الأقلية الحاكمة، المجتمع باعتباره يعاني ضغوطات الحياة اليومية، يعاني الفقر والحاجة والعوز، وهو يرى مظاهر الثراء والتبذير، التي يعيشها قلة من الفاسدين على حساب صمتهِ، ليس بمقدورهِ أنْ يظلَّ صامتاً إلى الأبد، حتى وإنْ كان يريد ذلك، مؤثراً السلامة.

وإذا كان اللاشعور خافياً على الإنسان نفسه، ولا يعرف عنه شيئاً،

فمن بابٍ أولى أنْ يخفى علينا اللاشعور الجمعي، وإذا كان اللاشعور يُحوّل الإنسان إلى حيوان يتصرَّف وفقاً لغرائزهِ، ويسلب عقله وكرامته وإنسانيته، فإنَّ من شأنِهِ تحويل المجتمع إلى غوغاء لا يعي خطورة أعماله، وإذْ تذوب خصائص الفرد المستسلم لحركة الجماهير، ليكتسب خصائص الجمهور، ويحاكي حركتهم، كرّاً وفرّاً، حتى يتقدَّم أسفلهم فيشعلَ الحرائق، ويقتل، ويخرِّب، وهو يظنُّ جازماً، بأنَّ ما يفعله شجاعة، وأنَّهُ بذلك يصير محطَّ الأنظار، منذ مقتل عثمان، أولُ فتقٍ في الحضارة الإسلامية، لَمْ يُرتَقْ قط، وظلَّ الفتق يتَّسِعُ على الراتق.

تزداد مشاعر القلق، والإحساس بالضياع، مع تنامي مظاهر اللامساواة، مع تفاقم حالة الأوليغارشية، نظام حكم الأقلية، عائلات قليلة تستمتع بخيرات البلاد، وعائلات أخرى قريبة منها، وعائلات قريبة من الأخيرة، وهكذا، هذا التقسيم المسكوت عنه، غير المدروس، يولِّدُ ضغوطاً نفسية، ليس بمقدور المجتمع التعامل معها، فيلجأ إلى أساليب غير متوقَّعة للتخفيف من حِدَّة هذه الضغوط، إننا نشعر بحاجة شديدة إلى التعبير عن أنفسنا، عن مشاكلنا، لكن أحداً لا يسمع، لا يقرأ شكاوانا، حتى آخر لحظة، ولات حين مناص، حين قال زين العابدين بن علي لشعبه التونسي: (لقد فهمتُكم، فهمتُ ما تريدون)، هناك صراع مستمر بين ما تريده السلطة، حكومة الأغنياء، وما يريده المجتمع، من هذا الصراع تتولد حركة اللاشعور التي اعترفَ بها علماء النفس منذ زمن فرويد، القائل بأنَّ "الحياة الواعية للنفس البشرية، لا تشكِّلُ إلا جزءاً يسيراً جداً، قياساً بحياتِهِ اللاواعية".

الهوية الكردية الحديثة

المجتمع الكردي، يعيشُ تحولاً سريعاً في هويتِهِ، كذلك الفرد يشعرُ بتغيرِ إحساسهِ بذاتهِ، نحن ننتقل إلى حقبة زمنية جديدة، بقفزات سريعة غير مدروسة.

تيار المجددين، طلاب التغييرات السريعة، نجدُ المواطن الكردي وهو يكاد يغرق في الحداثة قبل فهمها، لا ينسى لحظةً واحدة، أنَّهُ قد كافحَ طويلاً من أجل الاحتفاظ بهويته، ولا يذكرُ ساعةً أنَّهُ اليوم لا يبذل جهداً كافياً لاستعادة هويته، من التجزئة والتفتيت والاستلاب بفعل الحداثة والعولمة، ينجرف مع التيار، أو مع الأحداث كدُمية، بعيداً عن الإبداع، دون الالتفات إلى الأخطار التي تحدق بهويته الفردية، أو قوميته، يعيشُ عصر السرعة دونما توقف أو سؤال: كيف يجب أنْ أعيش؟ (وبالتالي نبدو مجبرين على الاختيار في كلّ مناسبة: بين مشاركة تحرُّرنا وتستعبِدُنا في الوقت نفسه، وبين إحجام عن طريق التحفظ الذهني إنْ لم يكن بالتمرد الخارجي)[30]، وهذا ناتج من تجاهل حقيقة أنّنا نبني هويتنا بحسب طرق الاتصال مع الآخرين، هؤلاء الآخرون هم الذين يجعلوننا من نحنُ، من خلال الاعتراف المتبادل، والاحترام، والتعايش السلمي والحوار والتسامح، أو العكس.

مقابل الغرق في الحداثة، تيار المحافظين القوميين، يتقدمه بعض الكتاب الكرد، لا ينظرون إلى الحياة إلا نظرة قومية ضيقة، إلى التاريخ، والأدب، وجوانبها الأخرى كافة، وفي الوقت عينه يدينون الحصري أبو خلدون الذي نشرَ مبدأه السيئ في التعليم (يجب أنْ ندرِّس التاريخ بنظرة قومية) وها نحن نتتبَّعُ سُنَنِ مَنْ سَبَقَنَا، باعاً فباعاً، وذراعاً فذراعاً، وَشِبْرَاً فشبراً حتى لو كانوا دخلوا جُحْرَ ضُبٍّ لدخلناه، وكذلك كان الحصري وهو ينصح بالنظرة القومية، يدين هذه النظرة لدى القوميات الأخرى، فقد كان الحصري ينهى عن خلقٍ ويأتي مثلهُ، حيث ينتقد كتابة التاريخ أو قراءته بنظرة قومية (لا مجال للشك، أنَّ مؤرخي الأتراك يستطيعون أنْ يجدوا في صحائف التاريخ مفاخر حقيقية كثيرة، تكفي

(30) روبرتو مانغابيرا أونغر، يقظة الذات: براغماتية بلا قيود، ترجمة د. إيهاب عبدالرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، 2010، الكويت، ص241.

لتغذية غرورهم القومي، وإشباعه وتنميته، وأمّا الذين يغالون في هذا المضمار.. والذين لا يتورعون عن جبر الوثائق وقلب الحقائق، بغية إثبات مثل هذه المدعيات، أعتقد أنّهم يسيئون إلى سمعتهم العلمية، ولا أظنُّ أنّهم يكونون قد خدموا قوميتهم خدمة حقيقية)[31].

من الداخل: يصطرع التياران داخل هوية المجتمع، وداخل هوية الفرد، حيث تعاني الهوية الكردية صراعاً بين عوامل وحدة اللغة والثقافة المشتركة والتاريخ، والمصير، والدين، والتعايش السلمي مع أقليات مجاورة، وبين عوامل التفرقة والتشتت، الانتماءات الحزبية، العشائرية، القبلية، الجغرافية، اختلاف اللهجات، العشائر، اختلاف الطبقات الاجتماعية، درجة الانفتاح أو الانغلاق على الآخر، درجة مقاومة عناصر الحداثة، وجميع عناصر التفرقة والوحدة، تكاد تكون غير ثابتة، عدا عنصر اللغة، الذي يحيل على القومية، فالكردي غالباً شديد الاعتزاز بلغتِهِ، لأنَّهُ عانى كثيراً بسببها.

يقول ساطع الحصري (1879-1968) مُنَظِّر القومية العربية: (الشعوب التي تتكلم لغة واحدة، تكون ذات قلب واحد، وروح مشتركة، ولذلك تكون أمة واحدة، فيجب أنْ تكون دولة واحدة)[32]، بالتأكيد كان الحصري سوف يجنُّ جنونهُ، لو علم أنَّ هذه التعميمات السطحية، سوف يقتبسها الشعب الكردي للمطالبة بحقوقِهِ، لكن اللغة وحدها لم تعد كافية في مجتمعات تحاول القفز فوق الحداثة، أمام احتدام الصراع بين العناصر الأخرى، فها هي أوروبا قد توحَّدت رغم اختلاف اللغات، وتنوعها، ويعلِّق الدكتور حليم بركات (ورغم ما في

(31) أبو خلدون ساطع الحصري، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 1985، بيروت، ص116.

(32) ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، دار العلم للملايين، 1959، بيروت، ص252.

هذا الكلام من تأكيد جازم وعدم دقة وتبسيط، يجب أن ندرك أنَّ اللغة.. هي الثقافة والحضارة والأفكار والآمال مجسدة بذاتها، هكذا يعيشها العرب، ويزيد من أهمية علاقتهم بلغتهم أنَّ المجتمع العربي مجتمع تعبيري)[33].

هوية العربي البدوي القوية، التي قاومت الاستلاب الحضاري، تجسدت في خطاب ربعي بن عامر في خيمة كسرى، لم يعد لها وجود، ففي عصر الحداثة تجد (العربي ليرفض الصعود إلى الشمس ممتلكاً لها، إنْ كان ذلك بصمت، ليختار التحدث بصراخ ومباهاة.. إنَّ العرب ليظلون يتحدثون بضجيج وادِّعاء عن أمجادهم وانتصاراتهم الخطابية حتى ليذهبون يحسبون أنَّ ما قالوه قد فعلوه، وأنَّهُ لم يبقَ شيء عظيم أو جيد لم يفعلوه كي يفعلوه)[34].

وبالمقابل نجد هوية الكردي الجبلي القوية، بأزيائهِ الخاصة، التي قاومت الحروب الساخنة والباردة، بدأت تذوب في عصر الحداثة، فتجد الكردي يريد أن يبدو حديثاً في كلِّ شيء، من أزيائهِ الأوروبية، ونوع السيارة التي يقتنيها، والأفكار السطحية التي يعتنقها، ولكنهُ أبداً لا يريد أن يكون حديثاً، أو علمياً منطقياً بعيداً عن العاطفية والانفعالية، أو بروغماتياً، يحلُّ مشاكلهُ بوسائل عملية، دون التقيد بأفكار وقرارات مُسبَقة، بل يتحرك وفق متطلبات اللحظة الراهنة والظروف المحيطة، مع مراعاة التناسب بين الإمكانية والطموح، يتعامل مع المسائل والأمور بحسب ما قد ينتجُ منها من آثار عملية لا أكثر، بعيداً عن العواطف والانفعالات.

أبو خلدون كان قد سبقه الفيلسوف الألماني فيشته (1762-1814)

(33) د. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، 1998، ص35.

(34) عبدالله القصيمي، العرب ظاهرة صوتية، ص5.

في التنظير للقومية، لكن نسق فيشته ذو عمق إنساني وفلسفي، حاول هيغل شرحه (عِمادُ نسق فيشته الحدسُ الترنسندتالي، فعل التفكير المحض الذي للذات، الوعي الذاتي المحض، أنا = أنا، والمطلق إنما هو ذاتٌ- موضوع، والأنا إنَّما هو هذه المطابقة بين الذات والموضوع)[35]. يقول هيغل إنَّ الهوية لا تتشكَّل إلا لحظة الوعي الذاتي المحض، لحظة التقاء الذات والموضوع، وهي بالتالي قابلة لانقلابات كثيرة، خصوصاً إزاء الحقائق الصادمة، كاكتشاف زيف التاريخ المكتوب بنظرة قومية، وما يعتريه من تزوير متعمَّد للحقائق، ويكمِلُ هيغل شرحه (وَيَظْهَرُ ذلك الكلُّ كنظامِ قضايا وحدوسات، وكلُّ ربطٍ للعقل بالحدَسِ الذي يناظرهُ يكون إذْ يُوَحَّدان في النظر التأمليِّ، بمثابة تهوي الواعي واللاواعي تهوِّياً يحصل لذاتهِ في المطلق وإلى ما لا نهاية فيه، لكن ذلك الرَّبط يكون في الوقت نفسه مُتناهياً ومحدوداً من حيث يُوَضَعُ ضمن الجملة الموضوعية، فتخرج عليه وجوه ربطٍ مُغايرة له، فالهويَّة الأقل انفصاماً وهي التي تكون من وجهٍ موضوعي المادة، ومن وجهٍ ذاتيِّ الشعور "الوعي الذاتي" تكون في الوقت نفسه هوية متضادة إلى ما لانهاية فيه)[36]، يقصد هيغل بذلك الكل: اتحاد الذات بالموضوع، ويقصد بالتهوي، اكتساء هوية جديدة.

لا جِدالَ أنَّ الحداثة قدَّمت صوراً جديدة للحياة، ذات أشكالٍ ومعانٍ مختلفة، فتشكَّلت مفردات حياة يومية مَعيشة، تفرزُ تحديات متنوعة تواجه الهوية الكردية، حيث ازدياد مؤشرات الفساد مع اتِّساع الاستهلاك، وتراجع النمو الزراعي بعد 2003، والقضاء على طبقة

---

(35) هيغل، في الفرق بين نسق فيشته ونسق شلنغ في الفلسفة، ترجمة د. ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، 2007، بيروت، ص156.

(36) هيغل، في الفرق بين نسق فيشته ونسق شلنغ في الفلسفة، ترجمة د. ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، 2007، بيروت، ص 152.

الفلاحين، وانعدام الصناعي، وازدياد الفروق الطبقية، واختفاء الطبقة المتوسطة، أو تكاد، وانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء، حتى يُقال أنَّ إقليم كردستان من أكثر المناطق استهلاكاً للسيارات الفارهة، غالية الثمن، والعيش الرغيد لا يجلبُ سوى مزيد من القلق، ومن شأنِ الترف والبذخ أنْ يزيلا النِّعَم.

الفصل السادس

سؤال الثقافة الكردية

يوشكُ صراع الأنا والآخر أنْ يختزلَ تاريخ الإنسانية جمعاء، حتى في داخل الإنسان، أنوات متعدِّدَة، وذوات مختلفة، وغالباً ما يشعرُ الإنسان بأنَّهُ قد صارَ إنساناً آخر، غير الذي كان يريد أنْ يصيره، ولكلِّ إنسان مستويات متعدِّدة من الهوية، هوية اجتماعية، يحمل هوية المجتمع الذي يعيش فيه، وهوية الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والعشيرة، والجماعة، والعائلة، وهوية وطنية يحمل جنسية البلد الذي ينتمي إليهِ، وإنَّ التغير الذي طرأ على الحسِّ الإنساني بالجمال، جعلهُ يفضِّلُ الأزياء البسيطة سهلة الارتداء، على المعقَّدة والصعبة الارتداء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة والنصوص الأدبية الشِّعرية، فالإنسان يستجيب للتحديات، فينتقل الفعل الحضاري من فعلٍ إلى آخر، من القطار البخاري والسفن البخارية بمكائنها الثقيلة، إلى القطار السريع إكسبرس، والغواصة النووية، من البريد الزاجل، وسرعة الخيل إلى سرعة الانترنت، ولكن هذه التغييرات كافة، التي تناولها علماء الحضارة، والانثروبولوجيون، تقتصر على وصف البيئة الخارجية، ولكنَّ أحداً لم يستطع تناول التغييرات التي طرأت على هُوية الإنسان، وذواتهِ، وسلوكهِ الذي صار أكثر عدوانية، حتى أنَّ أحد عظماء العصر برَّر قصف

هيروشيما بالقنبلة الذرية بأنَّها الوسيلة الأكثر إنسانية، لأنها سرَّعت في إنهاء الحرب العالمية الثانية.

الداء الهولندي، بسبب أزمة الوفرة بعد اكتشاف النفط، علَّم شعوب أوروبا قاطبة درساً بليغاً، ومنهم النرويج، أما الدَّاء العراقي، فلم يتعلَّم منه العراقيون شيئاً، لا ولم يدرسوهُ أيضاً، فلعلَ قارئاً حصيفاً، يأتي ليفصِّلَ ما عجزَ قلمي، وتناءت مصادري عنه.

صراعات دموية على السلطة ودسائس ومؤامرات بإشراف بريطاني مباشر، جعلت العراق الملكي يعاني الفقر والجوع طوال أكثر من ثلاثة عقود، وجعلت الشعب يتصرَّف إزاء السلطة كالعبيد، أو ينظر إلى رجالات السلطة كآلهة، لا تخطئ أبداً، وهو خَلَل هويوي داخلي، وخطير، إزاء الآخر المختلف، وهو يذكرني بقصة من التراث الإنكليزي ترجمها الشاعر مؤيد طيب، في أحد أعداد مجلة كبر، مفادها، أنَّ فأراً ودجاجة وبقرة، كانت تعيش سعيدة في مزرعة لزوجين طاعنين في السن، في أحدِ الأيام، ارتأى العجوز أن يضعَ مِصْيَدَة للفأر، الذي هالهُ الأمر، وذهبَ إلى البقرة والدجاجة يشرح لهما، خطورة الموقف، فَسَخِرا منه، وقالا له: لا نرى في الأمر خطورةً إلا عليك!!. ولكن المصيدة اصطادت أفعى صغيرة، لَدَغت العجوز، فاضطرّت زوجته أن تأخذهُ إلى المستشفى، وفي المستشفى قال لزوجته: اذبحي الدجاجة واصنعي لنا حساءً. وحين عاد اضطرَّ إلى بيع البقرة إلى القصَّاب ليذبحها، كي يدفع ثمن المستشفى. وصراعات دموية على السلطة ودسائس ومؤامرات بإشراف أمريكي ودولي مباشر، جعلت عراق اليوم يعاني الخوف والفقر، والتشريد والتهجير، طوال أكثر من تسع سنوات عِجافٍ شِداد. ما نرى في الأفقِ بعدهنَّ بارقة أمل.

ليست المشكلة في أزمة الهوية، ولا في أسئلتها، ولكن المشكلة في عدم الشعور بوجود مشكلة أصلاً، فهي مشكلة غير مُفَكَّر فيها، رغم أننا نعيشها كلَّ لحظة، كمعاناة تبدو بلا نهاية، فالمجتمع الكردي في

تطلّعِهِ إلى الاستقرار، يَسْلُكُ مسالك مختلفة، فلربما يضطرُّ شاعرٌ إلى سلوكٍ غريبٍ عنه، كأنْ يرى دماءَ شعبِهِ رخيصةً بين يدي الجلاد، ويمدحهُ، مُعْتَقِداً هذا سبيل الاستقرار الوحيد، أو الخلود، أو الكمال أو اللامتناهي، وشاعرٌ آخر يهجو الجلاد، وهو يرى مشنقته، ويرثي نفسهُ، كمالك بن الريب.

إذا كان الإنسان الفرد لا ينفكُّ عن أزمة الهوية، في أيّة لحظةٍ من حياتهِ، فلا بدَّ أنَّ المجتمع يعاني أزمةً أكبر، وأكثر تعقيداً، وبسبب صعوبة استرجاع كيفية التفكير في حقبةٍ زمنية سابقة، واستحضار المشاعر عينها، التي كانت جيَّاشَة آنذاك، وأكثر حماسة، انوجدت منطقة غير مدروسة، أهملها التاريخ، وعلم الاجتماع، لأنّها غير مكتوبة، وغير مَحْكِيَّة، وغير مُفَكَّر فيها البتة، وبدلاً من هذه المنطقة المُهْمَلَة، دخلت منطقة أخرى، مُزَيَّفة، أو مُبَالغٌ فيها، على أقلِّ تقدير، استحوذت على المنطقة الأولى، وساعدت على جذرنة وترسيخ منطقة معرفية خاطئة، تدفع المجتمع بعيداً عن التفكير العلمي، وتسحبهُ بالتدريج إلى التفكير الأسطوري والخرافي، البدائي، تروم تشكيل هويات اجتماعية شخصانية مُجرَّدَة، بدعوى الحداثة، وتدفعُ المراهقين نحو التفرُّد ـ أقصد بالمراهقين: مراهقة فكرية ـ .

حتى لم يعد أحد يحاول استقراء وتفسير وطرح مفاهيم جديدة للحوار والمناقشة، من مثل أنَّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، تُمارسُ ضغطاً على مسألة الهوية من وجهة نظر ابتسمولوجية معرفية، مما يؤثِّرُ سلباً في الفرد وفي المجتمع، ويطرح نسقاً جديداً، من أسئلة ثنائية الأبعاد، تباشرُ توجهات مختلفة استناداً إلى الأسئلة الهوياتية عينها:

من نحنُ؟ ماذا نريد؟
أين تراثنا المخزين؟ أين حداثتنا المكتسبة؟
ما هو تراثنا الأسطوري؟ ما هو تراثنا الحقيقي؟

ما هي حداثتنا التي بالإمكان تحقيقها؟ ما هي حداثتنا التي ليس بالإمكان تحقيقها؟

هُويّة العقل الأداتي والعقل التواصلي

جزء رئيس من مكونات الهُويَّة الكردية، قد تشكَّلَ من وقائع المأساة الإنسانية ومعاناة متكررة حَفَرَتْ أخدوداً في الذات الجريحة، أحياناً يتمظهر هذا الجزء في صورٍ سلبية لرفض الآخر المختلف، ولتجاوز هذه العقدة، سنحاول فهمها من الخارج، كما فَهِمَ دريدا البنيوية فتجاوزها إلى ما بعدها، وكما أنَّ فهم كانط يعني تجاوزه، إلى مرحلة ما بعد كانط، وفهم هابرماس لمقولة ماركيوز " العقل الأداتي" العقل المتمركز على الذات، أدَّت إلى تجاوزه إلى "العقل التواصلي" المتمركز على معرفة يتوسطها التواصل والاعتراف المتبادل بين الذوات.

حين نتكلَّم عن (نسقٍ جديد للمعرفة، يستوعب الحديث، ولا يرفض القديم، ولكنه لا يغرق فيه أو يسجن نفسه فيه، في ذات الوقت)[1]، يبدو كلاماً نظريّاً، غير قابل للتطبيق، رغمَ أنَّ النسق المعرفي ينتج نسقاً اجتماعياً جديداً للحياة، فنوع المُدخلات المعرفية إلى العقل البشري، يتحكَّم في نوع السلوك الإنساني، ومحاولات إلغاء الآخر المختلف، استناداً إلى أحكام تاريخية خاصَّة، لا يجوز تعميمها، لن تجلب لنا إلا مزيداً من الأذى والدمار، وصرخة آكاكي آكاكيفيتش (دعوني. لماذا تسيئون إليّ؟.. أنا أخوكم)، ما زالت تَصْدَحُ في الآفاق، واللذة الآنية التي يستمتعُ بها زملاؤهُ في الوظيفة، سرعان ما تزول وتترك سلوكاً وحشياً يؤدي بالإنسان إلى تدمير نفسهِ وعائلته ومجتمعهِ، لماذا لم يلقَ

---

(1) تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، 1993، بيروت، ص86.

آكاكي بطل معطف غوغول اعترافاً من الآخرين بإنسانيته؟ لماذا لقبوه باشماجكين؟ هل كان ضعف بنية آكاكي وفقره، سبباً وحيداً لكونهِ لَمْ يَحظَ بأيِّ احترام؟ ما هو سبب غياب العلاقات الإيجابية المستندة إلى الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع؟ هل كان سارتر مُحِقّاً (الآخرون هم الجحيم)؟ هل كان زهير بن أبي سَلْمى مُحِقّاً:

وَمَـنْ لا يـذُدْ عـن حَـوضِـهِ بِـسـلاحِـهِ
يُـهَـدَّمْ وَمَـنْ لا يَـظْـلِـمِ الـنـاسَ يُـظْـلَـمِ؟

وفق هاتين المقولتين: سيزداد الاحتقان، والرغبة في إلغاء الآخر، والدفع بلا أنسنة الآخر، وشيطنتهِ وتكفيرهِ، وتخوينهِ، مع مزيد من التشظّي وعدم الاستقرار، فليسَ ثَمَّةَ خطأ مطلق، حتى السَّاعة المتوقفة، تصيبُ الوقت الصحيح مرتين في اليوم، وليس ثَمَّةَ شر مطلق، ولا ثَمَّةَ طريق، إلا بمحاولة إعادة اكتشاف الآخر، بعيداً عن الأحكام المُسبَقة، بعيداً عن التاريخ، وبحسب مونتسيكيو (أسعد الشعوب، هي التي بلا تاريخ). فالحياة لا تستمر بالأنا دون وجود الآخر، كما إنَّ الاحترام والاعتراف الذي نطلبه من الآخرين، هم أيضاً ينتظرونه، وكما (إنَّ الاعتراف الذي نطلبه من الآخرين متعدِّد الأشكال وكلي الوجود، ولكن هل هو السبيل الوحيد الممكن لكي يُولِّد إحساسنا بالوجود؟ لنأخذ مثلاً عملاً جيد الصُّنع، إنَّه يحمل بكل بَدَاهة زيادة في الاعتراف)[2]. وصاغ هربرت ماركيوز مفهوم "العقل الأداتي" باعتبار أنَّ المجتمع قد اكتسبَ (طبيعةً ثانية، وأصبحَ كالطبيعة غير قابل للتغيير، ومستقلاً عن أفعالنا). في كتابهِ "الإنسان ذو البعد الواحد/ 1964". فردَّ فيلسوف التواصل يورجين هابرماس (العقلانية تقيس نفسها بأسلوب الذات المنعزلة، وهي ترجِّه وفقاً لمضمون أفكارها وعباراتها، يعثر العقل المتمركز على الذات

(2) تزفيتان تودوروف، الحياة المشتركة، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، 2009، بيروت، ص211.

على معاييره العقلانية انطلاقاً من محكّي الحقيقة والنجاح، بوصفهما ينظّمان العلاقات التي تعقدها ذات عارفة وعاملة مع عالم أشياء ممكنة أو محتملة، أو أحوال شيء وفقاً لغايةٍ ما، وبالمقابل منذ اللحظة حيث نتصور المعرفة بوصفها معرفة يتوسطها التواصل، عندئذٍ نقيس المعرفة بمَلَكَة يمتكلها أشخاص يتصفون بالمسؤولية ويشاركون في تفاعل، توجّههم وفقاً لمطالبِ مصداقية تستند إلى اعتراف متبادل بين الذوات)(3). ومن مفهوم المخالفة: عدم وجود اعتراف متبادل بين الذوات، يؤدي إلى انعدام التواصل، مما يعدُّ انتهاكاً للآخر، بتجاهلهِ وإنكارهِ، وهناك انعدام تواصل مؤسَّساتي بين بنيتين اجتماعيّتين مختلفتين، كتحديات اجتماعية جوهرية غير بادية للعيان، يتم تجاهلها لمصلحة تحديات سطحية بادية للعيان.

وفي قصة "مقهى العميان"، التي لم تلقَ الاهتمام الذي تستحقه، بسبب مساوئ التفكير الهوبوي، والأيديولوجيات التي تخلط بين الجمالي والأخلاقي الذي غالباً ما يكون زائفاً، وربما خوف القاص وقلقه وحذره، وحيرته دفعته للكتابة بأسلوب أسطوري، فمقهى العميان هو صورة مُصغَّرَة عن المجتمع، والكلب ديمو الذي يرفض التهجير، يعثر القرويون على جثته، رمز علاقة الفرد بالمجتمع، وهو عين ما حدث في "قصة الرجل الذي سقط في المصيدة ولم يقاتل". والأم التي يصيبها الجنون من طول انتظار ابنها دليل.

كما لتاريخ كتابة النص علاقة وثيقة بتاريخ نشرهِ، فأنْ يكتب أحدهم قصة قصيرة تدين الحرب في زمن الحرب، وينشرها زمن الحرب، حيث زملاؤه يتغنون بالشجاعة والبطولة والروح المعنوية العالية، وحب القتال،

---

(3) هابرماس، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، 1995، دمشق، ص482.

فقصة "جاء دلير" للقاص أنور محمد طاهر ضمن مجموعته القصصية "قصة لم تكتمل" التي صدرت في بغداد عام 1983. وفيها إدانة واضحة للحرب، من خلال معاناة أم، تنتظر ابنها الذي لن يجيء، وكذلك قصة " لصوص الليل" ضمن المجموعة عينها تدين القمع البوليسي للأجهزة الأمنية زمن البعث، وقصة " ديمو" التي تدين عمليات التهجير القسري المسمَّاة بالأنفال، نشرها في 15/ 8/ 1989 في جريدة بزاف في بغداد، هذه القصص تناولت إشكالية الهوية الكردية وتهميش الذات الكردية، في زمن البعث، نقفُ أمام علامة استفهام كبيرة قد أينعت، وتشعَّبَتْ: هل كان الأديب الكردي يتمتع بهامشٍ من الحرية، يسمحُ له بانتقاد السلطة بأسلوب يكاد يكون مباشراً ومكشوفاً؟ هل كان الأديب الكردي مغامراً يراهن على ضعف الرقابة على المنشورات الصادرة باللغة الكردية؟

هل بِوسعنا تقسيم المجموعة القصصية " مقهى العميان" إلى قسمين بحسب الهُويَّة الزمنية: قبل الكولونيالية، بعد الكولونيالية؟ أليس هذا التقسيم عاملاً مساعداً على ملاحظة التغيرات الطارئة على إيقاع الصوت النقدي، غير المسموع، والمختبئ بين السطور؟

ما هي المسافة الفاصلة بين هذه القصص القصيرة الثلاث، وبين زمن كتابتها، واسم كاتبها وهويته؟ تكاد هذه المسافة تكون معدومة، وينتقل إلى القارئ الذي يستحضر الحذر والقلق في اختيار كلمة دون أخرى، في النص المكتوب في زمن الخوف ذاك، مما يمنحنا صورة عن طريقة تفكير المجتمع الكردي داخل نظام يقوم على الاستعارة والكناية في دائرة متحرِّكة من الحذر والقلق. مما يمنح الكلمة تلاحُمَاً سحرياً مع المكان والزمان، فالخوف هو كلُّ ما يربط الأحداث بالشخصيات، حيث تتحدَّث الوقائع عن ذاتها، فالكلب ديمو (كان ينبح وهو يعدو خلف إحدى العائلات المغادرة حتى تصل طرف القرية، ثم ينقلب عائداً وهو يلهث متقطِّعَ الأنفاس حتى يصل وسط القرية، ويأبى الذهاب مع أحدهم، كان يحاول أحياناً قطع طريقهم ولكن ما من أحد حاول أنْ

يرشقه بحجر، ربما خوفاً من القرويّين وربما إشفاقاً عليه)[4]. والعبارة الأخيرة (ما من أحد حاول أنْ يرشقه بحجر، ربما خوفاً من القرويّين)، دال على خوف في قلوب القرويين المهجّرين البائسين، وقلقهم حيال المصير المجهول الذي يواجهونه في ترك أراضيهم، وأكواخِهم، ورغم بساطتهم وبراءتهم، لكنَّهم في الوقت نفسه يمثِّلون مصدر خوف كبير، وخطراً يهدِّد الأمن القومي العراقي، وهكذا دائماً يخاف الفراعنة من الأبرياء العُزَّل.

وهل يمكن فصل " صمت البحر" لفيركور عن فرنسا المحتلة؟

في محاولةٍ منه للتوفيق بين عالمين فيزيقي وميتافيزيقي، ثم اتسَّعَت دائرة الأدب لتحتوي العالمين معاً، وبالتالي قد صار من الصعب على النص الأدبي الاستغناء عن الأسطوري.

لا يمكن لمجموعة قصائد أو قصص قصيرة أنْ تتخذ شكلاً جامداً، تحت مظلة هوية ثابتة تتكون من الجنس الأدبي والعنوان واسم الكاتب، فلكلٍّ قصة قصيرة هويتها الخاصة، إضافةً إلى الهوية العامة التي تزدان بشيءٍ من الثبات والقوة.

رغم السخرية اللاذعة لبعض نقاد ما بعد الحداثة، بنظريات الأجناس الأدبية، إلا أنَّ الجنس الأدبي ما زال يحظى بالأهمية عينها لدى القارئ، سواء عند اختياره لكتاب معين، أو عند ممارسته لفعل القراءة، فالأجواء المحيطة بقراءة قصيدة تختلف عنها في قراءة قصة قصيرة أو رواية، وربما تشطح دراسة تأثير الجنس الأدبي في عملية القراءة، خارج النظرية الأدبية، لتستقر في علم النفس أو الأنثروبولوجيا، ولكن لماذا نحرم الأدب من علاقاته الوثيقة والمتشعّبَة بهذا العالم، فضلاً عن أنَّ الأسد مجموعة خِراف مهضومة، وتتكون مادة كلِّ نص من نصوص أدبية أخرى، ولكلِّ شيء علاقة بكلِّ شيء.

---

(4) أنور محمد طاهر، مقهى العميان، منشورات اتحاد أدباء الكرد، 2010، دهوك، ص31.

وبالتالي لا يمكن استبعاد هوية النص الأدبي، لأنَّ هذه الهوية سِمَة ثابتة ترتكز عليها عمليات قراءة متكررة طوال عقود أو قرون، كمسرحيات شكسبير، وسوفوكليس، ودون كيخوته، وملحمة كلكامش، وألف ليلة وليلة، وغيرها من النصوص التي اكتسبت هوية ثابتة وقوية، مستمدة من شهرتها، وشخصية كاتبها، المتفاعلة مع شخصية القارئ الذي يستمتع بحيرته أمام كافكا، وبدهشته من بورخس، والتقلبات الدرامية في الحدث الشكسبيري، وقد يتعاطف مع كيخوته، أو يكتفي بالمتعة والضحك.

إنَّ عودتي المستمرة إلى قراءة معطف غوغول، أو الرجل المعلب لتشيخوف، أو غيرهما من النصوص التي تنادي من أجل قراءةٍ ثانية، وكذلك عودتي المتكرِّرة إلى مجموعة " مقهى العميان/ أنور محمد طاهر" كمثال، نتيجة حتمية للاعتراف المتبادل بين الذات القارئة والذات النصِّيَّة من حيث القيمة الجمالية. وهذه العودة نتيجة من نتائج التفكير الهويوي، وعملية التفكير الهُويوي ذات جانبين: الأول: من حيث العقل الأداتي الضيق، والثاني: العقل التواصلي، والوصول إلى الجانب الثاني لن يكتمل إلا بعد تجاوز الأول، والتجاوز لن يتم إلا بعد فهم أسباب العقل الأداتي بشكل موضوعي، بعيداً عن الانفعالية، وصولاً إلى رؤية جديدة للعالم المحيط، بصورة كليانية، كبداية تشكيل وعي جديد، من أجل رسم مسارات أكثر مرونة، توصل إلى تقرير مصير القراءة بذاتها لذاتها، أحياناً يواجهُ الإنسان وفق منظومة تفكيرهِ الهويوي عائقاً: خوفاً أو قلقاً أو استلاباً أو استعلاءً أو مشاعر غير مفهومة تمنعه من التواصل مع الآخر المختلف بسبب ديانتهِ المختلفة، أو مذهبِهِ، أو درجتِهِ العلمية، أو قوميتِهِ، أو طبقتِهِ الاجتماعية، أو أيَّة سِمَة أخرى، لكن هذه الحالة تعني تجاهل كل شيء إلا القومية فقط، أو الديانة فقط، أو ... الخ. وهذا معناه (طمس حقيقة الاهتمامات التي تُحرِّك الناس لتوكيد هوياتهم

والتي تتجاوز الدين بكثير)[5]، كما تتجاوز القومية والمذهب والدرجة العلمية وكلَّ شيء آخر، كلٌّ منهم على حدة. وأحياناً يواجهُ القارئ وفق منظومة تفكيرهِ الهوياتي عائقاً: شهرة المؤلِّف أو النص، العنوان، هُويَّة المؤلِّف، أو غير ذلك، لكن هذه العوائق إنَّما يضعها العقل الأداتي للحيلولة دون القيمة الجمالية للنص، كجوهر لعملية القراءة، يتطلب فَحصَاً وتمحيصاً.

(تبعاً لغادامير: لا يُمكن تحديد فهم النصوص من خلال النوايا الأصلية للكاتب، ولا بافتراضات القارئ وتوقعاته، ذلك أنَّ معنى النص يتجاوز حدود الفهم لدى الكاتب والقارئ معاً، إذْ يفضل نفسه ويجعلها مفتوحة لعلاقات جديدة)[6]، لعلاقات جديدة بحسب تقلبات العقل التواصلي، والظروف المحيطة به، بمنأى عن العقل الأداتي المنغلق على هوية واحدة، وحقيقة مُعطاة واحدة، كما في (الحقيقة عند ماركس وهيغل لا تكمنُ إلا في الكل، أو في الكلية ذات الطابع السلبي)[7]، وللتغطية على ظهور الفوارق الطبقية شَجَّعَت الحداثة عودة الهويات الفرعية، وبات الإنسان المعاصِر يرتكزُ في وجودهِ على بحثهِ الحثيث عن هويته، وإنْ كان لا يستشعرُ بحثهُ، ولا يفكِّر فيه: مَنْ أنا؟ ماذا أريد؟ مَنْ نحنُ؟ ماذا نريد؟ ومن خلالِ ظروف حياتهِ المتقلِّبة يعيدُ اكتشاف الآخر، كلَّ يوم، محاولاً إيجاد فرص لحياةٍ أفضل، أو سد الثغرات التي يتسلَّلُ منها الخوف والقلق والإحساس بالضياع أو الدونية، وبينما

---

(5) أمارتيا صن، الهوية والعنف، سلسلة عالم المعرفة، 2008، الكويت، ص151.

(6) باربرا ويتمن، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة د. ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، 2007، الكويت، ص10.

(7) هربرت ماركيوز، العقل والثورة، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1979، بيروت، ص302.

يعتقدُ الإنسانُ نفسهُ حُرّاً، لا يشعرُ بأنَّهُ ينساقُ مع تيار الأنساق السائدة في المجتمع، وهذه الأنساق لا تتصفُ بأدنى ثبات، إلا أنّها سابقة على وجودهِ، مع عجزهِ عن إيجاد نسق جديد، كما في سورة الزخرف ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أزمة هوية... تملُّك أمْ عبودية

في الفترة الكولونيالية السابقة، أو الأدب الملتزم، أو النقد المجاملاتي السائد في صحافتنا الثقافية، حيث يتنازل الفنان أو الكاتب عن حريتهِ ضِمْناً، مقابل تعويض يكون الآخر مستعداً لدفعهِ، ولو بكلمات إعجاب زائفة، وبالتالي يقوم الكاتب بتوجيه إبداعهِ، وِفق ما تراهُ السلطة أو الأنساق السائدة، فيأتي النص الأدبي أو العمل الفنّي، ليَعكِس اهتمامات السلطة وتوجهاتها، لا اهتمامات الكاتب، وبالتالي يكون النص أو العمل الفني حاملاً لهويةٍ أخرى مختلفة عن هوية كاتبها، أو يفقد الكاتب هُويته لمصلحة الآخر، وبالتالي يشعر بأنَّ العمل أو النص غريب عنه، وبالتالي يصير غريباً عن قارئهِ، كاللقاء الصّحافي المكتوب في نهايته: "خدمة صحافية" أو "إعلان مدفوع الثمن" وهذا يعني أنَّه زائف، بعيد عن الحقيقة، ويفقد القارئ الألفة المفترضة بينه وبين النص المقروء، لأنَّ النص أو العمل الفني يجب أنْ يأتي بحسب رغبة الكاتب أو الفنان، لا بحسب رغبات أخرى تُقَيِّدُهُ وتفرض عليهِ عملاً، وبذلك يصير القارئ خارج العملية الإبداعية، التي تنحصِرُ بين (الكاتب والنص، والسلطة أو الآخر الذي كُتِبَ من أجلهِ النص)، ومهما حاول القارئ لن يجد له مكاناً في هذه الدائرة الضيقة، المطرودة خارج النظرية الأدبية.

انشغلَ المشروع الأنثروبولوجي الغربي في البحث عن عامل مشترك، أو وحدة سرية، مختبئة بين الهويات المختلفة والمتعدِّدة لشعوب العالم، فاكتشفوا الإنسان، كمادة خام، صاغتهُ التغيرات الاجتماعية

والأحداث التاريخية، لكن نتائج الأبحاث غالباً ما استخدمت لغايات سياسية وأيديولوجية، وبالتالي عدنا إلى الوراء في مرحلةٍ بعيدة، مذُ خرجَ ديوجين الكلبي (412-323 ق.م) يحمل ضُحى النَّهار، مصباحاً، يُفتِّشُ عن إنسان.

يتساءل شتراوس الذي يرى في الكون أسئلة متشعِّبة لا تستنفد أبداً: (ألا نجدُ أنفسنا أمام مفارقة غريبة؟.. كل تقدُّم هو نتيجة للتآلف بين الثقافات.. هذا التآلف يكون أكثر خصوبة، بقدر ما يتم بين ثقافات أكثر تنوعاً.. وإذا كان التنوُّع شرطاً مبدئياً، يقتضي الاعتراف أنَّ فرص الربح تصبح أقل بقدر ما تطول الجولة)[8]. ولم يوضِّح شتراوس كعادتهِ أسباب ندرة فرص الربح، لأنَّهُ غالباً ما يكتفي بطرح المشاكل بصيغة أسئلة، ويحيل إلى أنَّ 'الفوارق الاجتماعية هي المثال الأكثر وضوحاً لهذا الحل'، هل يقصد أنَّ نوع التغييرات الاجتماعية التي تطرأ نتيجة التآلف بين الثقافات، هو السبب الوحيد الواضح؟ ولكن هذه الفروق التي تتخلل مواقع الطبقات الاجتماعية دائمة الحدوث، مع التآلف أو بدونهِ، فالاختلاف الطبقي بين الهوية البرجوازية والهوية العمالية، كان سابقاً على ماركس الذي ارتكزَ عليهِ.

هل من الصائب أنْ نقول الهوية تراث؟ لكن الهوية تتجه نحو المستقبل، والتراث ماضٍ، والهوية تعشق التغيير، والتراث واحد وثابت، والهوية تعشق التغيير ومحكومٌ عليها بالتعددية، وإذا كانت الهوية من مُعطيات التاريخ. فهل يمكن لأيَّة هوية أنْ تصبحَ هوية دونَ أنْ تُنكِرَ نفسها، وتقطع استمراريتها كصيرورة تاريخية في أنساق متسلسلة؟ الجميع يبحث عن هوية حداثية، لكن كيف يمكن أنْ تكون الهُوية حداثية قبل أنْ تحقِّق قطيعة مع تراثها؟ ولكن أيَّة قطيعة تامة مع التراث والتاريخ، تكاد

---

(8) كلود ليفي شتراوس، العِرقُ والتاريخ، ترجمة د. سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، ط4، 2008، بيروت، ص63.

تكون في دائرةٍ مُفرَغَة وإمكانيةٍ مستحيلة، بين قطبي الولادة والموت كأقصى حَدَّيَن للهوية، وبين هذين الحدَّيْن تدور الهوية طوال فترة وجودها: حديثة ومتجدِّدَة، وكل ما هو حديث لا يتسامح مع الماضي، وهي تحاول أنْ تُمارِس قطيعةً مع التراث والتاريخ من أجل تحقيق ذاتها، وإذا لم تستطع تحقيق هذه القطيعة، ستبقى جزءاً من التاريخ، وأسيرة الماضي والمجد التليد، ولهذا قالت أحلام مستغانمي: (نحنُ العرب نريد أنْ نبدو، ولا نريدُ أنْ نكون).

الهُوية إدماج داخلي بين عناصر مختلفة، تنتجُ طاقة روحية داخلية، في معادلة تفاعلية مستمرة في إخراج أفعال وأقوال شخصية، هذه الأقوال والأفعال هي حياته المتموضعة في شكلٍ مختلف عن حيوات أخرى للشخصيات المحيطة بها.

هل نحنُ الذين نملك الهوية، أمْ هي التي تملكنا؟ هل نحنُ الذين نسيِّرها، أم هي التي تُسَيِّرُنا؟

مَن امتلكَ شيئاً، صارَ عبداً لهذا الشيء، عليهِ أنْ يصونهُ ويدافع عنه كنفسهِ، وهو في النهاية لا بدَّ فاقدهُ، وفي إنجيل متى (10: 39) "مَنْ أرادَ أنْ يحفظ حياتهُ، يفقدها، أما مَنْ فقدَ حياتهُ في سبيلي، فإنَّهُ يجدها". وفي ترجمة سري بن المغلس السقطي، أورد القشيري في رسالته عن الجنيد البغدادي (سمعت السريَّ يقول: أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة: فقلت له: ما هو؟ فقال: لا تسأل من أحد شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً، ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً). ويقول غوته في قصيدة عنوانها "ملكية" (أعرف أني لا أملك شيئاً/ سوى الفكر/ الذي سينبثق، حراً، في نفسي/ وكل اللحظات الملائمة/ التي يمكّنني فيها إله طيب/ من أن أستمتع بأعماقي). (وقد كان إيكهارت (Eckhart) يعلم الناس بأن الطريق الوحيد للتوصل إلى الثراء والقوة الروحيين هو ألا يملك المرء شيئاً وأن يجعل ذاته مفتوحة و "فارغة". وقد علم

ماركس بأن الرفاه رذيلة مثله في ذلك مثل الفقر، وأن علينا أن نجعل هدفنا هو أن نكون أحسن لا أن نمتلك أكثر)[9].

هل التمسُّك الأعمى بالهوية يدفعُ إلى الحروب وسفك الدماء وتصفية الآخرين المختلفين؟ يوشكُ صراع الأنا والآخر أنْ يختزلَ تاريخ الإنسانية جمعاء، حتى في داخلِ الإنسان، أنوات متعدِّدَة، وذوات مختلفة، وغالباً ما يشعرُ الإنسان بأنَّهُ قد صارَ إنساناً آخر، غير الذي كان يريد أنْ يصيره، ولكلِّ إنسان مستويات متعدِّدة من الهوية، هوية اجتماعية، يحمل هوية المجتمع الذي يعيش فيه، وهوية الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والعشيرة، والجماعة، والعائلة، وهوية وطنية يحمل جنسية البلد الذي ينتمي إليهِ، وإنَّ التغيير الذي طرأ على الحسِّ الإنساني بالجمال، جعلهُ يفضِّلُ الأزياء البسيطة وسهلة الارتداء، على المعقَّدة والصعبة الارتداء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة والنصوص الأدبية الشِّعرية، فالإنسان يستجيب للتحديات، فينتقل الفعل الحضاري من فعلٍ إلى آخر، من القطار البخاري والسفن البخارية بمكائنها الثقيلة، إلى القطار السريع اكسبرس، والغواصة النووية، من البريد الزاجل، وسرعة الخيل إلى سرعة الانترنت، ولكن هذه التغييرات كافة، التي تناولها علماء الحضارة، والانثروبولوجيون، تقتصر على وصف البيئة الخارجية، ولكنَّ أحداً لم يستطع تناول التغييرات التي طرأت على هُوية الإنسان، وذواتِهِ، وسلوكِهِ الذي صار أكثر عدوانية، حتى أنَّ البعض برَّر قصف هيروشيما بالقنبلة الذرية، وصفَّق له الحضور، وآخر يقول (الرب أمرني بشنِّ الحرب) وصفَّق له العالم، والتغييرات التي طرأت على هُويَّة العقيد بكر صدقي، بعدما ارتكبَ مجزرةً ضد عائلات

---

(9) إريك فروم، التملك والكينونة، ترجمة محمد سبيلا، مجلة فكر ونقد. علماً أنَّ ترجمة سعد زهران لهذه المقالة ضمن كتاب صدر عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت في آب 1989 بعنوان (الإنسان بين الجوهر والمظهر) لم ترد هذه العبارة.

الأرمن في العراق، أو أمرَ بها، مُحلِّلاً أموالهم ودماءهم، عاد إلى بغداد، ليمنحه الملك رتبة عسكرية ويقلده الأوسمة وأكاليل الغار، واستقبلته جماهير بغداد بالهتافات، لقتله الأطفال والنساء، وتدميره القرى الآمنة، ولم يمضِ وقتٍ طويل، حتى انقلب السِّحْرُ على السَّاحِر، في مناورات الجيش خريف 1936 فقتل وزير الدفاع وصهر نوري السعيد: جعفر العسكري، ثمَّ لم يفت اللواء بكر صدقي أنْ يجري انتخابات مُخَطَّطَةٍ لنتائجها في 20 شباط 1937، وجاءت النتيجة لتمنح صدقي غِطاءً قانونياً شرعياً من مجلس نيابي مُنتَخَب من قبل الشعب، وفي 13/ 6/ 1937 انتفضت عشائر السماوة، ضد صدقي، فقمعهم بقوة السلاح، وأظهرَ عزمهُ على احتلال الكويت، فاغتيل في 9/ 8/ 1937 بإشراف ضابط الاستخبارات البريطاني، واتهم نوري السعيد الملك غازي عَلَناً بأنَّهُ كان يقف وراء انقلاب بكر صدقي، لأنَّ الملك غازي كان يستشعر رغبة الإنكليز في التخلُّص منه بأيَّة طريقة، وكان يتهمهم بالوقوف وراء فرار الأميرة عزة شقيقته مع خادم يوناني والزواج به.

في محاولةٍ للبحث عن طرقٍ أخرى، في فتراتٍ سابقة: لماذا لا يمكننا أنْ نعرف بالتحديد، كيف كان الإنسان يُفكِّر في زمن الخوف؟ هل للأدب الكردي المعاصِر دورٌ في تفعيل أزمة الهوية الكردية، أم في إيجاد طرق جديدة لعرض الأزمة؟

ليس من شاعرٍ إلا ويحلم بالعالمية، شاعرٌ يتمتع بثقافة مزدوجة حداثية تراثية، وبحسٍّ إنساني ورؤية كونية تجاه نفسه، وشعبهِ ووطنهِ، وشاعرٌ يرنو بطرفهِ إلى أنْ يكون شاعراً عالمياً، كما يرنو حارس السدَّة بعينين ناعستين إلى الغروب، يحلمُ بيومٍ يُترجم شعره إلى لغات العالم، ولكنه ككثيرين يخطئون الطريق.

لا يوجد في الأدب العربي، من هو أكثر عالمية من نجيب محفوظ، كما لا يوجد من هو أكثر شعبية ومصرية، كما لا يوجد في الأدب الأرجنتيني من هو أكثر عالمية من بورخس، وفي الوقت نفسه لا يوجد من هو أكثر أرجنتينية منه، فلكي نتخلص من المعطف الإقليمي

والمحلي، لا يعني أنْ نولّي ظهورنا للتراث الثقافي والشعبي، كما لا يعني اعتماد التراث بحسب منهج "الفهم التراثي للتراث" الذي انتقده محمد عابد الجابري في كتابه (نحن والتراث) بسبب آفتين (غياب الروح النقدية، وفقدان النظرة التاريخية). فالمنشغل بالتراث المأخوذ به، يفرض على نفسهِ رؤية تقليدية محافظة، والمنشغل بقضايا الفكر الأوروبي المعاصر يأخذ برؤية معاكسة، وبينهما من حاول أنْ يُزاوِجَ بينهما كالبياتي والسياب، وغيرهما من الشعراء الذين أبدعوا قالبهم الخاص، يقول يوسف الخال: (كما أبدع الشاعر الجاهلي شكله الشعري للتعبير عن حياته، علينا نحن كذلك أن نبدع شكلنا الشعري للتعبير عن حياتنا)[10]. ففي الشعر الجاهلي تاريخٌ لتفاصيل حياتهم اليومية، ولهذا قال أبو فراس الحمداني الشِّعرُ ديوان العرب، أفراحهم وأتراحهم، وقد نقلَ المعريَ في رسالة الغفران من تلبيات الجاهلية في موسمِ الحج (من الرَّجز كقولهم: "لبيك إن الحمد لك/ والملك لا شريكَ لك/ إلا شريكٌ هو لك/ تملكه وما ملك/ أبو بناتٍ بفدك" فهذه من تلبيات الجاهليّة، وفدك يومئذ فيها أصنام، وكقولهم: لبيك يا معطي الأمر/ لبيّك عن بني النّمر/ جئناك في العام الزَّمر/ نأملُ غيثاً ينهمر/ يطرق بالسَّيل الخمر).

يقول بورخس في مقابلة إذاعية عام 1980 عبر راديو (EFIU) خلال زيارة الشاعر إلى جامعة بلومينغتون في إنديانا الولايات المتحدة: (كلُّ شيء صالح لأنْ يوضعَ في قصيدة، كل الكلمات صالحة.. الحيرة تجاه الحياة يمكن أنْ تكون في صلب الشعر، الشعر كله يتألف من الشعور بالأشياء على أنَّها غريبة، في حين أنَّ البلاغة كلها تتألف من التفكير بالأشياء على أنَّها عامة وواضحة.. ربما كان كل ما كتبته هو مجرد استعارة ومحض تنويع على ذاك الموضوع الجوهري المتعلق

(10) مجلة شعر، العدد 3، 1957، بيروت، ص 114.

بحيرتنا أمام الأشياء)[11]، لحيرة الإنسان أمام الأشياء تاريخ عالمي، قرأه بورخس وهضمه، والحيرة تعشق الغموض والغرابة والإثارة في التعبير عنها، كما في مقولة بورخس نقد مُضمَر لبلاغة شعراء السلطة، ومدّاحيها من الطرفين من الذين يرفضون التراث لأنّهم لم يقرؤوه، ولا يجدون وقتاً لقراءته، فلا يسعهم إلا نبذه، ومن الذين اعتنقوه كجذر يحافظ على السلطة الغاشمة من رياح التغيير. يقول الجابري في دفاعهِ المموه عن التراث: (لا يمكن رفض التراث ككل، فهو شئنا أم أبينا مقوِّم أساسي من مقومات الحاضر، وعندما يتعلق الأمر بتراث كالتراث العربي الإسلامي لا بد من مراعاة كاملة لخصوصيته، وأحد عناصر هذه الخصوصية هو العالمية والشمولية، إنَّ التراث العربي الإسلامي عالمي بمعنى أنَّهُ تراث حضارة عالمية، حضارة الإنسانية في فترة من فترات تاريخها.. فلم تكن محدودة ولا منغلقة كثقافة الهند أو الصين أو الفرس، بل بالعكس كانت ثقافة متفتحة قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التي احتكَّت بها، ومن هنا عالميتها)[12].

في عام 1979 قرأ الشاعر مؤيد طيب قصيدتهُ الشهيرة (غداً لا تبكِي يا أمّاه) التي تفقدُ نِصْفَ فخامتها اللغوية بعد ترجمتها (سبه نه كه كري دايي) (سبه دايي/ هيشتا تاري/ بري روش بيته في واري/ بري هيلين فالا بين/ بري بالا هشيار بين/ من وسيداري شفانه). ورغم كثرة الترجمات لهذه القصيدة، لكنَّ النص الأصيل يبدو مختلفاً:

غداً.. أمّاه

قبل رحيل الظلام..

---

(11) ويليس بارنستون، بورخس، ترجمة عابد إسماعيل، المدى، 2003، ص 150.

(12) د. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991، بيروت، ص37.

قبل النهار..
قبلَ أنْ تغادر الطيور أعشاشها
قبل استيقاظ الكادحين
على موعدٍ أنا، مع حبلِ المشنقة
غداً.. أمّاه
الحشائش والصخور..
الثلوج والدماء..
حبيبتي الحسناء
تطوّقني بذراعيها
نطيرُ نحو السماء
كلُّ الجبال
كلُّ البحار
ترفعُ أكفَّها لنا.. تنادينا
فنهبطُ شمْسَاً وربيعاً..
ومطراً مُقَدَّسَاً
فوق أراضٍ كانت خضراء
حولتها قنابل النابالم إلى أرضٍ مُوْحِشَةٍ جرداء
غداً.. أمّاه
حذائي هذا.. يتمرجَحُ
فوق تاج الأمير
عُرْسِي هذا.. أسمى الأعراس
قامتي أزهى من الربيع
فكيف إذن تبكين
وصدركِ تلطمين؟
وشعركِ الأبيض كالثلج.. تنكشين؟
كلا.. أماه.. كلا..

لا تفعلي.. لا تفعلي..
لا تَتْشِحي بالحِداد
باب كوخنا.. الجميل
للحزن لا تفتحيه

* * *

غداً أمّاه..
"خاني" سينشدُ أهزوجة دخول العريس
وأنتِ ردِّدي

ففي كل كلمةٍ من هذه القصيدة، هناك شعورٌ موازٍ، ينقسم إلى فكرتين متناقضتين، تعملان بتضاد مستمر، فالهُويَّة طموح سياسي، فبغداد تدفع إلى تذويب الهوية الكردية بالترغيب والترهيب، وهناك قصص وروايات نالت جوائز أدبية آنذاك، ولكنَّها تلقى بعض المقاومة، ومن هذه المقاومة نصوص أدبية، قصائد وقصص قصيرة وروايات، وفي المهرجان عينه ألقى الشاعر مؤيد طيب قصيدةً أخرى عنوانها (أغنيةٌ عَذِبَة، مِنْ سجنٍ قذر)، في الأولى صورة المشنوق خنقاً، والثانية للسجين، صورتان لإلغاء الآخر، وإقصائِهِ عن الحياة، وفي النصَّيْن دعوة لإقامة الفرق بين طريقتين في التفكير، مختلفتين، بل متناقضتين، الأولى لشاعرٍ يُفكِّرُ في السجين والمعدوم، والمفهوم الصحيح لكلٍّ هذا تتلخَّص في شعبٍ مُضْطَهَد، وبين طريقة تفكير السلطة البروغماتي التي لمْ ترَ أمامها إلا شعباً متمرِّداً، لا يستحق الحياة، وبسبب اختلافِ هويته، ليسَ محلاً للثقة، وبالتالي فالمراقبة والقمع البوليسي غير كافيين، بدون التهجير والإذلال الجماعي والتقتيل العشوائي.

وبالتالي يكون لدينا موضوعٌ هويوي واحد، وطريقتان في التفكير تتضادان في السلوك والأفعال، بسبب تناقضهما في الخطاب، وهذه

الأفكار الأنطولوجية منبعثة من واقع مَعيْش في تلك الفترة الزمنية، تضمن صيرورة البحث السوسيولجي لمسألة الهوية وتشعباتها في جذور التغييرات الاجتماعية، البحث الذي لا يجدُ نفسه إلا في الاستقراء الذي يَكْشِفُ لنا بوضوح، بأنَّ الأحداث كانت تسير هكذا فعلياً، في تلك الحقبة، بعيداً عن التكهنات كثيرة الاحتمال، فالشاعر يثبت في هذين النصَّيْن: استحالة الإبداع في غياب الحرية التامة، وكيف يمكن للحرية أنْ تكون ممكنة دوماً، وإنَّ مناسبة القصيدة، قد تمنحُ النص قيمةً جماليةً ثابتة، لا تتغيَّر بتغير الزمان والمكان، فكيفَ يمكن فصل ' صمت البحر' لفيركور عن فرنسا المحتلة؟ وكيف يمكنُ فصل يوليسيس جيمس جويس عن الغربة التي عاشها بعيداً عن حبيبته دبلن؟ كما في النصَّيْن الشعريين، تثبيتٌ وتمرد هوبويان، تثبيتٌ للهوية الكردية، ومقاومة لمحاولات الإلغاء، وتمرد على هوية الأدب التي كانت سائدة في قصائد وأدب تلك الفترة، لتنشئ علاقة مختلفة بين المثقف والسلطة، علاقة جدلية، الشاعر يشعر باللاإنتماء فيتمرد، كنيتشه مع قلقهِ وصراعهِ الداخلي، استلذَّ ادِّعاء الجنون أحياناً، جنون العظمة، جنون القوة التي كان يشعرُ بها، بلا انتمائه، واختلافهِ عن الآخرين، فقيصر ألمانيا لم ينظر بتعصب إلى ما كتبه نيتشه بعد أقل من سنة واحدة من تنصيبهِ (لديْ إحساس واثق بالتميز تجاه كل ما يُدعى اليوم بالنبالة، وإنني لن أمنح القيصر الألماني الجديد حتى شرف أن يكون حوذياً لي)[13]، السلطة تحاول ترويج قوالب جاهزة، كنماذج تؤكِّد على الهوية الوطنية أو الإقليمية أو الطائفية، فضلاً عن القصائد التي تُمجِّد البطل، القائد الضرورة، ومنذ قبلِ الميلاد بأربعة قرون، كان الشعراء، يُحرِّضون بعضهم بعضاً، والشعب أيضاً على انتقاد

(13) نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، ط2، 2006، بغداد، ص27.
وفي ص8 كتب (وإنِّي لأفضِّل أن اكون مهرجاً، على أن اكون قديساً).

السلطة، وهجائها، واحتفالاً بخروج الشاعر ايسخولوس من عالم الموتى يُغنّي الكورس، في مسرحية الضفادع لأريستوفانيس مُحرِّضاً الشاعر على الوقوف ضد السلطة، (بما أنَّ الشاعر الظافر، سيذهب إلى عالم النور، فامنحوه النجاح في رحلتِهِ، يا مَنْ في العالم السفلي حاكمون، امنحوه أنْ يجد للمدينة، نصائح قَيِّمَة لترشدها سواء السبيل، حتى نتحرَّر أخيراً، من الألم والذعر والويلات، ونتحرَّر من هجمات الحرب، وليقاتل كليوفون الآن وعصابته، إذْ كان لا بدَّ لهم من القتال بعيداً في وطنهم)[14]. كليوفون كان حاكم أثينا، هذا الذي يتعرَّض للاستهزاء والسخرية، قبل ألفين وخمسمائة سنة، فقد انتقلت السلطة في أثينا عام 429 ق.م. إلى يد كليون دابغ الجلد الغني، ممثل الأغنياء والتجار، الدَّاعين إلى القضاء على إسبرطة باعتبارها المنافسة الوحيدة لقوة أثينا الاقتصادية، سَخِرَ أريستوفان في مسرحية مفقودة تدعى 'البابليون'، من كليون وأساليبه السياسية الغبية، وَقُدِّمَ بسببها إلى المحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بغرامة، وثأر أريستوفان لنفسه بعد عامين من هذا الحكم بإخراج مسرحية 'الفرسان'، شخصيتان رئيستان:

ديموس (الشعب) ورئيس خدمهِ (الدبّاغ، هاجمَ أريستوفان جميع المشاهير في عصرِهِ، وخاصةً طبقة الحُكّام، وكان جينيه يردِّدُ دَوْماً (أتمنى أن لا يتغيَّرَ العالم أبداً، كي يتسنَّى لي دوماً، الوقوف ضدَّه)، واليوم فإنَّ العوق الذي أصابَ هوية الأدب، سببه الرئيس التوجُّهات الكولونيالية، سواء ما قبل أم ما بعد، و(لقد تشكلت حياة ما يزيد على ثلاثة أرباع شعوب العالم اليوم، من خلال الخبرة الكولونيالية.. إنَّ الأدب يقدِّم واحداً من أهم طرق التعبير عن تلك المُدركَات الجديدة، من خلال كتابة الواقع اليومي الذي خبرته الشعوب المُستعمَرة.. أصبحَ

---

(14) أريستوفانيس، الضفادع، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي، 1966، القاهرة، ص119.

هذا الواقع مُنْفِّراً، كما أصبح تأثيره عميقاً)[15]. لكن هذه الخبرة الكولونيالية منتشرة في دول العالم كافة، ومنذ بداية التاريخ، وما تمارسه السلطة المحلية من ضغوط لاستيعاب المثقف، أشدُّ وَقعاً مما قد تمارسه السلطة الاستعمارية، لأنَّ " أهل مكة أدرى بِشِعابها". وبقيت علاقة السلطة بالمثقف: علاقة بطربركية، تستند إلى النسق السياسي الأيديولوجي، وضمور الأدب غير السياسي إحدى نتائج هذه العلاقة، ولقد أجرى مكسيم غوركي، الشاب، تعديلات على قصيدته حتى (ختمَ فلاديمير لينين صقر الثورة الفرنسية عام 1906 مقاله قبيل العاصفة بخاتمة "أغنية الصقر": " نغنِّي ممجدين جنون الشجعان/ فجنون الشجعان، حكمة الحياة/ أيُّها الصقر الجسور! لقد استنزفتَ دمك/ في قتال الأعداء.. وسيأتي وقت/ تشتعل فيه قطرات دمك الحار/ كالشرر في ظلام الحياة/ وستشعل الكثير من القلوب الجسورة/ بالظمأ المجنون إلى الحرية والنور)[16]. وهكذا تحول الشاعر من محامي القبيلة، إلى محامي السلطة، يتقلب في نصوصه بحسب الموجِّهات الأيديولوجية الملائمة للعصر، وَيُقالُ أنَّ مكسيم غوركي شعرَ بالذنب كثيراً، بعدما رأى بعينيهِ أنَّ الدماء التي سفكتها الشيوعية في سنةٍ واحدة، ربما تعدِلُ كلَّ الدماء التي سفكها قياصرة موسكو كافة، ولم تكن الدول الرأسمالية في منأىً عن هذا الانحسار الهويوي للأدبي والثقافي لمصلحة السياسي والسلطة، وكما تتغير الأيديولجيات من بيئةٍ إلى أخرى، تتغيَّر أيضاً من فترةٍ إلى أخرى، فقد (حيَّا الشاعر روبرت فروست في حفل تنصيب الرئيس جون كنيدي عام 1961 الأعمال البطولية في تأسيس أمريكا التي "بهدي الله"

---

(15) بيل أشكورفت، غاريث غريفيث، هيلين تيفين، الرد بالكتابة، ترجمة د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، 2006، بيروت، ص15.

(16) ايفريم كارانفيلوف، أبطال وطباع: مقالات في النقد، ترجمة ميخائيل عيد، منشورات وزارة الثقافة، 1982، دمشق، ص109، ونص القصيدة ص112.

قدمت "نظاماً جديداً للعصور": " وجدت مغامرتنا في الثورة والخروج على القانون/ مبرِّرَها في قصة الحرية/ تماماً حتى الآن من نصرٍ إلى نصر". وبعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً أنشدت مايا أنجلو قصيدة في حفل تنصيب الرئيس بل كلنتون طرحت فيها صورة مختلفة لأمريكا، فدون ذكر كلمة أمريكا أو أمريكي، حذَّدَت سبعاً وعشرين مجموعة عِرقية، دينية، قبلية، وإثنية.. وَشَجَبَت الاضطهاد غير الأخلاقي الذي عانت منه تلك المجموعات.. وقالت: إنَّ أمريكا قد " تقترن بالخوف، وترتبط بالوحشية إلى الأبد)[17]، وكانت الشوارع الأمريكية ترفع أعلاماً مختلفة، وكثيرة، لبلدان ودول أخرى، تُمثِّل أصول المواطنين، ولكن بعد 11 أيلول، وبحسب توجهات الدولة، لم يجرؤ مواطنٌ واحد على إبقاء علم الدولة التي ينتمي إليها، خوفاً من المتعصبين العنصريين. فهوية الأدب تتحدَّد غالباً بحسب موجِّهات السلطة الأيديولوجية، وهذا أمرٌ يحدث مع بداية تشكل السلطة مؤسَّساتياً، فقد قامت الدولة العباسية بحملة واسعة زمن (المأمون-المعتصم-الواثق) لتحجيم دور المثقف، فالتزمت مسألة "خلق القرآن"، وهي مسألة إشكالية خاصة بالنخبة المثقفة آنذاك، لكنَّ السلطة جَرَّتْ وراءها عامة الناس فصارت قضية عامة، ولجأت الدولة مع من ذهب غير مذهبها إلى وسيلة الترغيب والترهيب (كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم.. وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه وإن كان له رزق على بيت المال قطع)[18]. واليوم

---

(17) هنتغتون، من نحن؟ ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، 2005، دمشق، ص22.

(18) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، سنة ثمان عشرة ومائتين، ج10، ص273.

إحدى الصحف الحكومية، تدفعُ ضعف المبلغ الذي تدفعه للمثقف فيما لو كتبَ ضد الإرهاب أو البعث، وهو سلوك البعث عينه في السابق، وإذا كان الأدب ما بعد الكولونيالي يسعى إلى تحقيق ذاتهِ في عملية مزدوجة: الإقصاء والاستيعاب، فإنَّ الأدب الكولونيالي لهو كذلك أيضاً، ومفردتي "الإقصاء والاستيعاب"، ترجمة تكاد تكون حرفية لمفردتي "الترغيب والترهيب"، وهي عملية مزدوجة تمارسها السلطة في كلِّ آنٍ وحين.

إشكالية الهويات المتعدِّدة للأدب الكردي

ما معنى أن يكون لدى الأديب هوية اجتماعية، يستندُ إليها في طريقة تفكيره؟

أليست شِدَّة اعتزاز الأديب الكردي بهويته الكردية قد أفسَدَتْ عليه نصوصهُ؟

أليس هذا التعاطف الذاتي القوي بين الأديب والنص، ضيَّعَ الهوية الأدبية للنص، والهويَّة الصحيحة للأديب، وهي نقطة انطلاق إبداع الذات الحرة التجريبية، وجعلَ من هوية الأديب مُقيَّدَة بقناع رسمي، ينأى به عن قاعدة لغوية أدبية، بينما البعض يحاول بِشدَّة اعتزازهِ أن يُعزِّز من مكانة الثقافة الكردية، ولكن النيات الحسنة وحدها لا تكفي، وهو لا يعلم بأنَّه قد تحول إلى دون كيشوت، وكما جاء في المثل (أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل)، وَيُضرَبُ مثلاً للرجل يتهدَّد ليس إلا، وليس عليهم من هجائك ضررٌ، وقد أودوا بنصوصك خارج النظرية الأدبية، والضوضاء والضجيج، يهوِّل الأمور البسيطة، ويشوِّشُ الهوية الداخلية، ويبث الاضطراب في الحالة النفسية، ويشوِّش الهوية الخارجية، والشِّدَّة في كلِّ شيءٍ مُزرية، وفي الأدب تُمْعِنُ بالابتعاد عن النظرية الأدبية، وكما قال الحلاج:

القاه في اليم مكتوفاً وقال له
إياكَ إياكَ أنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

لأنَّ هذه الشُدَّة لا تسمحُ بهامش الحرية التي تحتاجها عملية الإبداع، وهذه الشُدَّة التي لم تأتِ من ضغط خارجي، بل ضغوطات نفسية، لا تسمح لبعض الأدباء إلا بتأكيدات مباشرة، وتعزيز مظاهر ثقافة لا تأمر أعضاءها إلا بالتوكيد والامتثال وحسب.

إن اهتمامي بشخصيات أدبية معاصرة، ينطلق من ظني بأنَّ هذه الشخصيات تمثل هوية العصر، لدينا أدب كردي مكتوب بلغة عربية، كنصوص سليم بركات، وغيره الكثير، ولدينا أدب مكتوب بلهجات مختلفة، كما لدينا أدب مكتوب بالحرف العربي، وآخر مكتوب بالحرف اللاتيني، ولكلٍّ أدب من هذه، هويته الخاصة، ولكن هل تصلح هذه الاختلافات معياراً للتميز، أو لوضع حدود داخل الأدب الكردي؟

هذه الاختلافات، وإنْ كانت تبدو سطحية للوهلة الأولى، ولكنَّها جوهرية من جانب آخر، وأكثر عمقاً، لأنَّها تدخل في صميم علم اللغة والتاريخ ونظرية العِرق والفلسفة والأنتروبولوجيا.

كما لدينا شيءٌ آخر، الهوية المزدوجة للشعب الكردي المغترب في أوروبا وأمريكا، ففي لندن يوجد لدينا مهاجر كردي، يملك هوية كردية، ولكن أبناءه، لا يعرفون لغة آبائهم، كما لم يسمعوا شيئاً عن الأدب الكردي، وبعد جيل أو جيلين، سوف يتضاءل حجم الجاليات الكردية المغتربة، ولكن توجد إشكالية داخل هذه الهوية المزدوجة، وهي الوعي الجماعي بضرورة استمرار التواصل بينهم، كمجاميع تحمل هويةً واحدة، وتنشأ من جرَّاء هذه الهوية علاقات قرابة ومصاهرات، كما يُفترض بهذه المجاميع استحداث صيغ وكلمات لم تكن موجودة من قبل، مثل الكلمات التي تستخدم كرموز لها دلالات متفق عليها بين كل مجموعة، وهذه الدلالات لم تأتِ من فراغ، بل نتيجة ذكريات مشتركة عن حوادث

أو شخصيات شهيرة، أو أعراف خاصة بينهم يفهمون معانيها بكيفية متشابهة أو متقاربة، وغالباً ما يكونون قد اتفقوا عليها بصورة لا شعورية.

هاجرت العقول من العراق زمن البعث، من أجلِ حياةٍ أفضل، طلباً للمال والرفاهية، ولم تعد، ثمَّ هاجرَ من تبقَّى طلباً للأمن، ثمَّ إنَّ من المستحيل أنْ يكون الوطن مجرد سقف نستظلُّ به، وإلا لماذا هذا الاغتراب؟

الاغتراب ظاهرة إنسانية يمكن أن نتتبع تجلياتها على السطح، والخفية في كثير من النصوص الإبداعية الكردية، في نهاية خاطرته التي لم ترقَ إلى مستوى القصة كتبَ بائيز عمر بعنوان "الماء" (ذات مرة ثارت الحجارة لسد الطريق أمام الماء كي لا يصل الشجرة، لذا بدأ الصخب من كل جانب، أخذت الحجارة تتدحرج وتتلاصق لكي لا تترك أية فراغات، من جانبٍ آخر كانت جذور الشجرة تتناوب أطراف الحديقة، كل واحد تسحبها (يسحبها) من طرف، لأنها جميعاً كانت تعرف أين الماء، لكنها تجهل كيفية الوصول إليه، من جانبٍ آخر، بدأت الأغصان والأوراق تتصارع كلٌّ واحدةٍ منها تريد أن تعلو فوق الأخرى، لكي يمسها المطر أولاً إن هطل، ثم هطل المطر من السماء وانفجر من الأرض، طفت الشجرة فوق الماء أما الحجارة فكانت تقول: يجب على المرء أنْ يتكيَّف مع الحياة التي مع الماء، لكي يتمكن من العيش وألا يغرق)[19].

القاص والروائي والشاعر يكتبون نصوصاً إبداعية تتحدَّى ذائقة القارئ، تستهدف استيطان أحلام القارئ بدغدغتها أو ملاحقتها وإرهاقها، والماء خاطرة قصيرة، من مئةٍ وخمس كلمات، حالة عامة،

(19) بائيز عمر، الماء، قصص من بلاد النرجس، ترجمة حسن سليفاني، مطبعة هوار، 2002، دهوك، ص29. وكذلك القصص الأخرى تعود إلى المصدر عينه.

شخصياتها أكثر تعميماً: الماء والمطر والشجر والحجارة، لكن الغموض ليس غاية القاص ولا الشاعر الذي يقول (الغموض في الشعر، ليس بذاته نقصاً، وأن الوضوح ليس بذاته كمالاً، الغموض على العكس دليل غنى وعمق، وهذا ما تنبّه إليه ناقد عربي قديم (أفخر الشعر ما غمض) والناقد القديم والقول هو (لأبي إسحق الصابئ في الفرق بين الكتابة والشعر، وهو جواب لسائل سأله، فقال: إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن الترسل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه، وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه)[20]، وبعنوان (انفجار) كتبَ بانيز عمر بلغة واصفة وتكلف وتلفظ مضاعفين (كانت الريح تسلب السنين، كانت السنين تجلب الثلج، كان الثلج يبتلع البشر، كان البشر يبحثون عن الشعرات البيضاء، وكان البشر والأرض قد توحدا، لذلك كان البشر يودون أن تنفجر الأرض، وكانت الأرض تودّ أنْ ينفجر البشر). لأنَّهما اتحدا يريد أحدهما تفجير الآخر، أينَ الأسلوب؟ أينَ تقنية الحكي؟ بل أين القصة القصيرة في هذين النصين وثلاثة نصوص أخرى للكاتب؟ كما إنَّ أكثر العناوين تقليدية هي التي يتم تكثيفها في اسم البطل، أو اسم الحالة، ومن ثم يمضي الأديب بشرحها، بينما قال لامارتين عن أشهر قصائده (لقد نسيت عنوان القصيدة)، النص الإبداعي لا يستهدف تقديم النصائح والشروح والتفسيرات والتعليلات، وهذا نوعٌ آخر من الاغتراب الإبداعي في الانحسار داخل المعطف الإقليمي المحلي، نتيجة عجز بائن عن مسايرة آداب الشعوب الأخرى.

صورة ذهنية تزيد من غموض طبيعة الكينونة الذاتية، وتؤثّر في علاقتها مع طبيعة الكون المحيط، أصل الشقاء الإنساني، يكمنُ في حسِّ

(20) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص290. بدون ط وت.

الاغتراب عن النظام الطبيعي للكون، عن القيم والمبادئ السائدة في المجتمع، (كان كافكا يتخيَّلُ نفسهُ، قد صار كالجيفة أو كالذبيح، وانَّ هناك غرباناً سرية مستورة ترنّق حوله)[21]. ترنّق تدور محتارةً في مكانها. وللأديبِ غربةٌ وحزنٌ شديدان لا يتبددان إلا بالكتابة، باعتبارها " ضرباً من الصلاة" بحسب كافكا. القاص يونس أحمد نشرَ عام 2000 في مجلة بيف، ثلاث قصص قصيرة، بائع الطيور يعاني قهراً اجتماعياً بسبب ضغوط يمارسها عليه جيرانه، تضطرهُ إلى ذبح الطيور التي يرتزق من بيعها، والعائلة تعاني آلام انتظار الضيف الأمل الذي لم يأتِ، ورجلٌ يطلُّ على جثته تتناهشها الكلاب، فيضحك، لم ينقذه من حزنهِ سوى أنْ يتخيَّل جثته تتناهشها الكلاب، متمثلاً قول شهاب الدين الآلوسي في مقدمة "غرائب الاغتراب":

كـــأن الـــحـــزن دائـــرةٌ بـــقـــلـــبـــي
فـــــأولُـــــهُ وآخِـــــرُهُ سَـــــواءُ

وكذلك القاص أنور محمد طاهر في (قصة الرجل الذي سقطَ في المصيدة ولم يقاتل) حيث يقول في النهاية: (ثانيةً تركونا لوحدنا). فهناك حالة فرار جماعي وقعت قبل هذه الحادثة المسرودة، أو الفرار الفردي في قصته (لصوص الليل) حيث يقول البطل في النهاية (إذا ما سألكَ أحدهم قولي له لقد سلكَ دربه نحو الأعالي.. حينما كان يعبر دجلة، كان ماؤه ينحدر نحو الجنوب بغضبٍ هادر)، وحسن سليفاني في قصته (ليلة المطر) يُجسِّد فكرة الإنسان باعتباره مواطناً مع الدولة التي يشعرُ بعجزهِ أمامها، وإنْ لم يكن مضطهدا، ويستحيل على أية دولة أنْ تحقق أحلام مواطنيها كافة.

يقول الدكتور أحمد أبو زيد: (الاغتراب في صورهِ وأشكالهِ

---

(21) أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، 1981، الكويت، ص5. يوميات كافكا 16/ 10/ 1921.

المختلفة ليس إلا نتاجاً لعجز الإنسان أمام قوى الطبيعة وقوى المجتمع، كما أنَّهُ نتيجة طبيعية لجهل الإنسان بالقوانين التي تُسيِّر هذه القوى) وهذا العجز مستمر، للإنسان وللدول وها هي اليابان والولايات المتحدة تقفان عاجزتين أمام الأعاصير والزلازل والفيضانات، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية، ويكملُ أبو زيد (الماركسية لا تعتقد أنَّ الاغتراب حالة أبدية، أو لعنة لا يمكن التخلص منها، لأنَّهُ نجمَ في الأصل عن وجود بعض الملابسات والأوضاع والظروف التاريخية، وبذلك يمكن تغيير هذه الحالة إذا تغيرت هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وقام نظامٌ آخر أفضل)[22]. كما لا توجد حياة إنسانٍ خلت من الكدر والأمراض والعوارض وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي في نقصان، ويقول المعري:

تعبٌ كلُّها الحياة فما أعجبُ
إلا لراغبٍ في ازديادِ

يعتبر بعض النقاد أنَّ الحداثة أفرزت ظاهرة الاغتراب، فتمركزت كموضوع رئيس في الكثير من النصوص الأدبية الغربية، حيث يظهر البطل مغترباً عن الناس، الشاب الفرنسي الجزائري ميرسو في (الغريب/ كامو) والأمير ميشكين في (الأبله/ ديوستوفسكي) وبيير في الحرب والسلم، حيث ينظرون إلى الأشياء نظرة مختلفة عن نظرة المجتمع، وينجذبون إلى أشباههم (قال أولريش: أنتِ رائعة يا كلاريسا، كلُّ شيءٍ عندك هو نفسُ الشيء)[23]، لكن الاغتراب ظاهرة إنسانية لم يخلُ مجتمعٌ منها، في الطبقات الاجتماعية والثقافات المختلفة كافة، فضلاً

---

(22) عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول 1979، عدد خاص عن الاغتراب، تمهيد العدد مستشار التحرير د. أحمد أبو زيد، ص6.

(23) روبرت موزيل، الرجل الذي لا خِصَال له، ترجمة فاضل العزاوي، دار الجمل، كولونيا، 2003، ص277.

عن أنّها ظاهرة عتيقة، تكاد تكون أصلاً في الأديان السماوية، في الإصحاح 17 من سِفر التكوين، يخاطب الله تعالى إبراهيم عليه السلام (7: وأعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك). وفي الإصحاح 15 من سفر صموئيل الثاني (فقال الملك لأتاي الجتي لماذا تذهب أنت أيضاً، ارجع وأقم مع الملك لأنك غريب ومنفيٌ أيضا من وطنك). وفي الإصحاح 119 من سفر المزامير (19: غريب أنا في الأرض لا تخف عني وصاياك). وفي تتمة سفر أستير (عيش الفقير تحت سقف من ألواح خير من الأطعمة الفاخرة في دار الغربة). جميع الأنبياء والرُّسل طردوا من البلدان التي ولدوا ونشأوا فيها، وكانوا يسمون الدنيا بدار الغربة، وهي وصية رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) و(إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ)، وكان علي بن أبي طالب يقول: (إن أخوف ما أخاف اتّباع الهوى وطول الأمل فأما اتّباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فَيُنْسِي الآخرة).

اختلاط المعايير، انهيار منظومة المبادئ، يولدان العجز والعزلة واللاجدوى، كأسباب لظاهرة اجتماعية تسمى بالاغتراب الذاتي (Self-esrangement). عام 1951 (أجرى الباحث الأمريكي أنتوني ديفيدز بحثاً ميدانياً في جامعة هارفرد توصّل من خلاله إلى أنَّ مفهوم الاغتراب يتألف من خمسة توجهات متشابكة: التركيز على الذاتية وعدم الثقة، والتشاؤم والقلق، والاستياء)[24].

ابتدر أونامونو كتابه (الشعور المأساوي بالحياة) بمقولته (أنا إنسان ولس ثمّة إنسانٍ آخر غريب عني) محاكياً مقولة الشاعر الروماني تيرانس (194-159 قبل الميلاد) (أنا إنسان ولا شيء إنسانياً غريباً عني) نعقد

(24) د. حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، بيروت، ص10.

مقارنة بين القاص الكردي خالد صالح والإيطالي إيتالو كالفينو في اغترابهما الذاتيين عند جسور الحداثة، بنكهة الشعور المأساوي بالحداثة عند أدونيس وعبدالوهاب البياتي في قصيدته " قداس جنائزي إلى نيويورك" :

وحشٌ حجري يتربع فوق الفولاذ المسنون
بعينٍ واحدة يرنو لليل المثقوب بطلقات رصاص
ينفثُ في وجه الفجر دخانا
ينشبُ في لحم الساعات مخالبه
يتمطى فوق رغاء الأصوات المسحوقة
تغلي في داخله أوساخ الطوفان البشري المهزوم
بعينٍ أعماها النور يُحدِّقُ في طقس الروتين اليومي
وجدول أعمال النمل
وفوق قناني الخمر الفارغة السوداء
يتناوم سكران
تملؤه أحلام اليقظة، منتفخاً، جوعان)[25].

لماذا نيويورك؟ رمز العالم الجديد: حضارةٌ بأربع أرجل: كرمز للشر أو الفوضى في شعر أدونيس، ففي قصيدته "قبر من أجل نيويورك" يقول:

(نيويورك،
حضارةٌ بأربع أرجل. كل جهة قتلٌ وطريق إلى القتل،
وفي المسافات أنينُ الغرقى.
نيويورك،
امرأةٌ - تمثال امرأة
في يدٍ يرفع خِرْقَةً يسميها الحرية ورقٌ نسميه التاريخ

(25) عبدالوهاب البياتي، مملكة السنبلة، دار العودة، 1979، بيروت، ص51.

وفي يدٍ تخنقُ طفلةً اسمها الأرض)[26].

يبدأ القاص خالد صالح قصته القصيرة (قملستان) بالحنين إلى الماضي، باستذكار مقولة معلمه (كنا ما نزال في مراحل الدراسة الأولى، وكان المعلم قد علمنا، وهو يقول دوماً: الجسر يعني العبور، الوصول إلى الهدف)[27]، كان على المترجم الاكتفاء بإحدى الجملتين كان المعلم قد علمنا: الجسر يعني...، أو كان المعلم يقول دوماً الجسر يعني..

من يفهم ما يدور في رأس بطل القصة المغترب الذي يبكي دهوك القديمة، بهجاء دهوك الجديدة، الحداثة التي لم تحقق الأهداف التي كان يرنو إليها؟ بطل القصة الذي اعتاد المشي بين أطراف المدينة كل يوم، لم يعد بوسعه أن يفعل ذلك، بطل القصة الذي يشعر بالضياع الذي شعر به ماركو فالدو الشيطان الفقير على طريقة شارلي شابلن، بطل إيتالو كالفينو وهو يعاين الحداثة تغزو مدينته القديمة، حتى أنَّ الأطفال الصغار لم يعودوا يفرحون بهدايا العيد، فأبناء ماركو فالدو لم يفرحوا بوالدهم المتنكر وعرفوه فوراً بسبب استهلاك الفكرة (إذْ حدثَ أنْ طرأت الفكرة نفسها لمكاتب العلاقات العامة في شركات عديدة في وقت واحد، فقامت بتجنيد أكبر عدد من الأشخاص كي تقوم بإلباسهم المعطف الأحمر واللحية القطنية البيضاء، وبعد أن استمتعَ الأطفال في المرات الأولى بالتعرف على معارفهم وأشخاص الحي تحت تلك الملابس التنكرية، فقد اعتادوا بعد ذلك بقليل على تلك اللعبة ولم يعد أحد منهم لينشغل بها.. سألهم ماركو فالدو: هل يمكنني أن أعرف أية مؤامرة تدبرون؟

---

(26) أدونيس، الأعمال الشعرية، ج3، مفرد بصيغة الجمع، ط1، 1996، دار المدى، دمشق، ص107.

(27) مجموعة مؤلفين، شواف الليلة الأخيرة، ترجمة سامي الحاج، 2009، اتحاد أدباء دهوك، ص59.

- دعنا بسلام يا أبي؟
- هدايا لمن؟
- لطفل فقير، علينا أن نبحث عن طفلٍ فقير ونقدم له الهدايا.
- ومن قال لكم ذلك؟
- هذا موجود في كتاب القراءة.

كاد ماركو فالدو أنْ يقول لهم: أنتم أنفسكم الأطفال الفقراء... فضل أنْ يصرّح لهم:

- لم يعد هناك من وجود لأطفال فقراء!

فنهضَ ميكلينو وسأله: ألهذا يا أبي لا تحمل إلينا الهدايا؟ فأحس ماركو فالدو بقلبه ينقبض وقال بسرعة: عليّ الآن أنْ أكسبَ أجر العمل الإضافي وبعد ذلك سأجلبُ لكم الهدايا. فسأله فيليبتو:

- كيف ستكسب ذلك؟
- بإيصال الهدايا!
- لنا؟
- لا لأناس آخرين.
- لماذا ليس لنا؟ سيكون ذلك أسرع بالنسبة لك.

حاول ماركو فالدو أنْ يشرحَ لهم فقال: لأنني لستُ بابو ناتالة قسم العلاقات الإنسانية، وإنما بابا نتالة قسم العلاقات العامة هل فهمتم؟- . لا)[28]، ماركو فالدو بسبب اغترابه، ويأسهِ وفقرهِ وعجزهِ أمام المؤسسة الرأسمالية، يريد من أطفالهِ أنْ يفهموا ما لم يفهمه هو، لماذا بابا نويل العلاقات العامة يزور الأغنياء ولا يزور الفقراء؟ كي يحقق أرباحاً أكبر،

(28) إيتالو كالفينو، مختارات قصصية، ترجمة سمير القصير، صحارى للصحافة والنشر، 2000، دمشق، ص19.

وهو بهذا السؤال يحمِّلُ أطفالهُ فوق طاقتهم، كمعظم الآباء في عصر الحداثة، يشكون من أنَّ أطفالهم يسألون أسئلة أكبر من حجمهم، وأنَّ هدايا العيد ما عادت تعنيهم.

القاص خالد صالح حين يتحدث عن زمنٍ ماضٍ، باستخدام الفعل الماضي الناقص، يحيل على زمنٍ حاضر، لم تتحقق فيه الأهداف، رغم إنهاء المراحل الدراسية كافة، رغم بناء الجسور، رغم وضوح الأهداف، ما يعني الضياع، ولا جدوى التعليم، ورغم عبورنا الجسور، لم نحقق أهدافنا، ويكمل القاص (صحيح أنَّ نهراً ذو التواءات عدة يمر بالقرب من مدينتنا، لكن لم يكن ثمة جسر عليه، جملة المعلم كانت قد طبعت في ذهني ولم أنسها أبداً). لأنَّ نهراً منصوبة باعتبارها اسم أنَّ، فلا بدَّ أن تتبعها ذا، وليس ذو، والجملة الفعلية (يمرُّ بالقرب) في محل رفع خبر أنَّ.

وللتأكيد (جملة المعلم كانت قد طبعت في ذهني ولم أنسها أبداً).

بعد سنوات (كبرت مدينتنا، بدأت تظهر بيوت هنا وهناك في الجهة الأخرى من النهر، ومن أجل ذلك بدأوا بإنشاء الجسور على النهر، بل واطلقوا عليها أسماءً أيضاً).

حالة أولى: يوجد نهر، لا يوجد هدف (بيوت في الضفة الأخرى للنهر)، لا يوجد جسر، لا يوجد عبور، يوجد اغتراب.

حالة ثانية: يوجد نهر، يوجد هدف، يوجد جسر، يوجد عبور، يوجد اغتراب.

(في اللحظة التي كنتُ أرومُ فيها اجتياز الجسر، كان القمل في شعري يضجُّ بالحركة.. لم يكن بمقدوري أن أفعلَ شيئاً حيالها، كان طقس حفلتها حامياً: ما هذا عناصر الشرطة يقفون عند ناصية الجسر؟).

التركيز على الزمن من رؤية ذاتية، بربطه بحدث ذاتي (في اللحظة التي كنتُ أروم فيها) وعدم الثقة بقدرته على اجتياز الجسر، ولَّد لديه حالة قلق أفضى إلى تشاؤم، ورؤية الشرطة زادت الطين بلَّة، ونبرة الاستياء ظاهرة في التعبير عن صدمته برؤية عناصر الشرطة عند ناصية الجسر، ولهذا كله أصيب بشلل (الخوف والرعشة أخذتا بشفتي، لكن القمل كان آمناً مطمئناً). باعتبار القمل أحد عوامل الاغتراب الذاتي، ظلَّ ثابتاً مطمئناً، بينما ازداد قلقه ومخاوفه إلى حد شل شفتيه عن الحركة، وبهذا تظهر لدينا حالة ثالثة: يوجد نهر، يوجد هدف، يوجد جسر، يوجد قمل، يوجد شرطة، يوجد اغتراب أشد من الحالة الثانية.

(بعد بضع سنوات، عدتُ مرةً أخرى إلى ذات المكان، حي محترم وجديد زاد في مدينتنا.

- تُرى ما هذا الحي؟

- أخي لا ترفع صوتك. إنَّه قملو سيتي).

حين يقول إلى ذات المكان، يعني الجسر أو قريباً منه، ونبرة الخوف الظاهرة (أخي لا ترفع صوتك) وبالتالي لدينا حالة رابعة: يوجد نهر، يوجد هدف، يوجد جسر، يوجد عبور مستتر رؤيوي، يوجد حي جديد، ومحترم، يوجد خوف، يوجد اغتراب أشد.

وهو حين يقول يوجد حي محترم وجديد، يعني أنَّ الأحياء القديمة غير محترمة، ولهذا يهجرها قاطنوها إلى الأحياء الجديدة، ذوات الشوارع الأوسع، والخدمات الأكثر، بعيداً عن الأزقة الضيقة، وصراخ الأطفال الذين تضيق بألعابهم البيوت الضيقة المزدحمة، رائحة طبخ الأكلات الشعبية، لا يخلو منها زقاق، تتنفَّس عبر الأبواب المشرعة دوماً أمام الجيران، ونوافذ المطابخ الضيقة، وصوتُ أمٍّ تنادي صغيرها في نهاية الزقاق، الذي يبعد عنها خمسين متراً على الأقل، رائحة بقايا البراز في سواقي المجاري، الصغيرة المكشوفة، المختنقة غالباً بأكياس

النايلون وبقايا الفضلات، مقارنةً بالأحياء الجديدة والعمارات العالية كما في المدن الحديثة، من ذوات الأسماء الجميلة التي تنتهي بلفظة سيتي، علامة الغرب والحداثة.

يكمل القاص صالح مسيرة بطله في دهوك الحديثة (عندما أردتُ ذات يوم عبور جسر آزادي طالعتني لوحة موضوعة في بداية الجسر: انتبه نقطة تفتيش!).

(بعد بضع سنين، أي بمعنى بعد اكتمال حي قملو سيتي، أُنشئ في قبالة ذلك الحي، حيٌّ آخر في الجهة الأخرى من النهر باسم حي نيو قملو سيتي).

الفصل السابع

دور الصحافة في تمكين الهوية الكردية

نشر الفيلسوف الفرنسي بوردِيار الكثير من المقالات والأبحاث الفلسفية في الكثير من الحوليات والفصليات التي تعنى بالفلسفة، لكن مقاله في الغارديان عن حرب الخليج الثانية أثارت ضجة فكرية كبيرة، وأكسبته شهرة كبيرة، كفيلسوف لمرحلة ما بعد الحداثة.

أثار عبدالرحمن الباشا مسألة انقراض الزي الكردي الشعبي، وعند قراءتي لمقالِهِ القصير، شعرتُ بحماسةٍ من نوعٍ غريب لم آلفها، اشتريتُ سروالاً شعبياً، وارتديته مرات قليلة، رغمَ أنَّهُ مريح جداً، وبالأحرى مفيد، من مفهوم المخالفة، حيث أنَّ الملابس الضيقة وخصوصاً الجينز، تتسبَّب بالعجز الجنسي، وبأمراض الجهاز البولي، بسبب الضغط الحاصل، لكني أتساءل: لماذا لم أستطع الاستمرار في ارتدائِهِ، رغم الراحة والانسجام؟ الدَّاعون للانفتاح، الدَّاعون للانغلاق، والهوية الكردية تصارعُ وتتأرجح بينهما، موت معنوي، فكأنَّ الزيَّ الشعبيَ لم يَعُدْ لائقاً إلا بالشيخ، العتيق، أمَّا الشباب، والنخبة، فلربما لا يرتدون هذا الزي، إلا في المناسبات فقط.

هل لوسائل الإعلام دورٌ في تشكيل هويتنا الذاتية؟ ما هو نوع الثقافة والفنون والآراء التي تُقَدِّمُها لنا؟ هل لها دورٌ في تغيير هواياتنا

الثقافية والرياضية والاجتماعية؟ هل بمقدور وسائل إعلام ما، أنْ تُفْسِدَ الذوق العام، أو تعمل على تغيير أنماط التفكير السائدة؟

الصحافة كظاهرة اجتماعية معرفية، لم تحظَ بدراسة عميقة، تتفق وخطورتها، فهي أحد أهم المؤشِّرات على حجم هامش حرية الرأي والتعبير، وكلما عدتُ بعد تَصَفُّحُ جريدة يومية كردية، يأخذني حزنٌ شديد، يأبى لي الرُّقَادَ، ليس في الجريدة ما يثير لحظة تأمل واحدة وقصيرة، وتعتريني حالة كَسَل فِكري، تتمخَّضُ عن مغامرة فكرية راهنة، عند عدم فهمنا لحركة الاجتماعي التاريخي، لكشف حدود نمط معين من التفكير، وعلاقته بتقلبات النظام العام، من خلال عدم فهمنا للآخر، وعلاقتنا المُشَوَّشَة بهم، والتفكير الموروث الذي أنتجَ صورة نمطية عن الآخر، وبالتالي عدم فهمنا لأنفسنا، والتمحيص وراء: من نحنُ؟ ماذا نريد؟ ماذا ينقصنا؟ ماذا نملك؟

هوية القارئ: حين يقرأ الجريدة، يبحث عن المعرفة، ويستمتع بلذة الحصول عليها، والافتخار أمام زملائهِ بأنَّهُ من قُرَّاء الصحف، ولا تتطرَّق إلى ذهنِهِ عناصر ومكونات الخبر أو المقال الصحفي.

هوية الكاتب: حين يكتب الخبر أو المقال، لا يتطرَّق إلى ذهنه: أنَّه يمارس تضييق المسافة أو توسيعها بين الرأي المحض، والمعرفة الحقيقية، علاقة عناصر ومكونات النص، مع عناصر ومكونات القارئ.

نملك حرية الرأي والتعبير، هذه الحرية التي صَدَأَتْ، من تكرار مناقشة قضايا بعينها، والابتعاد عن مناقشة أيَّة مشاكل نعتقد خطورتها، وبسبب قصورنا عن التعاطي مع أخطار وشيكة ومحقَّقة الوقوع، داخلياً وخارجياً، يحدث تبادل بين الحقيقة والزيف، ويصير الواقع محض ظاهرة خِطابية، جمل وعبارات لغوية، تكررها صحفنا، وتدخلها عنوةً إلى رؤوسنا، هذا الاتجاه المُضاد للحقيقة، هو الذي نسير فيهِ اليوم، حيث تحولت الحقيقة إلى صورة نصيَّة مكتوبة، كجزء من معطيات الظرف الثقافي، الذي غالباً ما تسيطر عليه السلطة الحكومية، فالحقيقة لا يمكن

لها أن تخرج من إطار قيم ومعتقدات حدثت وشاعت ـ ليس فجأةً بل ببطء شديد وغير ملحوظ ـ بين أفراد مجتمع تأويلي مُعيَّن، نتيجة استهلاك ثقافة معينة، فالجيش الذي يتقدَّم لإبادة مدن آمنة، بقصفها قصفاً عشوائياً، مع القرى المحيطة، فيما لو لقيَ أحد جنود هذا الجيش حتفهُ في الطريق، جرَّاء حادث أو خطأ، سيقولون عنه الشهيد البطل، لأنَّهُ كان في طريقهِ إلى قتل الأعداء، ولكن من هم هؤلاء الأعداء؟ ولماذا ولمصلحة من نعتبرهم أعداءً؟ الصحف مصدر رئيس للمعلومات، وأساس معتمد لدى الناس في تكوين آرائهم، والتعبير عن قراراتهم، وتظهر خطورة هذا الدور خصوصاً في الحملات الانتخابية، حيث بمقدور الصحافة تزويق أحد اللصوص الفاشلين، حتى يظهر بمظهر البطل الأسطوري المنقذ الذي ينتظره الشعب.

العلاقة بين التغييرات الاجتماعية والصحافة، لم تأخذ الاهتمام الذي تستحقهُ، لذا ينبغي أنْ نتوقف عندها ونفحصها في قراءة تبحث درجات التغير البطيئة، كأحداث السبعينات حيث أثارت الصحف اليومية اللندنية ذعراً معنوياً حول ظاهرتي المودس والروكرز، ودفعت الشرطة إلى استخدام العنف والاعتقالات العشوائية، وراح المجتمع يطالب بزيادة صلاحية الشرطة، بينما بدأ الشباب يتعاطف مع هاتين الحركتين، بإسباغ هوية شخصية معينة عليهما.

في الغرب يوجد للصحف اليومية حضورٌ قوي، فالجميع يقرأ الصحف، وكل صحيفة تتكون من عدة ملحقات ومن صفحات بين 50-100 صفحة، فيها من كل شيء، أسعار السيارات إلى أسعار المواد الغذائية، وأية تنزيلات في الأسعار، وفيها أخبار الرياضة، ملحق يومي، والحوادث المحلية، والأدب والفنون، تغطي هوايات الجميع، لكن أي ذعر معنوي ليس بمقدور الصحافة وحدها أن تخلقه، لا بدَّ أنْ يشارك القارئ في خلقهِ، ومن شأن الثرثرة تهويل الأمور، فالصحف استغلت بذرة وجود خوف متزايد في المجتمع البريطاني من انحراف الشباب،

فسقت هذه البذرة بأخبار مبالغ فيها إلى حدٍّ كبير، واستقبلها الجمهور بحالة عمى، ثم قادت الصحف حملات لبث الذعر من جماعات تؤمن بعقائد شيطانية، والناس ينسبون إلى الجريدة صِفَةً على أساس ما يقرؤونه فيها من أخبار وآراء، وبالتالي يتشكل لديهم وعي بمعرفة الجريدة، من خلال تلك المؤشرات. ولكل مجموعة معينة من الناس وعي معرفي يختلف عن مجموعة أخرى، كالقدح نصف الملآن ونصف الفارغ.

الهوية الشخصية للجريدة تتيح للفرد أسئلة إشكالية عن العناصر والسمات المختلفة، مثل إشاعة نوع من السلوك، والمعتقدات، ويمكن دراسة تأثير الضغط الاجتماعي للصحف في التنشئة الاجتماعية للجيل المقبل، كتأثير الآخرين في تنمية الهوية الشخصية.

الصحيفة كائن ذو بعد ثلاثي (الغايات، الوسائل، الأفعال) والغايات في قمة الهرم، لأنَّها التي تحدِّدُ البعدين الآخرين، الأخبار والآراء التي تقدمها، وشيءٌ من وعي القارئ ينبجسُ بشكلٍ جديد مع كلِّ عددٍ جديد، وكل صحيفة تنتج هويتها الخاصة، التي تميزها من الصحف الأخرى، وكل قارئ يشتري الصحيفة التي يختارها لهويتها الخاصة، وهوية كل صحيفة ترتبط بمدى قدرتها على الوصول إلى نتائج صادقة وواضحة تتعلق بالحقائق، وكل صحيفة تعتبر نفسها متفوقة على الصحف الأخرى، وهذا حكمٌ غير صحيح، فالأسوأ شرطُ الأفضل، ولكي نقول هذه الصحيفة أفضل، فهذا يعني أنَّ بقية الصحف سيئة، ما هو مقياس الحكم، في المسرح: شباك التذاكر لا يكذب، وفي الصحافة المبيعات والأرباح لا تكذب، ولكن هل يجوز أن نعتبر المبيعات مقياساً للنجاح؟ الصحافة السيئة لا تعرف كيف تتعامل مع المسؤولين، الذين لا يقدِّمون غير المعلومات التي تُحسِّنُ صورتهم، فيما لو تَقاعَسَت الصحافة عن تقديم الحقائق للجمهور، فَمَن الذي سيقدِّمها غيرهم؟ الصحافة الناجحة تمنح القارئ، ما وراء الحقيقة، تُقَدِّم له ما لا يعرفه. ألم تظهر حالة فقدان للثقة بين الصحف المحلية وبين القارئ؟ وإلا فلماذا صارت

صحافة الفضائح في كردستان هي الأعلى مردوداً؟ رغم ما تمارسهُ أحياناً من تشويه للحقائق بتضخيمها أو تبسيطها، ولسمعة الأفراد، والإساءة إلى الأديان والمعتقدات، وغالباً ما يكون الدين الإسلامي هو المقصود، لأنَّ الأديان الأخرى تتمتع بحصانَة شديدة، أو تنشرُ صوراً وأخباراً تخدشُ الحياء، وهذه كلها مخالفة للقوانين في دول العالم كافة، وليس في العراق فقط، مع اختلاف تعريف النظام العام والآداب العامة.

(أشارت الاستطلاعات إلى ريبة الجمهور حيال وسائل الإعلام.. فقد توصل الأمريكيون بالإجماع تقريباً إلى استنتاج أنَّ الصحافة غير موضوعية وأنَّ أفراداً أو تنظيمات ذات نفوذ قادرة على حذف الأخبار أو توجيهها)[1] افتتاحية المجلة المهنية (Editor Publisher) في 28/ 12/ 1998 ص12 في تحقيق أجرته الجمعية الأمريكية لناشري الصحف حول مصداقية الصحف.

إذا كان المواطن الكردي البسيط بطبعهِ لا يحبُّ الفضائح، فهل حدثَ خللٌ ما، في بنية الهوية الاجتماعية الكردية؟ الصّحافي يسأل هذا السؤال، ويبحث عن خلل في بنية المجتمع الكردي، لكن الواقع يقول أنَّ الصحافة الحزبية أو الحكومية أو المدعومة، في إقليم كردستان، صحافة مملة، حيث تشبهُ مصنعاً ينتجُ نوعاً من أكياس النايلون، بالمواصفات عينها، كلَّ يوم، الشكل والحجم عينه، والصّحافي العامل فيها، مُحْبَط ويائس، لأنَّ رؤساء تحرير هذه الصحف، والقابعين في مقاعدهم منذ تأسيسها قبل أكثر من عشر سنوات، لا يهمهم إلا شيء واحد، وهو أنْ تصدر الصحيفة وتصل إلى المطبعة في موعدها المحدَّد، دون مشاكل من شأنها أنْ تهدِّدَ منصبه وكرسيه، وهو يتناقش مع رؤسائه في إيجاد صيغة تضمنُ بقاء اسمهِ في منصب رئيس التحرير أو صاحب

---

(1) جان كلود برتراند، أدبيات الإعلام: ديونتولوجيا الإعلام، ترجمة أ. رباب العابد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 2008، بيروت، ص6.

الامتياز، فيما لو انتقلَ إلى العالم الآخر، كنوعٍ من الوفاء لشخصهِ الكريم، وهو ما حدث في بعض منشورات الإقليم، ولأنَّهُ يعتقد المؤسَّسة الصحفية التي يديرها ملكية خاصة، يتعامل مع مرؤوسيهِ من الصّحافيين بانتقائية انفعالية، لا علاقة لها بالمهنة الصحفية، حيث يلقى الماهر الخبير، الذي يجهدُ نفسهُ في تحرير مادتهِ، الأجر عينه الذي يلقاه زميله، الذي لا يملك أدنى كفاءة أو مهارة أو ذكاء، فضلاً عن أنَّهُ غير مخلص في عملهِ، وقد جاء إلى الصحافة، كسبوبة رزق، وبحثاً عن مَعَاش شهري لا غير، وغالباً ما يلقى الأخير حظوةً مالية ومعنوية أكثر من الأول، خصوصاً إذا كان ذلك الموظف الكسول من الجنس اللطيف، وبالتالي فإنَّ نظام الأجور سبب لتثبيط الإبداع والتطوير، وهو نوعٌ آخر من الفساد الإداري والمالي والثقافي. ماذا سيكتبُ لنا الصّحافي المُحْبَط غير مواضيع تثير الملل والضجر في نفس قارئها؟

هل يعاني الصَّحافي في إقليم كردستان خللاً في هويته الإعلامية؟

هل يعرف الإجابة الصحيحة عن أسئلة: مَنْ أنا؟ ماذا أريد؟ ماذا ينقصني لأكون أفضل؟ عن ماذا أكتب ولماذا؟ هل يسأل هذه الأسئلة، أم لا يهمه سوى تحبير الورقة؟ يشكو الكثير من الزملاء من صلاحيات رئيس التحرير المطلقة، حيث يقوم بنقل كاتب من صفحة إلى أخرى من أجل إرضاء طرف ثالث، غالباً ما يكون المستفيد من الجنس اللطيف، وبضياع التخصص، يهبط مستوى الصفحة، مما يؤثّر سَلْبَاً في مستوى الصحيفة، وفي تغيير الاختصاص العبثي تثبيط للعملية الإبداعية، فلا يعود المنقول يهتم بأكثر من تحبير الورقة.

هل يسأل رئيس التحرير باعتبار شخصيته المعنوية: هل تغيرت هوية الجريدة؟ ما الفرق بين عدد الأمس واليوم؟ هل حَدَثَ تغيير في الجريدة منذ شهر أو سنة؟ هل تتمتع الجريدة بثقة القارئ؟ هل ازداد عدد القراء أم هو في تناقص؟ مع ملاحظة أنَّهُ لو سألَ هذه الأسئلة، أو تحدَّث عن الجريدة في حديثٍ عام، أو خاص، سيقول جريدتي، باعتبارها مِلكاً

شخصياً، فهو يعتلي منصب رئيس تحريرها منذ تأسيسها قبل أكثر من عشر سنوات، وإلى اليوم، مقابل راتب شهري محدَّد، ونثرية تزيد أو تنقص، ومكانة اجتماعية زائفة، وهو لا يعلم البتة، أنَّهُ بمجرَّد بقائهِ في منصبهِ طوال هذه الفترة، يتحوَّل إلى عائقٍ كبير أمام تطور الجريدة، وكلما جَرَت محاولة لتغييرهِ، يذهب إلى أعلى هرم السلطة، ليجلبَ بيدهِ كتاباً رسمياً يأمرُ ببقائهِ، وبالتالي فهو غير مهتم بالجريدة، ولا بالمبيعات زادت أو نقصت، ولا بتطوير الجريدة، وإذا ما جاءهُ تقرير مثير، أو خبر يتعلَّق بمكافحة الفساد، مع وجود أدلة تثبت صِحَّة الأقوال، يقوم رئيس التحرير بإجراء اتصالات هاتفية، يستشير أو يستأذن في نشرها، وغالباً لا يحصل على موافقة النشر.

لقارئ الصحف اليومية، مكانة خاصَّة، وَسِمَات شخصية مميزة، سواء داخل أسرتهِ أو مكان عملهِ، أو في المجتمع، وهو يتأثر سَلْبَاً وإيجاباً بما يقرأه في الصحف المحلية، كاستمرارية لشخصيته وكينونته التي تدَّعي المعرفة، منشِئاً بذلك سمعة خاصة، هذه الشخصية تعتبر قطعة مهمة في هوية المجتمع الكردي، لِما تمتلكهُ من خصائص فردية، تحاول التأثير في الآخرين، باقتناء بعض الأخبار والآراء وبثها في المحيط، بحسب أهوائهِ، أو معتقداتهِ، مما يُنشئ شعوراً موازياً بالانتماء، يحتوي إحساساً باستمرارية الهوية الكردية، ويُضفي عليها قوة وهمية، وتتشظَّى هوية هذا القارئ إلى حلقة مستمعيه، وينتشرُ نوعٌ من الفهم، بحسب تأييدهِ أو تهكُّمهِ بالأخبار المحلية، التي تتكرر كلَّ يوم، فالمسؤول عينه يستقبل ويودِّع ويفتتح، ويزور ويُكرِّم، وهذا التفخيم، لن يلقى أحياناً غير التهكُّم والسخرية، مما يُضعِفُ الشعور بالانتماء، ويقوِّي الشعور الموازي لدى الفرد والآخرين، باعتبارهِ صاحب هُوِيَّة مستقلة لديها نوعٌ خاص من الفهم، مما يهيئ البيئة الملائمة لنشأة هوية أخرى تُمثِّلُ كياناً منفصلاً ومستقلاً عن المجتمع الكردي، يستمر هذا الكيان في تمايزِهِ بموجب

مشاعر المفاضَلة، ويزدادُ ميلاً إلى أن يصبح فريداً من نوعه، ولهذا الكيان، كيانات أخرى، موازية، لديها رؤية مختلفة وبالتالي يصبح المجتمع الكردي أكثر عُرضَةً للتجزئة والتفكك.

وهذا التفكُّك البطيء، غير المُفَكَّر فيه، وغير المحسوس، هو مرحلة خطيرة من مراحل التطور الهويوي، لأنَّها توضِّح كيف يمكن للصحيفة، ولقارئها، أنْ يحقِّق اتصالاً وانفصالاً غير ملحوظ بالمجتمع، لأنَّ الهوية الفردية هنا، نقصد بها مجموع المَعارِف المتحصِّلة يومياً، بشكل تلقائي وعفوي جرَّاء الاتصال بالآخرين، وكيفية فهم الذات لها، هذا الفهم الذاتي الذي يشكِّل المرحلة الأولى في نشأة الوعي الذاتي، وذلك كنتيجة لتلبية الفرد رغبته المتزايدة في ممارسة نوع من السيطرة على المحيط، ليس بعيداً عن النموذج الديكارتي في كتابهِ " مقال عن المنهج" (أنْ تفهم أو أنْ تعرف، يعني أنْ تتأهَّب للشيء من أجلِ السيطرة عليه، لكن من أجل أنْ تسيطر، فإنَّهُ ينبغي أن تبدأ بالمعرفة أولاً، لكنك لن تستطيع أنْ تعرف، أو تفهم الشيء، إلا بشرط أساسي: هو أنْ تتحرَّر، ولو للحظة واحدة من هاجس السيطرة). ولأنَّ المواطن البسيط بمقدورهِ أنْ يتخلى عن هاجس السيطرة بشكل عفوي، ولا إرادي أحياناً، والفرد لا يشعرُ بهويتهِ، وقوتها، وتمايزها، إلا حينما يمارس اختلافاً عن الآخرين، أو عن العقل السائد، والآراء السائدة، وبالتالي هناك تغيير بطيء في بنية الهوية الفردية للمواطن، يؤثِّر في طريقة تفكيرهِ، ومواقفهِ ومعتقداتهِ وعاداتهِ، هذه المكونات الهويوية تمارسُ ضغطاً . وإنْ كان صغيراً وفق الرؤية المجردة، ولكنه كبير بسبب استمراريته . على المفاهيم السائدة، من أجل كينونة مُغايرة لهوية المواطن الكردي، في فهم موجز لبعض الأحداث، واستخلاص مفاهيم خاصة مغايرة للمفاهيم العامة السائدة، من أجل زيادة الثقة بالنفس، في الصورة الذاتية واحترام الذات أمام مرآة الهوية المعرفية الجديدة، حتى وإنْ كانت مزيفة.

صحفنا وصحفهم... أزمة هوية

فقدان الثقة، فقدان الهوية الوطنية، فقدان الإحساس بجمال الحياة، فقدان الأمن والأمان، لدينا كلُّ هذا وزيادة، فماذا لديهم؟ هم لا يهربون من ضعفهم، لا يزيفون الواقع، لا يحاولون التعتيم عليه، بل يواجهونه مهما كانَ مُرّاً أو فاضِحَاً، فبغير المواجهة، لن يكون تصحيح للوضع، قبل أيام نشرت جريدة الزمان خبراً مفاده إلقاء القبض على شرطي ضمن حماية مجلس محافظة نينوى، بحوزَتِهِ حبوب مخدِّرَة، واعترف بالإدمان، خبر قصير لا يتجاوز سطرين أو ثلاثة، وهذه حالة من عشرات الحالات، وقد ترجمَ عبد علي سلمان تقريراً عنوانه (مشاهد العنف وساعات القتال الطويلة تضطر الجنود لتعاطي المخدرات) للكاتبين تيموثي وليامز وعمر الجاووشي، مراسلي جريدة نيويورك تايمز في بغداد، في جريدة العالم عدد يوم الثلاثاء 2010/10/26، ولكن قبل ذلك بأيام طويلة قرأت خبراً طويلاً في جريدة الزمان أيضاً، عن إلقاء القبض على شرطي يبتزُّ عائلات الموقوفين، وذلك بعد أخذ أرقام الأوراق النقدية من فئة مائة دولار، وبمبلغ خمسة آلاف دولار، وإلقاء القبض عليه، بعدما أخذها من عائلة الموقوف، وهذه حالة واحدة، ولكن هناك حالات كثيرة جداً، فمبلغ الخمسة آلاف دولار يكاد يكون تسعيرة ثابتة، قد ترتفع بحسب التشديد والخطط الأمنية الفاشلة التي تصبُّ في النهاية لإثراء الضباط الفاسدين في الأجهزة الأمنية، الذين لو سألناهم عن القصور والحياة الباذخة التي تعيشها عائلاتهم، والتي لا تتفق مع عشرات أضعاف رواتبهم، فهل ننتظر مراسل جريدة نيويورك تايمز في بغداد، حتى يقرأ هذا الخبر، ومن ثمَّ يقرِّر إجراء تقرير حول هذه الظاهرة؟ لماذا والظاهرة تخصُّنا تُنْشَر في خبرٍ قصير؟ لماذا والظاهرة لا تخصُّهم تُنْشَر في تقرير مُفصَّل؟ لأنَّ الصَّحافي الأمريكي يتمتع بحصانة في بلدِهِ، هذه الحصانة تتزايد خارج بلدِهِ، وصحفيونا مهدورةٌ دماؤهم، في بلدهم.

ظاهرة ويكليكس، يقول مرتزقة المنطق والإعلام أنَّها جاءت لإحراج الحكومة الأفغانية أو حكومة أخرى غير معينة، وإلا لماذا جاءت بهذا التوقيت بالذات؟ إحدى الوثائق التي نشرها الموقع، فيلم فيديو يظهر مقتل اثني عشرَ عراقياً مدنياً على يد الجيش الأمريكي من خلال طائرة أباتشي كانت موجودة بالموقع، ألعاب الفيديو الرائجة في العراق، تظهر جنوداً أمريكيين، يقتلون العراقيين، وأطفالنا وأطفالهم يلعبون هذه الألعاب، ولكن آباءهم من الجنود الأمريكيين يُطبِّقون هذه الأفلام على الأرض، حيث أثبتوا للعالم أنهم آلة دمار وخراب عشوائية، وحكومتنا وافقت على دفع مبلغ أربعمائة مليون دولار كتعويض عن الأمراض النفسية التي لحقت بالجنود الأمريكيين في حرب الخليج الثانية، بسبب مشاهد الدماء المسفوكة، فقد صار أحدهم يستمتع بالقتل لمجرد القتل، سبحان الله يقتلوننا ويأخذون تعويضاً لأنَّ دماءنا القانية سَبَّبت لهم بعض الكوابيس، أو لوَّثت ثيابهم النَّاصِعَة البياض.

صناعة الخبر في الصحافة العراقية: الزمان والاتحاد كأنموذجين

(لطريقة القول أهمية تعادل القول ذاته.. تعتقد وسائل الإعلام كغيرها من الصناعات القديمة أنَّها ملزمة كلَّ يوم بإخراج نتاج متشابه الحجم، يتضمن المواصفات ذاتها تقريباً.. وهي مضطرة بالتالي إلى إدراج حشو ملء الفراغ دون تجاوز المساحة أو الوقت المخصَّص، فهي تعرض نتيجةً لذلك بياناً مُشوَّهاً عن الأوضاع الراهنة)(2)، وطريقة القول ليست سوى أسلوب صياغة العنوان ومتن الخبر الصحفي.

---

(2) جان كلود برتراند، ديونتولوجيا الإعلام، ترجمة: رباب العابد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 2008، بيروت، ص95.

إذا كان الحشو والإطناب مبرَّراً في المتن بملء الصفحة، وهو تبريرٌ سيئ للغاية، فإنَّه لن يجد أبداً تبريراً في العنوان الرئيس للخبر، ونجد معظم صحفنا تكتب عنواناً رئيساً في الصفحة الأولى من 15- 25 كلمة. لتعيد تدوينه في المتن بالكلمات عينها، بينما المانشيت الرئيس لجريدة التايمز اللندنية ليوم السبت 15 أيار 2010، جاء تحت عنوان (البرازيل تقوم بدور لا تجرؤ واشنطن على القيام به). نوعٌ من الإثارة: ما هو الدور؟ وإذا وقعَ هذا الخبر بين يدي محرري صحافتنا، لأعادت صياغته بطريقةٍ تكفل موته، ولكتبت (زيارة رئيس البرازيل لولا دا سيلفا إلى إيران) واستمرت حتى تأتي على نهاية الخبر، مما يقتل التشويق والإثارة، وفي المتن لا يفعل المحرر العراقي شيئاً سوى إعادة كتابة العنوان في إطناب وأسلوب إنشائي تقليدي خالٍ من أيِّ نوعٍ من الإثارة. بينما العنوان الرئيس لصحيفة الأندبندنت اللندنية فكان (الحرب التي لا يريدها أحد) ظننته يقصد عزم واشنطن على قصف إيران، فإذا به يتحدث عن حرب إسرائيل وحزب الله المدعوم من سوريا وإيران، والعنوان مقال للكاتب روبرت كورنويل الذي يرى أنَّ (أسباب اشتعال الحريق متوافرة على طول حدود إسرائيل الشمالية، والعوامل الدافعة في هذا الاتجاه هي إسرائيل المصممة على الدفاع عن حدودها ضد أي هجوم وجماعة حزب الله المسلحة، ودولتا سورية وإيران مهتمتان برعاية مصالحهما في أكثر المناطق عرضة للاشتعال على وجه الأرض). العنوان لا يتكرر في المتن إلا في الصحافة التقليدية، التي تريد إنجاز المهمة في أسرع وقت، حشو البياض بالحبر، ولا تهتم بغير ذلك.

كان غوبلز وزير دعاية هتلر يردد دوماً (أفضل طريقة لنشر الخبر، نشره بدون تعليق) وحين نستشهد بغوبلز لا يعني موافقتنا على جميع آرائه، ولكن على الصحافة تقديم الخبر دون تعليق، لإتاحة الفرصة للقارئ كي يُعمِلَ عقله، ويستنتج، وفي هذه القاعدة العديد من المزايا، منها: لأنَّهُ يراهن على اعتداد المتلقي بذكائهِ، ومنحهِ فرصةً لاستعمال

ذكائه، والاستنتاج من الخبر بحسب ما يوافق ميوله، ويظهر أنَّ ناشر الخبر يلتزم الحياد التام، ويترك القرار للقارئ، مما يعكس مصداقيته، ولكن بمقدور الصحافي المحترف القيام بعدد من العمليات غير المباشرة، للتلاعب بالخبر دون إشعار القارئ، كالتلاعب بالعنوان، واختيار الكلمات المناسبة، وإعادة ترتيب أجزاء الحدث، وعليه أنْ يجري هذه التعديلات واضعاً نُصبَ عينيه أنْ لا يتحوَّل الخبر إلى غموض تام، لا يفهم المتلقي منه شيئاً، وهكذا نجد وسائل الإعلام العالمية، التي اكتسبت خبرة طويلة تراكمت عبر عقود من التجارب، جعلتها اليوم قادرة على قولبة الأخبار وتحجيمها، وتأطيره بالإطار الذي تريد للمتلقي استيعابه، فالخبر في أصلهِ لغة، فكيف لمحرِّرٍ غير متمكن من لغتهِ أن يتلاعب بصياغة الخبر؟ فالوقائع تشير إلى المعنى الذي يريده كاتب الخبر، فيحقِّق الإثارة نحو جهة معينة من الخبر، مهملاً بقية النواحي التي قد تكون أقرب إلى الحقيقة، وبهذا فهم لا يهتمون بصياغة الأخبار فقط، بل يهتمون بالطريقة التي سوف يتلقى بها المواطن هذا الخبر، ويحاولون من خلال سيطرتهم على الصياغة، التلاعب أو السيطرة على المواطن، فالخبر حين يكون مجسَّداً في قصة اجتماعية تنال اهتماماً أكبر، فانتحار أحد شباب مدينة دهوك، برمي نفسه من قمة جبل زاوا، يجب أن يُصاغ في قصة تتضمن سبب الانتحار، وكيف أنَّ مشاجرة عائلية بسيطة قد تدفعُ شاباً لم تقدِّم له عائلته ولا المدرسة ولا الفضائيات ولا وسائل الإعلام، مادةً تنقذه من الميوعة التي تجعلُ إنساناً يفكِّر في إنهاء حياتهِ أمامَ أول عقبة تعترضُ حياتهُ، فيظنُّها القاضية، ونهاية العالم، والطريقة التي قدَّموا فيها الخبر، تجعل شباب اليوم يهددون أولياء أمورهم بالانتحار مقلدين بذلك هذا الشاب، وبذلك يبتزونهم ويجعلونهم ينزلون عند رغباتهم، يجب تقديم الخبر في إطار سينمائي يُجسِّد الخبر، ولا يكتفي بالإخبار الإنشائي، تجعل المتلقي وكأنَّما يشاهد أحداث مسرحية، يجب إظهار وليّ الأمر باعتباره ضحية،

من دون أنْ يبدو على كاتب الخبر أيّ انحياز، فالإطار والعنوان وجملة البداية، وترتيب الأحداث، هو الذي يغيِّر رأي المتلقي بالحادث، ويثير اهتمامهُ بشكل إنساني محض، وهو ما جعل المؤرِّخة الأمريكية باربارا توشمان (1912-1989) تعتقد بأنَّ 'الإطار هو العنصر الرئيس لكيفية تلقي القارئ أو المتلقي للخبر، باعتبارهِ النافذة التي ينظر من خلالها إلى العالم'، ونالت جائزة بوليتيزر عن كتابها (المرآة البعيدة للقرن الرابع عشر/ 1978) لتسليطها الضوء على التاريخ الشعبي للطبقة المسحوقة، وما كانت تعانيه من قمع وأوبئة، في إطارٍ آخر، من خلال حياة النبيل الفرنسي إنغوراند دي كوسي، وهي تقول بأنَّ المحرِّر يجب أن يمتلك رأياً خاصاً بالحدث الاجتماعي يحاول إسقاطه في ذاكرة المتلقي، بطريقةٍ غير مباشرة، فعملية تحرير الخبر ليست عملية إنشائية ينتهي منها المحرِّر خلال دقائق قصيرة، بل يجب دراسة الخيارات المفتوحة أمام متلقّي الخبر، عند كل صياغة، ويتخذ قراراً إستراتيجياً، بشأن المانشيت الرئيس للجريدة، فالذي يطالعُ جريدة الاتحاد العراقية يصطدم بأنَّ المانشيت الرئيس دوماً يتعلَّق برئيس الجمهورية، ونشاطاتهِ، مع صورة كبيرة أو صورتين للسيد الرئيس، مما يذكِّر بصحافة البعث، ولن يضرَّ الرئيس إذا انتقلَ في يومٍ ما، إلى صفحةٍ أخرى، بل على العكس سيجعل القارئ يغيِّر الصورة النمطية التي قد كوَّنَها عن هذه الجريدة، فلو جئنا إلى عدد 2398 الصادر يوم الأحد 9/ 5/ 2010 سنطالع المانشيت الرئيس (رئيس الجمهورية يلتقي الرئيس المصري والأمين العام للجامعة العربية) وتحته صورتان كبيرتان، يجب على العنوان أن يكون مختصراً قدر الإمكان، فبوسع المتلقي أن يفهم المغزى عينه من (طالباني يلتقي مبارك وموسى)، أو أيّة صياغة أخرى غير تقليدية، ويوم الاثنين (الرئيسان العراقي والمصري يُشدِّدان على تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين) وتحته صورتان كبيرتان أيضاً، وبوسعهِ أنْ يكتب (طالباني يروم تطوير العلاقات مع القاهرة) فصورته مع مبارك سوف تقول إنَّ مبارك يشدِّدُ أيضاً، أو غير

ذلك من الصياغات المتاحة، التي قد لا أكون بارعاً في استنباطها، ومانشيت اليوم التالي الثلاثاء 11/ 5/ 2010 (طالباني ينهي زيارة ناجحة إلى جمهورية مصر العربية) إضافةً إلى العنوان الطويل، هناك خطأ في المتن، فليست هناك حاجة للمواطن العراقي كي يعرف أنَّ الرئيس المصري مبارك لم يذهب لتوديع رئيسنا، مما يشعرني بالإحباط، بل أنابَ وزير البترول المصري، ونحن نعلم، أنَّ هذا خلل دبلوماسي، من شأنِهِ سحب السفراء لو حدث مع رئيس دولة أخرى، فكما حدث في متن الخبر ليوم الاثنين حيث كتب المحرِّر (استقبل الرئيس المصري نظيره العراقي في مقر رئاسة الجمهورية) كان بإمكان المحرِّر أن يغضَّ الطرف عن بروتوكولات الاستقبال في المطار، بل كان من الضروري أنْ يغضَّ الطرف عن بروتوكولات التوديع، لأنَّ المواطن سوف يفهم بأنَّ الزيارة كانت غير ناجحة، ومانشيت يوم الخميس 13/ 5/ 2010 (الرئيس طالباني والسيد الحكيم يؤكِّدان على عدم إطالة الفراغ الذي تشهده البلاد)، إذاً فماذا ستقول الصورة الكبيرة الملونة، وماذا سينقص الخبر لو كان (طالباني يؤكِّد خطورة الفراغ السياسي) والبقية تُقال في متن الخبر، وصورة الحكيم جالساً مع طالباني تقول لنا إنَّ الحكيم يشاطرُ طالباني رأيهُ.

أما مانشيتات جريدة الزمان في طبعتها العراقية، فإنَّ قارئ المانشيت الرئيس للصفحة الأولى، يشعرُ بأنَّ المتن لم يعد فيه شيء يستحقُّ القراءة، فالعنوان يجب أنْ يكون عنصر جذب، ففي مانشيت يوم الخميس 13/ 5/ 2010 نجدُ عنواناً من ثلاث فقرات (شكوك تحوم حول أربعة مصارف أهلية ـ الشروع بالتحقيق ومع سفر أحد المتورطين ـ شبكة احتيال تجني نحو خمسين مليار دينار عراقي من تجارة الإنشائية) عنوان يتكوَّن من ثلاث وعشرين كلمة، ماذا بقيَ في المتن من قول؟ وعبارة مصارف أهلية عبارة خاطئة، فلا يوجد مصارف أهلية وغير أهلية، بل هناك مصارف خاصة ومصارف حكومية، وشبكة الاحتيال لا

تجني، فالجني فعلٌ مُباح، وإنَّما تختلس أو تسرق، وكان يكفي (سرقة خمسين ملياراً من الشركة العامة لتجارة المواد الإنشائية) وهذا الاختصار في المانشيت الذي يثير الفضول، سيدفع القارئ إلى قراءة الخبر بنهم وشوق كبيرين. ولكن صياغة المانشيت وفق الإطار التقليدي المُتَّبع الذي لم يتغيَّر من صحافة الحزب الواحد، عامل مهم في انحسار عملية قراءة الصحف، وإنَّ ميل المحرِّر إلى قول كلِّ شيء من خلال العنوان، سيجعل عدداً من القرّاء يمرُّ على الصحيفة وهي ملقاة على مصطبة بائع الجرائد مرور الكرام. وكان على المحرِّر وهو يدوِّن تصريح مدير عام الشركة بأنَّ (الشركة هي التي اكتشفت الجريمة وأبلغت هيئة النزاهة والمفتش العام في الوزارة) ألا يتناسى الاتصال بالمفتش العام أو هيئة النزاهة، وهما الجهتان الأكثر اختصاصاً بهذه القضايا.

والقضية تبدو أنَّ عدداً من التجار، قد استلموا مواد إنشائية كقروض مستندين إلى خطابات ضمان صادرة عن مصارف خاصة، ثمَّ أُعيدت إليها، والسؤال هو أنَّ الاتصالات موجودة، والمصارف في بغداد، والإهمال جسيم من المدير العام ومدراء المصارف، ومنذ بداية القرن العشرين فإن (مرَّ قرنٌ من الزمن على انتشار الفضيحة التي أحدثتها عشرات المليارات من الفرنكات التي قدمها الفرنسيون إلى روسيا القيصرية، ففي ذلك العصر كان أي إصرار على تقديم قروض جديدة، يُحارَب من قبل الصحافة)[3]. وحين نقول من الصحافة، نقصد الرأي العام، الذي يقف بالتأكيد ضد أيّة مساعدات خارجية، بينما الداخل يعيشُ حياةً ملؤها الضنك، وبهذا الصدد يقول رشيد بن عياش: (تستطيع الحكومات، خصوصاً إذا حدث تغير في النظام أو الأيديولوجية القائمة، إنكار الديون السابقة ورفض تسديدها كما يحدث أخيراً في الدول

(3) م. باومنت، النهضة الصناعية والإمبريالية الاستعمارية، دار بيوف، 1937، باريس، ص196.

الأفريقية، والأمثلة على إنكار الديون العامة كثيرة: ففي القرن التاسع عشر، امتنعت دول كثيرة عن تسديد ديونها مثل مصر عام 1876م، وإسبانيا عام 1820م والعديد من دول أمريكا اللاتينية. وفي القرن العشرين رفضت روسيا الاشتراكية تسديد قروض روسيا القيصرية سنة 1917م، والأمثلة كثيرة وكلها ناتجة من تغير جذري في النظام السياسي القائم في الدول المعنية).

وكذلك الشركات الوهمية لا تسدِّد ديونها، وأنَّ مسألة الشركات الوهمية، هي أسُّ الفساد في العراق الجديد، لأنَّ هذه الشركات غالباً ما تكون لمستثمرين أجانب، مغامرين، يحظون بدعم أحد المسؤولين، الذي يختبئ بعدما تقع الفأس في الرأس، وهناك قضايا خطيرة ومهمَّات بطولية قام بها مفتشو الوزارات، كعملية إلغاء بطاقات تجهيز البنزين والنفط الأبيض في مدينة نينوى، التي كانت أكبر ضربة للفساد الإداري والمالي في العراق، قال عنها أحد أفراد عصابات المافيا أنَّ عملية الإلغاء جعلته يخسر أكثر من نصف مليار دينار عراقي، مرَّت مرور الكرام، ولم يُسلَّط عليها الضوء، ويقول مورت روزبنلوم من وكالة أسوشييتد برس: (حين أتى النداء في منتصف الليل، كان على الإطفائي ارتداء ملابسه بسرعة وإطفاء النار، أمَّا المراسل الصحافي فعليه أنْ يخبر مليون شخص: مَنْ أشعلَ عود الكبريت؟ ولماذا؟)[4].

كنا نريد من كاتب التقرير، أنْ يطلعنا على كيفية عملية إعادة خطاب الضمان بعدما تمَّ تسليمه للشركة العامة، وهل كان الخطاب مُزيَّفاً أم لا؟ وكيف تمرُّ هذه العملية بسهولة، دونما قيام مدير المصرف باتصال هاتفي مع مدير المصرف أو العكس، للتحقق من خطاب الضمان؟

---

(4) ديفيد راندال، الصحفي العالمي، ترجمة معين الإمام، دار العبيكان، 2007، الرياض، ص81.

المحتويات



الزيباري يحاول إعادة اكتشاف الهوية الكردية، خارج إطارها الأيديولوجي الذي اعتاد تغليفها من الجانبين المتحيزين(مع/ ضد)، ليؤسس لكتاب قد يعدّ مرجعاً رئيساً لتحولات العقل الكردي، من مجتمع فقير أرهقه الإقصاء والتهميش، إلى رفاهية منتظرة لم تتحقق بعد، ويمضي محللاً الفوائد الجمّة التي جناها الإقليم من النشاط الدبلوماسي والتصريحات الإعلامية التي صدرت عن إقليم كردستان، ومحذراً من القفزات السريعة للهوية الكردية فوق عقبات ذوات جذور، ضاربة في التاريخ، وكل قفزة من شأنها أن تخلق هوة بين الهوية الداخلية والخارجية، القديمة والحديثة، مروراً بتمظهرات المجتمع الكردي البطرياركي، في مواجهة تحديات العولمة، استفهامية عنف اللغة، والتمييز العنصري بسبب اللغة، وإمكانية تخطيط اللغة الكردية، وبحث الهوّة بين اللغتين العربية والكردية، ومنعطفات الهوية الكردية، المستندة في جزء كبير منها إلى هوية البطل الأسطوري، مروراً بهُويَة العقل الأداتي والعقل التواصلي، هذا الكتاب المشوّق الممتع بغزارة معلوماته وطرافتها، وخلوه من التعقيد، لكن ليس للنخبة الأكاديمية أن تستغني عنه، وبدقة محلل مختبري يعقدُ مقارنات ثقافية موسوعية، يتابع نزهة رولان بارت في بلدته الصغيرة جنوب غرب فرنسا، وملاحظته اللافتات الثلاث على أبواب فيلات ثلاث (كلب شرير- كلب خطير- كلب للحراسة) واستنتاجه أنّ مالك الفيلة يختبئ وراء خطابه، ويتوسّع الباحث مستنتجاً أنّ كل إنسان وكلّ جماعة بشرية وقائمة انتخابية تختبئ وراء شعاراتها، وهويةُ الإنسان تنكشف جزئياً من لغته وأسلوبه في الكلام، كقول إبرهة الحبشي لعبدالمطلب كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، ويحلل الباحث ردّ عبدالمطلب المنطلق من بينته الاجتماعية المستندة إلى بُنية المقدّس

عبدالكريم يحيى الزيباري . مواليد 1971

- **بكالوريوس قانون . جامعة الموصل**
- **حائز على جائزة الشارقة للإبداع العربي في دورتها الثانية عشرة/ 2008 في مجال النقد الأدبي المركز الثاني وجائزة عزيز السيد جاسم في دورتها الثالثة/ 2007 في مجال النقد الأدبي/ المركز الأول، إضافة إلى شهادة تقديرية من الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب 2008**
- **له العديد من الدراسات النقدية المنشورة في المجلات العراقية والعربية**
- **شارك في عدد من المهرجانات الثقا**

9 789953 718071